

حسن الأمين

قِيمُ خَالِدَةَ

في التاريخ والأدب



دار التراث الإسلامي
للطباعة والنشر والتوزيع

قِيمُ خَالِدَةَ

في التاريخ والأدب

الجزء الأول

بقلم

حسن الأمين

١٣٩٤ - ١٩٧٤



دار الفرات الإسلامية
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان
ص.ب. ٩٥٨٤

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه بحوث نشرت في الصحف العربية في اوقات متباينة وظروف متباعدة ، جمع ما بينها انها من تاريخ هذه الأمة في الصميم سواء كانت بحوثا في التاريخ او بحوثا في الادب . ولم اثنا ان افصل فيها بين ما هو تاريخي بحت او ادبي بحت ليقيني بارتباط الاثنين وتمازج النوعين .

وبعد ان نشرتها فصولا متفرقة ، رايت ان اؤلف بينها في اضمامة واحدة ، اذا تنوعت اغصانها وتلونت افنانها ، فستظل من روض متكامل وحقل متماسك ، لا يعدو تاريخ العرب وادب العرب . وحسبي بالعرب محفدا يمد بكل كريم ويرفد بكل طيب .

وليس من شأن الكاتب ان يرضي كل الميول ، ويوافق كل المناحي . وليس من امره ان يمازج بين تضارب الاهواء وتشاكس الآراء . ولكن من شأنه ان يكون مخلصا فيما يقول . وهذا ما احسبني كنته ، وما اعلمني عشته .

فالى المخلصين وحدهم اهدي هذه الصفحات وكل ما كتبت وما سوف اكتب .

هذه اللغة العربية (١)

هذه اللغة العربية المظلومة التي تهاجم بلا هوادة وتهجا بلا رفق . . . هذه اللغة التي ينسى المهاجمون كل جمالاتها ، ولا يذكرون الا ان فيها قواعد صعبة تدق على افهامهم وتعيبى بها افكارهم ، والا ان فيها عامية وفصحى وهم يريدونها عامية بلا فصحى !

هذه اللغة التي حملت لنا احدى الصحف تحقيقا عنها من احد « الدكاترة » ، تحقيقا لا شك ابدا بان الدكتور كان مخلصا فيه ، وان لم يكن مصيبا . . . واذا كانت اللغة قد منيت بالقادحين ، فهي قد اصبحت ببعض المادحين ، فكل من فكر في امر من امورها كان عندهم مأجورا هداما . . . اما ان فيمن هاجمها مأجورين هدامين فهذا حق كل الحق ، واما ان فيمن نقدوها مخلصين بنائين فهذا ايضا حق كل الحق ، ونحن لن نأخذ انفسنا الا بالدفاع الذي نؤمن به ونعتقده .

اول ما يطالعك من هذه الاراء هو القول بازدواجية اللغة العربية وان فيها فصحى وعامية ، بل يكاد يقال ان فيها لغتين . . . وهذا المأخذ الذي يهول به المهاجمون تهويلا عجيبا ، ويصخبون به صخبا شديدا ، هو اهون من ذلك

واقل خطراً ... فليس العجيب أن يكون في اللغة العربية عامية وفصحى ، وأن يكون بينهما هذا الفارق ، بل العجيب هو صمود هذه اللغة أمام الاستعمار والفتح ، وبقاؤها حية إلى يوم الناس هذا ... العجيب هو أن اللغة العربية لم يكن شأنها شأن اللغات البائدة ، ممن لم يبق منها إلا آثار ، كالسريانية وغير السريانية ، بل ظلت لغة الملايين تتدفق بالأدب العريق والشعر الرقيق !

إن اللغة التي فقدت سلطانها ، وعنت للفاثحين ستة قرون أو تزيد ، لا يرتفع لها فيها علم ، ولا يهدر فيها لها صوت ، ولا يرف لها فيها نغم ... إن اللغة التي حكمها المتغلبون الفاتحون حكم الجتاح الغاصب ، الذي يرى فيها شبح المقاومة وخيال الانتفاض ، حكموها قروناً حكماً لا رحمة فيه ولا لين ، حتى إذا خيل للناس أنه لن يبقى فيها نفس يتردد ولا حركة تتجدد ، خرجت من الظلام القاتم كأتم ما تكون بريقاً وأشعاعاً !

اتعجبون أن يكون في اللغة العربية فصحي وهاامية ، ومد مزق الفتح اقطارها ، وحجز بين ديارها ، فاصبح العراقي المحكوم من الانكليز يسمى مثلاً المنضدة « ميز » والشامي المحكوم من الفرنسيين يسميها « طاولة » !

إن النتيجة الحتمية لما نال العرب من اضطهاد ، وما صارت إليه اقطارهم من تشتت ، هو أن تنشأ فيها « العاميات » المحلوبة التي تتباعد تباعداً قويا ، كما أن النتيجة الحتمية لما صارت إليه حال العرب اليوم من استقلال وتحرر ، ولما استصير إليه في الغد من تجمع

وتوحد ، ان تضيق الشقة بين العامية والفصحى ، وان تظل تضيق وتضيق حتى تغدو خيطا دقيقا لا تخلو من مثله لفة ولا يشذ لسان !

ان الفتيحة الحتمية لانتشار الصحافة والمذيع ، ولتقدم الثقافة والتعليم ، هي ان يأتي يوم يصبح فيه التفاوت بين اللهجات العربية تفاوتاً جزئياً يقوم على نوع من اللفظ وطريقة في اخراج الحروف . . . خذ عاميين جاهليين من قطرين عربيين مختلفين ، عاميين من بقايا الاستعباد وقلول الاستعمار ، خذ هذين العاميين واجعلهما يتفاهمان ، فأما معك بانهما يكادان لا يبينان في بعض ما يؤديان من قول ، وما يريدان من كلام . . . ولكن خذ شابيين مثقفين من قطرين عربيين مختلفين ، تر ان ليس في لهجة كل منهما ما يباعد بينها وبين ان يفهما الاخر ، ذلك انهما قد دنوا من الفصحى ونأت بهما الثقافة عن العامية .

لم تعد الالفاظ الجديدة تؤخذ عن طريق الحاكمين الغرباء ، فيقول العراقي لسائق السيارة « دريفر » ويقولها الشامي « شوفير » ، بل انها تؤخذ من الصحافة ومن المذيع ، فكل البلاد العربية من طنجة الى مسقط تقول اليوم بعامياتها وفصحائها : القنبلة الذرية ، وقاذفات القنابل ، والنفاثات ، والتأميم ، والقصف الجوي ، وغيرها من الكلمات المستحدثة الجديدة ، ولم يعد في البلاد العربية من لا يقول : سيارة ، وطيارة ، وقطار .

ان الصحافة والثقافة والمذيع ، وان التقارب والتعارف والاجتماع ، هي التي ستمحو ازدواجية اللغة العربية

المزعومة ، وهي التي لن تبقي من كل هذا الازدواج
الابقايا نجد امثالها في كل لغة .

وبعد ازدواجية اللفظة يطالعونك بامر قواعد اللغة
ويستشهد بعضهم على ذلك بجملة « ان الطقس جميل »
ويرى ان كلمة الطقس هي مبتدأ منصوب ، لان الطقس
هو موضوع الكلام ، فهو الاساس اذن ... هو مبتدأ ، ولكنه
مبتدأ منصوب ، ووجه نصبه هو دخول هذه الاداة للتوكيد
... يقول هذا القول ، ويعدها من مشاكل اللغة ، ويتخذها

دليلا لدعم رايه في الهجوم على القواعد العربية !
وكنت اود لو انه استشهد بغير هذا الكلام ، فكيف فاته
ان هذا الذي يقوله هو عين ما تقوله كتب النحو ، من كتاب
سيبويه الى احدث كتاب صدر في هذه السنة .

ماذا قال الفحاة عن « ان » ، نحاة عصر سيبويه ،
ونحاة عصر القائل ... انهم يقولون عنها وعن اخواتها انها
تنصب المبتدأ وترفع الخبر وهذا كل عملها ... وماذا من جديد
في قول المعترض ؟ انهم يقول صراحة كما قال : ان الطقس
مبتدأ ولكنه منصوب ، ووجه نصبه دخول هذه الاداة عليه
للتوكيد ... وكل جريرتهم انهم سمو هذا المبتدأ المنصوب
« اسم ان » تمييزا له عن المبتدأ المرفوع ، انهم لم ينكروا
انه مبتدأ بدليل انهم قالوا : « ان تنصب المبتدأ » اذن فهو
عندهم مبتدأ ولكنه مبتدأ منصوب !

ويقول ، او بالاحرى يقال عن لسانه : « ترى الا
نستطيع ان نعلم العربية بطريقة ترسخ في عقول الاولاد
ويمبلون اليها ، عوضا عن ان ينفروا وييكوا ويلعنوا

سيبويه ، بدلا من ان يترحموا عليه ويرحموه ؟ » ونقول
لقد كنا اولادا ، وكان الملايين غيرنا اولادا ، وتعلمنا اللغة
العربية ، ورسخت في عقولنا ، وملنا اليها ، وترحمنا على
سيبويه ورحمناه . اننا لم ننفر منها ولم نبك ابدا . . . وما
ذنب اللغة اذا اساء تعليمها بعض المعلمين ، او ضاق
عن فهمها بعض المتعلمين ؟

واذا كانت - كما يقول الناقل لكلام المعترض - اذا
كانت هدى « ابنة الدكتور الحلوة المهضومة تدمع عيناها
الحلوتان ، كلما اخذت فرضا في الاعراب ، فتأتي الى
ابيها مولولة : بابا دخيلك ساعدني عندنا « قواعد » ومش
فاهمي شي » . . . اذا كانت هدى « لا تستطيع مجاراة
الكسائي والفراء والرخفش » - كما يقول الكاتب - اذا كانت
هدى كذلك ، فهل يجوز ان نحكم على النحو بالموت ، اكراما
لعينها الحلوتين ، لئلا تدمعا فرقا من القواعد . . . وما
دامت هدى لا تستطيع ان تلفظ القاف من كلمة « قواعد »
فما علينا اذن ، الا ان نلغي القاف من اللغة ونحل محلها
الكاف !

لقد كنت احب للكاتب ان يعالج الموضوع معالجة جدية
صارمة ، ولم اكن احب له ان يقحم ، في موضوع خطير
كهذا الموضوع ، مثل هذا الهزل المرير !

واما الثالثة التي لا ينون يثيرونها فهي مسألة
الخط العربي الجميل . . . انهم ينسون كل مزايا هذا الخط
ولا يخطر لهم الا الحرف اللاتيني . . . ينسون ان الحرف
اللاتيني ليس هو كل شيء في هذه الدنيا العريضة، وان الامم

التي لا تأخذ به هي اكثر عديدا واطوع حدودا من الامم
التي تأخذ به .

وما اوهى الحجة التي ينادون بها للحرف اللاتيني من
ان علينا ان نفهم اولا لنستطيع القراءة . . . واني اسأل
الكاتب : اهو جاد في هذا القول ؟ . . احقا يضيق فهمه وهو
يقراً ثم يتوقف حتى يفهم فيعاود القراءة ! . . اني اسأله
كم مرة يحدث له ذلك وهو يقرأ كتابا من الدفعة الى الدفعة؟ . .
اهو متوقف عند كل كلمة متردد في كل عبارة ؟ . . احقا يجد
في ذلك مشكلة ؟

اما الامر الذي نقر الكاتب عليه — وان اخذناه على
غير ما يأخذه — فهو قوله : فلغتنا لصيقة بالعاطفة والدين
والتاريخ والقومية .

اجل والله ، اجل وذمة العرب . . . ان لغتنا لصيقة
بكل ذلك ، وستظل لصيقة بكل ذلك ابدا . على عكس
ما يتنبأ لها الكاتب ! . .

واما ان هذه النواحي الفكرية ترى بعين القلب
لا بعين العقل ، فاننا نخالفه فيه ونقول له : انها ترى بكلا
العينين . . . ان لها عينا تشع من القلب ، وعينا تشع من
العقل ، وحسبها عيناها المشعنتان مصباحا في هذا الديجور !

معركة عين جالوت « ١ »

لا احسب ان امة نكبت بمثل ما نكبت به هذه الامة في الغزو المغولي الذي بدأه جنكيز خان واكملة هولوكو . ولا احسب ان شعبا استهدف لمثل ما استهدفت له الشعوب التي جاءت على طريق هؤلاء الغزاة الراءيين ، الذين تجاوزوا كل حد في القتل والتدمير والغدر والاباحة ، والذين انسوا كل ما سطره التاريخ من احوال .

فلم تكن غايتهم توسيع ملك وحكم شعوب وامتلاك بلاد ، مما يمكن ان يكون غاية كل فاتح مجتاح ، ولا كان الدافع حب السيطرة والتحكم والاعتناء . بل كان الدافع حقد الوثنية على التوحيد ، وكره الجهل والعمامية للعلم والهدى .

ومن هنا لم ينفع الناس مقاومة ولا تسليم ، ولم يجدهم امان ولا ايمان ، فالدافعون المهزومون يبادون والمصالحون المستامنون يقتلون ، ثم بعد كل ذلك احراق للكتب واستئصال للعلماء .

ومضى هولوكو على هذا السبيل ، ودمر ايران وقوض العراق ، ثم نفذ الى الشام مستهدفا مصر لتعم

١ - تقع عين جالوت في فلسطين بين بيسان ونابلس وحدثت المعركة في رمضان السنة ٦٣٨ هـ - ١٢٦٠ م .

كارثته وتطغى مصيئته .

وبينما هو يهيم بالخطوة الجديدة اذ بلغه نعي اخيه ومليكه (منكوآآن) وترامى اليه ان نزاعا بين اهله يوشك ان يحل ، فلم يشأ ان يستأثر غيره بسيادة الموقف الجديد ، فأب الى بلاده مخلفا جيوشه الكثيفة على اهبتها لغزو مصر بقيادة قائد من اشرس قواده اسمه (كيتوبوقا) .

التهديد

وكان هولاكو قد انفذ قبل رحيله نذيرا الى حاكم مصر ، الملك المظفر سيف الدين قطز (٢) ، مع واحد واربعين رجلا من رجاله الغلاظ الشداد .

وكانت انباء انتصاراته قد عمت الدنيا كلها ، وكانت جيوشه ثملة ببأسها ، وكان الناس في كل مكان يوقنون بالفشل ان قاوموه ، بعد ان كسر في زحفه ما لم يكسر ، وفتح ما لم يفتح .

في هذا الجو المشحون بمعنى الانهزام المملوء بالرعب ، المفعم بالانخزال ، مضى وفده يحمل الى حاكم مصر هذا الكتاب :

« ان الله تعالى قد رفع شأن جنكيز خان واسرته ، ومنحنا ممالك الارض برمتها ، وكل من يتمرد علينا ويعصى امرنا يقضى عليه ، مع نسائه ، وابنائها ، واقاربها ،

٢ - الملك المظفر سيف الدين قطز بن عبدالله المعزي تسلطن بعد خلع استالاه الملك المنصور علي بن الملك المعز ابيك يوم السبت ١٧ ذي القعدة سنة ٦٥٧ .

والمتصلين به ، وبلاد ، ورعاية ، كما بلغ ذلك اسماع
الجمييع . اما صيت جيشنا الذي لا حصر له فقد بلغ
الشهرة كقصة رستم واسفنديار . فاذا كنت مطيعا كخدم
جضرتنا ، فارسل الينا الجزية ، واقدم بنفسك واطلب
الشحنة ، والافكن مستعدا للقتال » .

هذا هو الانذار المخيف الذي حملة الواحد والاربعون
مغوليا الى السلطات المصرية وهذا هو التهديد المروع
الذي وصل الى القاهرة .

وكانت كل جملة في هذا الكتاب صحيحة صادقة
فقد دانت لهم ممالك الارض ، وكل من تمرد عليهم قضي عليه
وخربت بلاده . وشهرة جيشهم المنتصر كانت اعرف من ان
ينوه بها . وكبراء الناس قد صاروا خدم الحضرة المغولية .

وهبط الوفد مصر جبارا متكبرا ، يزلزل بروعته العزائم
ويوهي الهمم . هبط مصر وهبط معه تاريخ اسود من
الانتصارات الكاسحة ، وماض بشع من التسلط المهول ،
كانا كافييين للتسليم والخذلان ، لولا ان جابهتهما حمية
شمااء ورجولة انوفة وبطولة وفداء .

وكان قد سبق الوفد المغولي الى مصر وفود
المنهزمين في البلاد الاخرى من الذين اطاحت بهم الضربات
المغولية فتساقطت بلادهم ، البلد بعد البلد ، فتجمعوا
كلهم في مصر لاجئين اليها .

وها هم المغول يلاحقونهم الى القاهرة وينازلونهم
على النيل .

مؤتمر عسكري

كان الامر اخطر من ان يقطع فيه انسان واحد . وكانت مصر آخر معقل فاذا هوت ، لم تقم بعدها قائمة . لذلك لم يجرؤ رجل فرد ، مهما اوتي من سداد الرأي وقوة العزم ، ان يتفرد بالقرار . فجمع الحاكم المصري ، الملك المظفر قطز ، مؤتمرا عسكريا ، كان في محاوراته ونقاشه في ارفع مستوى عرفه التاريخ من الاجتماعات العسكرية والمؤتمرات الحربية . وجرت المداولة فيه بصراحة كاملة اقتضتها خطورة الموقف .

قال الحاكم المصري للمؤتمرين ، وكانوا في اكثريتهم من القواد اللاجئين :

« لقد توجه هولاء من توران الى ايران بجيش جرار ، ولم يكن لاي مخلوق من الخلفاء والسلاطين والملوك طاقة على مقاومته ، واستولى على جميع البلاد ، ثم جاء الى دمشق ولو لم يبلغه نعي اخيه لالحق مصر بالبلاد الاخرى ومع هذا فقد ترك في هذه النواحي كيتوبوتا ، وهو كالاسد الهصور والتينين القوي في الكمين ، واذا قصد مصر فلن يكون لاحد قدرة على مقاومته . فيجب ان تتدبروا الامر قبل فوات الفرصة » .

مناقشة الموقف

هذا هو البيان الموجز الذي افتتح به الحاكم المصري الملك المظفر مؤتمره العسكري .

انه يبسط الامر على حقيقته لا يحاول ان يهول ولا ان يهون ، ومن خير ما فيه هذه الشورى ، او اذا شئت بلسان العصر الحاضر هذه الديموقراطية السليمة .

فبالرغم من ان المتكلم هو صاحب مصر ، والجيش جيوشه ، والبلاد بلاده ، والعواقب تعود عليه وعلى بلاده وبالرغم من انه مستطيع ان يفرض الرأي الذي يريد ، فأما تسليم او قتال ، فانه لم يشأ الا ان يشرك حتى ممثلي البلاد الاخرى في الرأي وان يستمع اليهم .

أصغى المؤتمر الى بيان الحاكم المصري بتفهم واستيعاب ، فكان اول المجيبين ناصر الدين قيمري ، فقال من جملة كلام له :

« ان البلاد الممتدة من تخوم الصين الى باب مصر هي الان كلها في قبضة هولاء ، فلو ذهبنا اليه لطلب الامان ، فليس في ذلك عيب وعار ، ولكن تناول السم بخداع النفس واستقبال الموت امران بعيدان عن حكم العقل ، انه ليس بالانسان الذي يطمأن اليه ، وهو لا يفي بعهده وميثاقه ، فانه قتل نجاة خورشاه ، وحسام الدين عكة ، وصاحب اربل بعد ان اعطاهم العهد والميثاق ، فاذا سرنا اليه فسيكون مصيرنا مصيرهم » .

فرد الحاكم المصري :

« ان كافة بلاد ديار بكر وربيعة والشام ممثلثة بالمناحات والفجائع ، واضحت البلاد من بغداد حتى الروم خرابا يبابا ، وقد قضى على جميع من فيها من حرث ونسل ، فلو اننا تقدمنا لقتالهم فسوف تخرب مصر خرابا تاما

كغيرها . وينبغي ان نختار مع هذه الجماعة التي تريد بلادنا ، واحدا من ثلاثة . الصلح او القتال او الجلاء عن الوطن . اما الجلاء عن الوطن فامر متعذر ، وذلك لانه لا يمكن ان نجد مقرا لنا الا المغرب وبيننا وبينه مسافات بعيدة » .

القرار الاخير

كان يبدو من لهجة الحاكم المصري انه ميل الى المسالمة، ولكن الحقيقة ان المسالمة لم تكن من رأيه — كما تبين فيما بعد — ولكنه لم يشأ ان يفرض الحرب ، بل فضل ان تكون بقرار جماعي او ان يفوض الامر اليه . وعندئذ يقرها اعتمادا على التفويض ، وهكذا كان .
فقد رد ناصر الدين القيمري قائلا :

« وليس هناك مصلحة ايضا في مصالحتهم اذ انه لا يوثق بعهودهم » .

واذن فقد اصبح الطريق ممهدا لاتخاذ قرار مشرف . ان المسؤول عن مصر يبرهن على استحالة الجلاء . والقيمري يبرهن على استحالة المصالحة . ولكن بقي رأي اخر باستطاعته ان يبرهن على عقم المقاومة ، على انه بعد الرأيين السابقين ، وما فيهما من وضوح، لم يعد باستطاعة هذا الرأي الاخر الا ان يلجج دون ان يفسح . لذلك رأينا بقية الحاضرين — وكان معظمهم قد ذاق برا : الهزيمة امام هولاء فخدمت عزائمهم وضعفت هممهم ومالوا الى التسليم — يقولون لصاحب مصر قطن :

« — ليس لنا قدرة ولا طاقة على مقاومتهم فمر بما
يقتضيه رأيك »

فقال الملك المظفر :

— ان الرأي عندي هو ان نتوجه جميعا الى القتال . فاذا
ظفرنا فهو المراد والا فلن نكون ملومين امام الخلق .
وكانت كلمته حاسمة ، فقر الرأي على وجوب المقاومة .
ورأى بعضهم ان يفاجئوا المغول بأمر يدل على الحزم والمضي
في القتال دون هوادة . يقطع الطريق على اية دعوة انهزامية
فأشاروا بقتل رسل المغول . فاستصوب الملك هذا الرأي
وامر بصلب الرسل في الليل .
ولقائل ان يقول :

وما ذنب الرسل ، والرسل في كل الشرائع لا تقتل . .
ولكن الذي يطالب بمثل هذا ينسى ان المغول امتحنوا
الشرائع ، وغدروا بالرسل ، وخانوا المستأمنين ، ونقضوا
العهود ، وان كل ما يمكن ان يرهب هؤلاء القوم هو حلال في
كل شريعة صحيحة ، وان الامر كما قال علي بن ابي طالب
عليه السلام : الوفاء لاهل الغدر غدر عند الله ، والغدر بأهل
الغدر وفاء عند الله .

المغول على ابواب مصر

كانت طلائع المغول قد وصلت الى غزة ، وكان قد
عسكر فيها جيش قوي بقيادة القائد المغولي (بايدر) ، وكان
هذا القائد يتهيأ للهجوم على مصر ، فلما اتاه خبر صلب
الرسل ارتاع لذلك وتردد في التقدم ، ورأى ان يراجع

قائده الاعلى (كيتوبوقا) الذي كان يعسكر بالقرب من مدينة بعلبك ، فاستشاط هذا غيظا وامر (بايدر) بان لا يتقدم قبل وصوله .

ولكن المصريين كانوا قد تخلوا عن الدفاع وعزموا على ان يبدأوا بالهجوم ، فاقتم جيشهم غزوة وطاردوا (بايدر) حتى نهر العاصي . فزاد هذا التحدي من غضب كيتوبوقا واسرع بجيوشه لتأديب المصريين واثقا من نفسه مطمئنا الى جيروت قواه .

المعركة الفاصلة

وكان المصريون موقنين ان الشجاعة وحدها لا تحسم الموقف ، وان الاسماتة لا تكفي لرد الاعداء ، فلا بد من اعمال الراي لان الجيش القادم جيش خطر ، كثير العدد ، واضح الشجاعة ، مرهوب الجانب . لهذا تعمد الملك المظفر اعمال الحيلة فعبا جيشه في كمين تعبئة محكمة ، وخرج هو ببضعة آلاف يقابل المغول وجها لوجه في (عين جالوت) فرشقته سهام المغول رشقا عنيفا ، وكروا عليه كرة زلزلته عن مواقفه فانهمزمت جيوشه وتراجع ، فتعقبه المغول واعملوا السيف في المصريين المنهزمين فقتلوا منهم كثيرا ، ولكن لم تلبث ان طلعت عليهم الكمائن المصرية من ثلاث جهات فصدمتهم صدمة عنيفة صمدوا لها من الفجر الى منتصف النهار واستقتل الفريقان ، ولكن المفجأة المصرية اثمرت ثمارها في زعزعة صفوف المغول ، فلم تلبث بشائر النصر ان لاحت للمصريين ، ولم تلبث الجموع المغولية ان اخذت بالتصدع ،

ولم تلبث الهزيمة ان حاقت بها .

وابى (كيتبوقا) ان ينهزم ، وآثر الموت على الفرار ،
وصمد يجاد بسيفه جلادا عنيفا ، ولكنه في النهاية سقط
اسيرا . وسيق مكبلا الى الملك المظفر ، فعنفه مذكرا
اياه بالدماء التي سفكها والعهود التي نكثها . فعاد
المغولي يهدد ويتوعد قائلا من جملة كلامه : « ستطأ
سنابك خيل المغول من اذربيجان حتى ديار مصر ، وستحمل
رمال مصر في مخالي خيولهم الى هناك ، ان لهولاكو
ثلاثمائة الف فارس مثل كيتبوقا ، فافرض انه نقص واحد
منهم » .

ولكن رأس كيتبوقا طاح عن جسده ومضى
المصريون يطاردون المغول في الديار الشامية ويطهرونها
منهم حتى بلغوا شاطئ الفرات .
ومضى تهديد كيتبوقا في الهواء . ولم يكتب لسناك
خيل هولاكو ان تعود فتطأ تراب الشام ورمال مصر مرة ثانية .

بطلان

تتعرض الامم احيانا الى مواقف يتزلزل فيها كيانها
ويتهشم وجودها ، فتغدو وكأنها شلو ممزق ، فقد الرأس
والاطراف .

هنا تتجلى كوامن العزائم وتبرز مخبات العبقريات ،
فيقيض الله للامة من لم تكن تحسبهم شيئا فاذا هم كل شيء .
هذا ما صار اليه امر العرب والمسلمين بسبب الغزو
المغولي الثاني بقيادة هولوكو ، حين استطاع تدمير البلاد
والعباد ، وقضى على آخر رمز اسلامي قضاه المبرم
وحل ما كان قد بقي من روابط يمكن ان تشد البلاد بعضها
الى بعض ، واخمد كل صوت يمكن ان يستصرخ
مستنجدا ويستثير محمسا . فعادت الامة قطيعا سائبا تتعاوره
الذؤبان وتعيث فيه السباع ، ونعى الاسلام نعاته ، ورثاه
رثاته ، وخيل للناس ان الوثنية سادت وان لا قائمة تقوم بعد
لكلمة التوحيد .

ولكن الاسلام ، وقد كان احيا بعبقريته الشعوب وخلق
النور الساطع من الظلام الدامس ، لم يكن ليستسلم بمثل تلك
السهولة التي حسبها الضعفاء ، فجذوته التي هزت الكون
قبل اليوم ، كان لا يزال منها قبسات في نفوس بنيه ، فمن
قلب اليأس برز الامل في عزم رجلين اثنين قيص لهما ان
ينقذا الاسلام من اخطر بلاء اصابه . ومن المؤسف ان
الجمهور الاسلامي يجهل كل شيء عنهما ، بل ان الخاصة
الاسلامية نفسها لا تكاد تعرف الالمات خاطفة عنهما ،

في حين أن بعض من احيطت اسماءهم بالتهويل والتطويل في بعض الاحداث الاسلامية ليسوا باهل لشيء من هذا ، وكان نصيبهم من العمل نصيبا لا يستحقون عليه ذرة من هذا الاجر الضخم .

هذان الرجلان متناقضان في كل شيء ، فلقد جرى كل منهما في طريق لا صلة لها بطريق الاخر ، وكانت وسيلة كل واحد منهما مختلفة عن وسيلة الثاني ، بل ان واحدا منهما لم يتصل بزميله ولم يتعرف اليه ولم يدر عن خطته شيئا ، بل عمل كل فيما هيء له وسار في الطريق التي لا يحسن السير في غيرها . ولو انه انحرف عنها قيد شعرة لتعسف السبيل وضل الدرب وتاه واتاه معه العروبة والاسلام .

الملك المظفر

هذان الرجلان البطلان هما الملك المظفر سيف الدين قطز حاكم مصر (١٢٥٩ - ١٢٦٠ م) والعالم الفيلسوف نصير الدين الطوسي (١٢٠١ - ١٢٧٤ م) .
وقصة الأول منهما ذكرت في مقال آخر ، فلا اعيد منها هنا شيئا سوى القول بان هذا الرجل العظيم استطاع ان يبطل اسطورة الجيش الذي لا يغلب فهزم المغول في عين جالوت (١٢٦٠ م) هزيمة لم يتوقعها احد ، بل خاض في الاصل معركة لم يتوقع خوضها احد .

لقد انتصر في عين جالوت على المغول انتصارا يمكن القول من ناحية انه كان حاسما ، هذا اذا اعتبرنا النتائج البعيدة التي ادى اليها هذا النصر . فان الزحف المغولي

بأنه تقدم بثيابة هولاء لم يوقفه شيء وانهارت امامه جميع القوى . حتى خيل لناس في كل مكان انه ماض في فتوحه حتى النهاية ، وان مصر هي هدفه الثاني بعد الشام ، وان هذا الهدف كغيره من الاهداف قريب المنال ، ومتمين استصفي المغول مصر فانهم سيمضون حتما الى ما هو ابعد ، ولا يعلم الا الله اين سيقفون .

وفي الواقع لو قدر للمغول الانتصار العسكري في « عين جالوت » لكان الامر كما ظن الناس ولكن المقاومة الباسلة التي لقوها عند حدود مصر ، والصمود الرائع الذي اعده لهم الملك المظفر ، ثم الهزيمة الكاسحة التي الحقها بهم المصريون بقيادته : ان ذلك اثبت اولا ان المغول يمكن ان يهزموا ، ثم وضع حدا لتقدمهم ، ولم يكتف بردهم عن مصر ، بل ردهم عن الشام ايضا ، ومن هنا يمكن اعتبار النصر المصري في « عين جالوت » نصرا حاسما .

نصير الدين الطوسي

كان نصير الدين الطوسي ضحية من ضحايا الغزو المغولي الاول ، حينما اجتاحت جحافل جنكيز خان (١٢١٥ - ١٢٢٧م) البلاد الاسلامية ودمرت ما مرت به منها . وكان من تلك الضحايا مدينة نيسابور التي كانت تعج بالعلماء وتزخر بالمدارس .

ولم يكتف المغول بتدمير المدينة بل اعملوا السيف في الناس ، فقتل من قتل واستطاع الفرار من استطاع ،

وكان بين الفاجين نصير الدين الطوسي ، فهام على وجهه يطلب الملجأ الامين فوجده في قلاع الاسماعيلية الحصينة ، تلك القلاع التي صمدت وحدها لجنكيز خان وصدته عن اسوارها ، فظل حقد المغول مضطربا على الاسماعيليين الى ان استطاعوا الثأر منهم في عهد هولاکو حفيد جنكيز .

ولم يكن نصير الدين وحده هو الذي احتفى بهذه القلاع ، بل لقد لجأ اليها كثير ممن استطاعوا الفرار والنجاة .

وعندما تقدم المغول في غزوهم الثاني ، واعاد هولاکو سيرة جده ، كانت الحملة هذه المرة من القوة بحيث هابتها القلاع الاسماعيلية فلم تستطع لها صدا ، ونزل الامير الاسماعيلي ركن الدين خورشاه على حكم المغول ، فكان حكمهم قتله وقتل اعوانه ومن لجأ اليه ، واستثنوا من ذلك ثلاثة رجال كانت شهرتهم العلمية قد بلغت هولاکو فامر بالابقاء عليهم ، ولم يكن هذا الابقاء حبا للعلم وتقديرا لرجالهم ، بل لان هولاکو كان بحاجة الى ما اختص به هؤلاء الثلاثة من معارف ، فائنان منهم كانا طبييين هما موفق الدولة ورئيس الدولة ، والثالث كان مشهورا باختصاصه في اكثر من علم واحد هو نصير الدين الطوسي ، وكان مما اختص به علم الفلك ، وكان هولاکو مقدرًا لهذا العلم تقدير حاجة لا محض تقدير ، مؤمنا بفائدته له . لذلك رأيناه بعد ذلك يعنى بانشاء مرصد « مراغة » ويوفر له كل ما يستدعي نموه وتقدمه . . .

رجل الساعة

جمع نصير الدين الطوسي الى العلم الواسع العقل الكبير ، فترك سيرته رجلا من افاضال الرجال لا يمر مثله كل يوم . وتشاء الاقدار ان تعده مهمة لا ينهض لها الا من اجتمعت له مثل صفاته : علم وعقل وتدبير وبعد نظر ، فكان رجل الساعة في العالم الاسلامي ، هذا العالم الذي كان مثخنا بالجراح .

كانت مهمة الطوسي من اشق المهمات ، وكانت ازمتة النفسية من اوجع ما يصاب به الرجال ، فانه وهو العالم الكبير ذو الشهرة المدوية بين المسلمين ، يرى نفسه فجأة في قبضة عدو المسلمين ، ويرى هذا العدو مصرا على ان يبقيه في جانبه ويسيره في ركابه . والى اين يمشي هذا الركاب ؟ انه يمشي لغزو الاسلام في دياره والقضاء عليه في معاقله ، فهل من محنة تعدل هذه المحنة ؟

ان اقل تفكير في التمرد على رغبة القائد المغولي سيكون جزاؤه حد السيف . . . وانني لاتخيل الطوسي متأملا طويل التأمل ، مطرقا كثير الاطراق ، لقد كان يعز عليه ان يذهب دمه رخيصة وان يكون ذلك بارادته هو نفسه ، فلو ان سيفا من سيوف المغول الجانية اودى به فيمن اودى بهم في رحاب نيسابور وسهول ايران لكان استراح . اما الان فلن يستسلم للقدر الطاغى وسيثور على حكم الزمن الفاشم .

الوضع المصام

كان الطوسي ذا فكر منظم يعرف كيف يخطط ويدبر . وهو في ذلك آية من الايات ، وقد ادرك ان النصر العسكري على المغول ليس ممكنا ابدا ، فقد انحل نظام العالم الاسلامي انحلالا تاما لم يعد معه امل في تجميع قوة تهاجم المغول وتخرجهم من دياره ، وكانت البلاد المحتلة اضعف من ان تفكر في ثورة ناجحة . على ان الغرب الاسلامي كان لا يزال سليما ، وكانت مصر هي القوة الوحيدة التي تتجه اليها الانظار ، وقد استطاعت مصر ان تذيق المغول مرارة الهزيمة وان تردهم عنها ، ولكنها لم تكن مستطبعة اكثر من ذلك ، فمهاجمة المغول فيما احتلوه من بلاد بعيدة واخراجهم من تلك البلاد كان فوق طاقة مصر .

وفكر نصير الدين طويلا فايقن انه اذا تم للمغول النصر الفكري ، بعد النصر العسكري ، كان في ذلك القضاء على الاسلام ، وها هو يرى بام عينيه الكتب تحرق والعلماء يقتلون ، فماذا يبقى بعد ذلك ؟ . .

لقد استغل حاجة هولاء الىه ، وحرصه على ان يكون في معسكره فلكي عالم بالنجوم ، فعزم على كسب ثقته واحترامه فكان له ما اراد ، وصار له من ذلك سبيل لانقاذ اكبر عدد من الكتب وتجميعها ، كما استطاع ان ينجي من القتل الكثيرين ممن كانوا سيقتلون .

ولما استتب الامر لهولاءكو خطا نصير الدين خطوته الاولى ، وكانت هذه المرة خطوة جبارة فقد اقتنعه بان يعهد اليه بالاشراف على الاوقاف الاسلامية والتصرف

بمواردها بما يراه ، فوافق هولاءكو . وتتطلع نصير الدين فرأى ان المسلمين كانوا قد وصلوا من الانحلال الفكري الى حد اصبح العلم عندهم قشورا لالباب فيها ، وانهم حصروا العلم في الفقه والحديث وحدهما ، وحرموا ما عداهما من سائر صنوف المعرفة التي حث عليها الدين العظيم ، وانصرفوا عن العلوم العملية انصرافا تاما . فاعلن افتتاح مدارس لكل من الفقه ، والحديث ، والطب ، والفلسفة ، وانه سيتولى الانفاق على طلاب هذه المدارس ، ولكنه سيجعل لكل واحد من دارسي الفلسفة ثلاثة دراهم يوميا ، ولكل واحد من دارسي الطب درهمين ولكل واحد من دارسي الفقه درهما ، ولكل واحد من دارسي الحديث نصف درهم ، فاقبل الناس على معاهد الفلسفة والطب ، بعدما كانت من قبل تدرس سرا .

النصر الاول

احرز نصير الدين النصر الاول في معارك الاسلام ، فالعلم لن ينقطع بعد اليوم ، ولن يجمد المسلمون عن طلبه ، ثم انصرف يخطط للمعركة الكبرى الكاسحة . فاذا كان انشاء المدارس المتفرقة لن يلفت هولاءكو اليها ، ولن يدرك اهميتها ، فان انشاء الجامعة الكبرى وحشد العلماء فيها وحشر الكتب في خزانتها ، سيكون حتما منبها لهولاءكو فكيف العمل ؟

هنا تبدو براعة الطوسي ، فهولاءكو استبقاه لغاية معينة ، فراح يقنع هولاءكو بانه من اجل استمراره في عمله

والاستفادة من مواهبه لا بد من انشاء مرصد كبير ، فوافق هولوكو على انشاء المرصد ، وفوض لنصير الدين المباشرة بالعمل .

لقد كانت هذه الموافقة الحلم الاكبر الذي حققته الايام لنصير الدين ، وبات بعدها مستريحا للمستقبل لا يشغله شيء الا الاعداد الدقيق والتخطيط السليم الموصل الى الغاية القصوى .

يقول الدكتور علي اكبر فياض : « كان يعيش عند ذاك رجل يعد من اكبر المشتغلين بالعلوم العقلية بعد ابن سينا ، الا وهو نصير الدين الطوسي . قدر لهذا الرجل العظيم ان يقوم بانقاذ التراث الاسلامي من ايدي المغول » .

ويقول الاستاذ مدرسي : « استطاع الطوسي بتأثيره على مزاج هولوكو ان يستحوذ تدريجيا على عقله وان يروض شارب الدماء فيوجهه الى اصلاح الامور الاجتماعية والثقافية » .

الخطة الحكيمة

ضخم نصير الدين امر المرصد لهولوكو واقنعه انه وحده اعجز من ان يرفع حجرا فوق حجر في ذاك البناء الشامخ ، وانه لا بد له من مساعدين اكفاء يستند اليهم في مهمته الشاقة ، وانه لا مناص من اجل ذلك من ان يجمع عددا من الناس المختارين ، سواء في البلاد المحتلة او في خارجها ، فوافق هولوكو على ذلك .

وهنا هب نصير الدين الى اختيار رسول حكيم هو فخر الدين لقمان بن عبدالله المراغي ، وعهد اليه بالتطواف في البلاد الاسلامية ، وتأمين العلماء النازحين ودعوتهم للعودة الى بلادهم ، ثم دعوة كل من يراه كفؤا في عمله وعقله من غير النازحين .

ومضى فخر الدين يؤدي مهمته على احسن الوجوه ، وقصد الى اربل والموصل والجزيرة والشام ، فعاد الهاربون ولبى الدعوة غيرهم فجعوا من كل مكان . جاعوا من دمشق والموصل ، وقزوين وتفليس وغيرها . وتحلقوا حول نصير الدين يعدون العدة لانشاء اكبر معهد علمي عرفه العالم الاسلامي ، ساترين هدفهم بالمرصد ، مغلفين طريقتهم بالافلاك والنجوم . بل لقد بلغت الدعوة اقاصي المغرب فكان من المغاربة يحيى بن ابي ائشكر المغربي الذي كان احد الستة الذين اختارهم نصير الدين ليكونوا اللجنة العليا المشرفة على العمل .

يقول الدكتور مصطفى جواد : « التحق نصير الدين الطوسي بهولاكو لينجي نفسه من الهلاك ، وليأتي بمعجزة القرن السابع وهي نشر العلوم في الشرق وتأسيس اول اكااديمية علمية فيه بالمعنى العلمي الحديث الذي تدل عليه كلمة **Academie** ، واقامة اعظم مرصد عرف في الشرق وانشاء اول جامعة حقيقة من النوع المعروف اليوم بالـ **Université**

رواية شاهد عيان

وكان في طليعة الوافدين الى مراغة العالم الدمشقي

مؤيد الدين العرضي الذي ترك لنا رسالة في وصف مرصد مراغة وادارته تحدث في مقدمتها عن نصير الدين الطوسي فكان مما قاله : « . . . وذلك كله بإشارة مولانا المعظم والامام الاعظم العالم الفاضل المحقق الكامل قدوة العلماء وسيد الحكماء » .

ثم يقول : « فجمع العلماء اليه وضم شملهم بواقر عطائه وكان لهم ارأف من الوالد على ولده فكنا في ظله آمنين وبرؤيته فرحين كما قيل :

نميل على جوانبه كأننا

نميل اذا نميل على ابينا

ونفضبه لنخبر حالتيه

فنلقى منهما كرما ولينا

وهو المولى نصير الملة والدين محمد بن محمد الطوسي ادام الله ايامه .

النتائج الخطيرة

مضى العمل منظما دقيقا وانصرف العلماء باشراف الطوسي منفذين مخططا مدروسا ، فلم يمض كبير وقت حتى كانت المكتبات تغص بالكتب ، وحتى كانت مكتبة مراغة بالذات تضم مجموعة قل ان اجتمع مثلها في مكتبة اخرى ، وحتى كانت المدارس تقام في كل مكان ، وحتى كانت الثقافة الاسلامية تعود حية سوية ، وحتى كانت النفوس مثبعة بالامل والقلوب مليئة بالرجاء ، وحتى

كان الدعاة ينطلقون في كل صوب والهداة ينتشرون على كل
وجهة ...

ثم يموت هولكو ، ولكن الاسلام الذي اراد له هولكو
الموت يظل صحيح البنية ، متوهج الفكر . والعرب الذين
عول الطاغية على تحطيمهم يظلون شامخين سالمين ،
ثم يموت ابن هولكو وخليفته (ابقاخان) والاسلام لا
يزال بقيادة الطوسي صامدا ، يقاتل ويقاوم ويدعو
ويهدي .

ويأتي بعد ابقاخان ، ابن هولكو الاخر (تكودار) فاذا
بالاسلام ينفذ الى قلبه وعقله ، واذا به يعلن اسلامه
وتسلم الدولة كلها بعد ذلك .

وكان الطوسي قد مات سنة ٦٧٢ هـ (١٢٧٤ م) .
مات قرير العين وهو يرى طلائع الظفر مقتحمة الدنيا
بموكبها الرائع وبشائر النصر هازجة بارفع صوت واعلى
نبرة . مات الطوسي مودعا الامر الى تلميذه واقرب
المقربين اليه قطب الدين ابو التشاء محمود بن مسعود
الشيرازي ، فنهض بالعبء على ما اراده نصير الدين .
فلم يجد « تكودار » الذي اصبح اسمه « احمد تكودار »
خيرا من الشيرازي خليفة الطوسي ليكون رسوله الى
العالم العربي والاسلامي .

يقول الاستاذ عبد المتعال الصعيدي : « لم يمت نصير

الدين الا بعد ان جدد ما بلي في دولة التتار من العلوم
الاسلامية واحيا ما مات من آمال المسلمين بها .

السى ان يقول : « . . . ان الانتصار على التتار لم
يكن في الحقيقة بردهم عن الشام في موقعة « عين جالوت »
وانما كان بفتح قلوبهم الى الاسلام وهدايتهم له . »

هكذا استطاع نصير الدين الطوسي ان يهزم بالعقل
والعلم الدولة الطاغية الباغية ، وان تنجح خطه في
تحويل المغول من وثنيين الى مسلمين .

ابن الفوطي مؤرخ العصر المغولي

بين الاسرى الذين وقعوا في ايدي المغول بعد النكبة الكبرى ، اسير لم ير فيه آسره الا غلاما حدثا قد يصلح اكثر ما يصلح للخدمة في الدور او الدواوين ، ولم يثر في نفس الأسر ابعده مما يمكن ان تثير فيها اية دابة من دواب الارض التي تسعى في مصالح الناس وتقاد الى العمل طوعا او كرها واي شأن لصبي لم يتجاوز الاربعة عشرة سنة من سنه يقبض عليه بين عشرات الالوف التي قبض عليها في بغداد وغير بغداد ممن هوت دولتهم وهانت عزتهم وتلاشت قوتهم .

هذا الصبي الاسير الذليل هو عبد الرزاق بن احمد الذي اشتهر بعد ذلك بابن الفوطي والذي ولد في المحرم سنة ٦٤٢ هـ ببغداد ثم وقع في ايدي المغول بعد افتتاحهم عاصمة الخلافة العباسية . فمضى مقودا الى آذربايجان ثم منها من مكان الى آخر حتى عثر عليه فيمن عثر عليهم الفيلسوف نصير الدين الطوسي ، الرجل الذي تحدثت عنه في مقال سابق والذي كان له فضل افساد المخطط المغولي في القضاء على الاسلام في معاقل الاسلام .

عثر عليه الطوسي بعد سنة من اسره فلم تفتته ملامح

الذكاء في وجهه ودلائل النبوغ في تصرفه ، والطوسي يومذاك يفتش عن الاكفاء ويسعى الى الاذكياء ليلم بهم الشمل فيجدد مسيرة الاسلام قدما الى ابعد الغايات .
 فعمل الطوسي على فكك الغلام ثم ضمه الى حاشيته .
 وما عسى ان تكون حاشية الطوسي ؟ كانت علماء حكماء وبناء اشداء رصهم الطوسي رصا في صفوف حاشدة وجمعهم من كل مكان جيشا يقاتل بالقلم ويحارب بالفكر ويكر بالكتاب . فكان لفتانا الاسير الطليق مكان واضح في تلك الجموع العالة العاملة ، بداه اولا تلميذا للطوسي تلميذة استمرت ثلاث عشرة سنة في مدينة مراغة التي اختارها الطوسي ميدانا لكفاحه المرير الطويل .

ووجه الطوسي تلميذه فيما وجهه الى دراسة العلوم الرياضية والنظريات الفلسفية ، كما اتقن التلميذ اللغة الفارسية واحاط بآدابها ونظم الشعر فيها ، والم بلغة الفاتحين المغول . وكان من اعظم انجازات الطوسي حرصه على انقاذ الكتب وجمعها في مكتبة كبرى وصونها من ايدي المخربين والعاثين ، وبعد ان تم له ذلك وقامت المكتبة عهد بالاشراف عليها الى تلميذه ابن الفوطي . وهكذا اجتمع لعبد الرزاق الفكر النير والذهن المتفتح والاستاذ الموجه والمناخ المؤاتي ، فكان ان انتهى الى ان يصبح مؤرخ العصر المغولي العالم الكاتب الشاعر .

في مراغة

قلنا ان عبد الرزاق ولد ببغداد ، ونقول ان اللقب الذي

التصق به (ابن الفوطي) انما جاءه من قبل جده لأمه ، وهو منسوب الى الفوط جمع فوطة وهي نوع من الثياب ويبدو ان الجد كان يعمل في صنع هذه الثياب او بيعها ، ويقال انه ينتسب الى معن بن زائدة لذلك يلحق باسمه احيانا لقب الشيباني . وكانت ولادته بعد مضي سنتين من خلافة المستعصم آخر الخلفاء العباسيين . ولا يدري شيء عن حياته سوى ما يستنتج مما كتبه هو من انه ولد في محلة الخاتونية القريبة من دار الخلافة وانه سمع قبل سقوط بغداد من صاحب محيي الدين ابن الجوزي احد قتلى وقعة بغداد ، وانه ولد في اسرة متوسطة الحال ثم اسر واطلق من الاسر واصبح قيما للمكتبة الكبرى في مراغة طيلة ثلاثة عشر عاما . وفي خلال ذلك كانت مراغة قد اصبحت مقرا لدولة تتبعها خراسان وايران باسرها والعراق والاناضول اي انها كانت عاصمة المشرق الذي استولى عليه المغول ، وكانت الحال في هذه الدولة تتطور عاما بعد عام ، فمن عدا صريح للاسلام والمسلمين ومذابح وفواجع ونهب وسلب واحراق الى هدوء ثم تحول لتأسيس دار الرصد وخزانة الكتب وتأمين العلماء واستقدامهم من الافاق البعيدة . كل ذلك تم بعد عام واحد من استباحة بغداد ، وكان الفضل في تمامه للعقل المدبر نصير الدين الطوسي .

المكتبة ودار الرصد

يفهم مما سجله ابن الفوطي نفسه انه وضع للمكتبة

نظاما دقيقا يسير عليه المطالعون والدارسون والمشفون ثم عكف على طلب العلم فكان ان استهواه التاريخ فانصرف اليه . وبدأ اول ما بدأ بتسجيل تاريخ الدار التي آوته وحمته وثقفته فسجل كيف انشئت دار الرصد و اشار الى استقدام العلماء المدرسين اليها وذكر عمل كل منهم واختصاصه ومؤلفاته مترجماله ترجمة ممتعة ، والف كتابا خاصا سماه « تذكرة الرصد » خصصه بالذين وفدوا الى الدار او مكتبتها ، كما وصف بعض ما حوته المكتبة من نفائس الكتب وصفا ممتعا ذكر فيه تراجم المؤلفين وزياراتهم للمكتبة وبعض آثارهم .

وقد حفظ في كل ذلك صورة للحياة السياسية والعلمية والاجتماعية والادبية ما كان لها ان تحفظ لولا ان سجلها بقلمه المبدع . مما كان حقيقا بما وصف به من (انه مؤرخ النهضة العلمية الكبيرة في مراغة) .

العودة الى بغداد

وتزداد الحياة تطورا وتحولا فمن بين السنين الثلاث عشرة التي قضاها في مراغة كانت ست منها في حياة الطاغية هولاكو والباقية في عهد ابنه اباقا ، انغمر فيها ابن الشوطي في المجتمع انغمارا كاملا واستطاع بكياسته ان يتغلغل في ارفع المقامات المغولية وان يزور الاميرات المغوليات وان يستزيد من الصداقات ويكثر من الاخوان . وان يسجل من وحي ذلك كل طريف معجب . على انه وهو في قمة نجاحه وعنفوان تألقه لم ينس

وهو البغدادي العريق والعراقي الاصيل ضفاف دجلة ومسارح الطفولة ومدارج الصبا وذكريات الاهل والاحباب ، وثار به الحنين الى بغداد التي فارقتها غلاما غض الاهداب ، فلم ينسه اياها نضوح الشباب وشيوع الذكر ونجاح الامر حتى كان العام ٦٧٨ هـ (١٢٧٩ م) حين حكم العراق صاحب علاء الدين الجويني صديقه في مراغة .

وكانت الرغبة الكبرى لابن الفوطي هي ان يحمله صاحب الى بغداد فحقق صاحب له الرغبة فكان مما قاله عنه : « هو الذي اعادني الى مدينة السلام سنة تسع وسبعين وستمائة وفوض الي كتابة التاريخ والحوادث وكتب لي الاجازة لجميع مصنفاة واملى علي شعره في قلعة تبريز سنة سبع وسبعين وستمائة .

في بغداد

العمل الذي اتقنه ابن الفوطي في مراغة هو نفسه الذي عهد اليه به علاء الدين الجويني في بغداد وهو الاشراف على مكتبة المستنصرية وكانت انذاك اعظم مكتبة عامة في العالم وكانت ملتقى لرجال العلم والفكر، فعكف ابن الفوطي على عمله فيها بنفس الدقة والالتقان والتنظيم الذي عرف به في مكتبة مراغة . وكانت سنه يومئذ دون الثلاثين فرأى ان يستزيد من العلم فاقبل على دراسة الفقه والحديث بتعمق واتقان حتى استحق بين المحدثين لقب (الحافظ) .

وانشأ لنفسه مكتبة خاصة كانت محجة للعالمين

والمعلمين البغداديين ومقصدا للطائرين الوافدين ، وكان يشير في تدويناته الى زواره وزوار مكتبته من كل الاصناف .

كما وضع معجما خاصا بمن تتلمذ عليهم واخذ عنهم فبلغ عددهم الى الخمسمائة .

من حال الى حال

وظل ابن الفوطي على عمله في المستنصرية خمسا وعشرين سنة بدأت سنة ٦٧٩ وانتهت سنة ٧٠٤ . كان التحول خلالها قد ازداد سرعة والدنيا تبدلت غير الدنيا . وكانت غراس نصير الدين الطوسي قد نمت واثمرت فاسلمت الدولة المغولية وتحولت الى مجتمع اسلامي يساهم في نهضة الاسلام وتقدم المسلمين .

كما ان السياسة تطورت من حال الى حال فان ارغون حفيد هولوكو صب نغمته على آل الجويني لانهم نصروا عمه احمد تكودار فبطش بهم واستأصلهم وقرب خصومهم ، كما عامل العراقيين بعامه معاملة انتقام وقمع ليلهم الى آل الجويني .

وقد كان كل ذلك بمرأى من ابن الفوطي فشهد الصراع الحزبي المغولي الدامي وشهد مصارع آل الجويني الذين حكموا العراق اكثر من عشرين سنة حكما حبيبهم الى العراقيين وامالهم اليهم ، كما كان قد شهد من قبل وفاة الصاحب علاء الدين ووفاء استاذه ومربيه نصير الدين الطوسي ووفاء الاجيال التي

عاصرت الطوسي او تخرجت عليه .

شهد كل ذلك في العصر المغولي الاول من فتح بغداد الى اواخر القرن السابع ، وهذه الفترة تعتبر من اشرس الفترات المغولية واعنفها ، ولكن المغول اخذوا يتكيفون تكيفا تدريجيا فلفظ الاسلام من شراستهم وخفف من شدتهم ، ولم يكد القرن السابع ينتهي ويقبل ما نستطيع ان نسميه العهد المغولي الثاني حتى كان التكيف قد ازداد بالتصاق المغول بالاسلام وتحسسهم بمظاهر الحضارة الاسلامية فرأينا الحواضر المغولية تصطبغ بصبغة جديدة من المدنية ، ورواسب الوثنية تذوب في النفوس والادارة تتحضر والنظم الاجتماعية تتبدل .

وقد شهد ابن الفوطي هذه العهود كما شهد التي قبلها مشاهدة المؤرخ المرفه الحس واتصل برجالها حكاما وعلماء ونافذين ، فكتب عن كل ما شاهد وترجم للرجال ووصف الحياة ، بعقل نير وفكر ثاقب وقلم رشيق .

في تبريز

بعدهما تخلص ابن الفوطي عن عمله في المستنصرية سنة ٧٠٤ رحل الى تبريز حيث اقام هناك ست سنوات ثم عاوده الحنين الى بغداد فرجع اليها ثم عاد الى بغداد وكثر تردده الى تبريز . ويبدو ان الذي جذبته الى تبريز هو وجود صديقه القديم وزميله في الدرس على نصير الدين الطوسي الطبيب رشيد الدين الهمداني العالم المفكر السياسي الذي عرفت تبريز في عصره ازهى عهودها

العلمية والعمراوية والسياسية فلازمه ابن الفوطي وعاود سيرته في الاخذ عن العلماء والدرس على الشيوخ ولقي في تبريز الامام قطب الدين الرازي الفقيه الرياضي الفيلسوف فتلمذ عليه ثم استجازه كما اخذ عن غيره من مشاهير العلماء الذين كانت تعج بهم تبريز ، ولكن اثر الرازي كان غيه بارزا .

وبعد ان وزر رشيد الدين لثلاثة من ملوك المغول الايلخانيين هم غازان وخرينده وابي سعيد تغير عليه الاخير لدسائس حيكمت حوله فاقصي عن الحكم ثم اعيد اليه ولكن المؤامرات ظلت تلاحقه حتى قتله السلطان ابو سعيد في احداث ليس هذا مكان ذكرها . .

على ان افجع ما اعقب هذه الاحداث هو احراق مكتبة رشيد الدين وكانت تضم ما لا يقل عن خمسين الف مجلد . ويبدو ان معظم مؤلفات ابن الفوطي كانت ضمن تلك المكتبة فذهبت طعمة للنيران فيما ذهب من كتب، وهكذا لم يبق من تلك المؤلفات الا اسمائها فضاع بذلك تاريخ فترة من ادق فترات تاريخنا ولم يبق في ايدينا الا اجزاء محدودة مما كتب ابن الفوطي .

ولقد هزت هذه الفاجعة كيان ابن الفوطي اذ قتل صديقه واحترقت كتبه فترك تبريز وعاد الى بغداد ومات بعد انقضاء خمس سنوات على حادثة تبريز عن احدى وثمانين سنة .

كتاب مجمع الاداب

ضاعت مؤلفات ابن الفوطي النفيسة حرقا في

احداث تبريز على الارجح ، وان كان يمكن ان يكون بعضها قد ذهب للاسباب نفسها التي ذهبت بها مؤلفات غيره من العلماء . ومن كتبه كتاب (مجمع الاداب) الذي لم يوجد منه الا جزءان الرابع والخامس وقد وجد الاول منهما في دار الكتب الظاهرية بدمشق وهو نسخة الاصل ومسودة المؤلف بخط يده . ووجد الثاني في مكتبة جامعة لاهور بالباكستان وهو نسخة المؤلف ايضا . وهذان الجزآن هما اثنان من اصل خمسين مجلدا يتألف منها الكتاب وقد ضاعت كلها ما عدا هذين الجزأين . وطريقة المؤلف في هذا الكتاب هي ان يؤرخ للعصر عن طريق التاريخ لرجاله . وقد ظل يعمل في الكتاب ويجدد فيه حتى قبيل وفاته ، اذ وردت دراسات عن جماعة وجدوا سنة ٧٢١ اي قبل وفاته بستين سنة ٧٢٢ اي قبل وفاته بسنة واحدة ولا ننسى انه كان عندذاك في الواحدة والثمانين من عمره . وقد كان لهذا الكتاب اثره الكبير في امداد المؤرخين الذين تلوا عصر المؤلف بادق المعلومات التاريخية عن ذلك العصر . وممن استفاد منه واخذ عنه كل من الصفدي في (الوافي بالوفيات) والذهبي في (تاريخ الاسلام) والسيوطي في (بغية الوعاة) وابن عنبه في (عمدة الطالب) وشمس الدين الجزري في (غاية النهاية) وابن كثير في (البداية والنهاية) وغيرهم .

ابن الفوطي في المصادر القديمة

في طليعة من تحدث عن ابن الفوطي كان

الذهبي في كتابه تذكرة الحفاظ اذ جعله منهم كما سماه مؤرخ الافاق ، ويبدو من حديث الذهبي ان كتابه (مجمع الاداب) ذا الخمسين مجلدا هو مختصر لكتاب اكبر ، فالذهبي يقول : (وعمل تاريخا كبيرا) لم يبيضه ثم عمل آخر دونه في خمسين مجلدا اسماه مجمع الاداب) .
فهل مجمع الاداب هو مختصر من مطول ام هو كتاب آخر ؟ ...

ونكره كذلك صاحب الدرر الكامنة وقد جاءت عبارته صريحة في ان المجمع هو اختصار للكتاب الكبير ، اذ قال :
١ . تاريخا حافلا جدا ثم اختصره في آخر سماه مجمع الاداب في خمسين مجلدا ...) .

وذكر صاحب الدرر فيما ذكر من مؤلفاته :
كتاب الدرر الناصعة في شعراء المائة السابعة ، وموضوع الكتاب يعرف من اسمه ، وهكذا فاننا نرى ان ابن الفوطي لم يكن مؤرخ سياسة واحداث فحسب ، بل هو ايضا مؤرخ ادب . ولا شك ان فقدان هذا الكتاب خسارة تضاف الى غيرها من الخسارات ولو بقي لعرفنا فيه حياة شعراء تلك الفترة وقرانا اثارهم بقلم معاصر لهم باذنيه شاهد لهم بعينيه . ويبدو ابداع ابن الفوطي بكتابة التراجم في وصف الذهبي له حين قال عنه : (... له الباع الطويل في ترصيع تراجم الناس) . ووصفه الذهبي ايضا بقوله :
١ كان روضة معارف وبحر اخبار) .

في المصادر الحديثة

ثم يلحق ابن الفوطي حتى اليوم ما يستحقه من

الدارسين في العصر الحاضر باستثناء الشيخ محمد رضا الشيببي الذي اكتشف مخطوطة الجزء الرابع في دمشق فاستهواه ابن الفوطي استهواء عجيبا جعله يخصه بعدة بحوث ثم ختم ذلك بكتاب من جزئين سماه (مؤرخ العراق ابن الفوطي) .

المثقف الفريد

لا شك ان ابن الفوطي كان في عصره مثال المثقف العالي الثقافة الموهل فيها والآخذ من كل فنونها بطرف ، ومثال العالم الجاد المواصل للمطالعة والكتابة والتفكير ، وحسبك في ذلك ان يظل القلم والورق في يده وهو في الواحدة والثمانين من عمره كما كان وهو في مطالع الشباب وغضارة العمر . وان يذكره المؤرخون في اول صفوفهم كما يذكره المحدثون في رأس حفاظهم ، فقيها بين الفقهاء وغيلسوفاً بين الفلاسفة ورياضياً بين الرياضيين وشاعراً بين الشعراء وصوفياً بين الصوفيين ، وادارياً بين الاداريين ومعلماً بين المعلمين متذوقاً للجمال والموسيقى والشعر .

مؤرخ الشعب

واذا كنا قد ذكرنا فيما تقدم انه ترجم للعلماء والشعراء والسياسيين فان هذا الفقيه المحدث الحافظ قد ترجم فيمن ترجم لهم لاعلام الموسيقى الالية والصوتية ، بل يبدو انه كان ذا بصيرة في الموسيقى وتجارب

عملية . كما ارجح للوراقين والناسخين والمعلمين
والمؤدبين وذوي الفنون والصنائع الجميلة . وبذلك خرج
على طرائق المؤرخين قبله الذين اهلوا تاريخ الشعب
وعنوا بتاريخ المتسلطين وحدهم فهو في الواقع مؤرخ
الشعب بكل طبقات هذا الشعب .

رشيد الدين الهمداني وكتابه جامع التواريخ

الغزو المغولي الاول الذي حمل وزره جنكيز ، ثم الغزو المغولي الثاني الذي بآء بأثمه هولاكـو لم تؤرخهما المصادر العربية تاريخيا مفصلا يعرض دقائقهما ويوضح وقائعهما بحيث تكون الصورة امانا جلية ترينا ما جرى رؤية بينة شاملة .

وكل ما اشتملت عليه المصادر العربية حديثا اجمالي متقطع ، وتدوين عام موزع على وقائع السنين . ولم يكن من هم اكثر من كتبوا عن ذلك ان يخصصوا تاريخا محصورا بالغزو وحده ، بل كان هم معظمهم منصرفا الى التدوين العام لما يجري خلال كل عام ومنه بطبيعة الحال تقدم المغول الى البلاد الاسلامية .

وممن عني من مؤرخي العرب بتاريخ المغول ، ابن كثير في البداية والنهاية وابو الفداء في تاريخه ومؤلف الحوادث الجامعة والسبكي في طبقاته وابن خلدون وابن حجر في الدرر الكامنة والعيني في عقد الجمان والسخاوي في الضوء اللامع . هذا مضافا الى ما ورد في الكامل لابن الاثير وما اورده ابن الفرات في تاريخه . . . وفي عصرنا هذا يمكن ان نعتبر كتاب الدكتور جعفر خصباك افضل ما الف في هذا الموضوع .

اما في غير اللغة العربية فمن اشهر تواريخ المغول باللغة الفارسية كتاب (جهان كشاي) لعطا ملك الجويني و (تاريخ وصاف) لعبدالله بن فضل الله الشيرازي المعروف بوصاف الحضرة و (تقويم الوقائع التركية) لصاحب كشف الظنون . وفي اللغة التركية عدة كتب وضعت بالتركية رأسا او ترجمت اليها مثل كتاب (شجرة الترك) لامير خيوه وكتاب (كلشن خلفا) وكتاب (ترك تاريخي) وكتاب التاريخ العام لسائر بطون القتر والمغول والترك ، منقول من الفرنسية الى التركية .

والمغول سواء في عهد جنكيز او حفيده هولوكو لم يكونوا حملة حضارة ولا رسل عقيدة . كما لم يكونوا ذوي ثقافة ولا اهل علم مما يمكن ان يحملهم على ان يدونوا التاريخ بانفسهم لانفسهم ، او ان يعدوا من رجالهم من ينصرف الى غير القتل والضرب والتخريب والسلب . ولكنهم بعد ذلك وقد اسلموا ثم بدأوا يتشبعون بروح الحضارة الاسلامية ويروضون من جماعهم ويهذبون من عتوهم ، ثم يوغل الفكر الاسلامي فيهم فيلتفتون الى غير الطغيان والجبروت ، ويتأملون شؤون الحياة تأمل ذي الفكر الذي اخذ يستنير بنور المدنية وضياء العلم .

انهم وقد احتوتهم الذهنية الاسلامية وصهرتهم اوساطها ، بدأوا يعنون بتاريخهم والتطلع الى ماضيهم وحاضرهم وتسجيل ما يمكن ان يعتبروه من مآتيهم ومآثرهم .

واذا كان ماضيهم زاخرا بسفك الدماء ، حافلا

بانترويع ، قائما على الغدر وتحليل كل محرم . فان ذهنيتهم ، بل ربما كان لنا ان نقول : ان ذهنية الناس كل الناس يومذاك وما بعد يومذاك ، كانت ترى في الغلبة وقهر الشعوب افخم امجادها بصرف النظر عما يرافق هذه الغلبة من احوال وفجائع .

وهكذا فان مجرد تصورهم ما احرزه جنكيز من انتصارات ، وما حققه هولاء من فتوح ، كان في نظرهم شيئا خطيرا يستحق ان يتمدحوا به ويسجلوه في صحفهم دليلا على بطولتهم واشارة الى قوتهم وشجاعتهم . وكان اول من فكر منهم بوضع تاريخ لهم هو غازان الذي عهد بهذه المهمة الى الطبيب فضل الله رشيد الدين الهمذاني .

رشيد الدين

وتعود الصلة بين رشيد الدين وبين المغول الى اليوم الذي حقق فيه هولاء انتصاراته الحاسمة في زحفه الطويل فكان مما خضع له قلعة الموت حصن الاسماعيليين الحصين فاستسلم حاكمها ركن الدين خورشاه واستسلم معه فيمن استسلم ثلاثة من نزلاء القلعة هم نصير الدين الطوسي ورئيس الدولة وموفق الدولة الهمذاني . فقتل هولاء الجميع واستثنى من القتل هؤلاء الثلاثة لا رحمة بهم ، بل حاجة اليهم لان الاول كان فيلسوفا كبيرا وفلكيا مشهورا والثاني والثالث كانا طبيبين معروفين . وكان هولاء بحاجة لهذا النوع من الرجال فالزم الثلاثة

صحبته وامرهم بمرافقته والسير في ركابه .
والطبيب موفق الدولة هو جد الطبيب فضل الله
رشيد الدين الهمذاني .

ولسنا ندري الى اي مدى استمرت صلة الجد بالمغول،
ولا نوع الصلة التي كانت بعد ذلك للاب بهم ولكننا نعلم ان
رشيد الدين كان من اعوان غازان السلطان المغولي المسلم
المقربين وخلصائه الاثريين .

على ان ما يرويه رشيد الدين نفسه قد يدلنا على
ان صلة الاسرة بالمغول ظلت مستمرة وانها تعمقت بعد
اسلامهم . فرشيد الدين يقول عن نفسه : « **على هذا
النحو كنت استغل اوقات فراغي ، وذلك لانني الحقت
بقصر السلاطين منذ شبابي الغض** » .

ولا بد ان الذي الحقه بالقصر هو ارتباط ابيه بذلك
القصر بعد ارتباط جده . ويبدو لنا ان ذلك الارتباط كان في
تسلسله ارتباط اسرة عرفت بالطبابة ومهارتها بها وانه كما
كان الجد طبيب القصر المغولي كذلك كان الاب ثم كان
الحفيد .

سيرة رشيد الدين

ولد رشيد الدين في مدينة همذان سنة ٦٤٥ هـ
(١٢٤٧ م) على الأرجح . اذ انه يحدثنا انه كان في سنة
٧٠٥ في حدود الستين من حياته . وقبل غازان كان على
صلة بأباخان وخلفائه مكرما عندهم معنيا به في بلاطهم .
ولكننا لا نعلم انه تولى مناصبا كبيرا قبل غازان الذي ولي
الملك سنة ٦٩٤ هـ (١٢٩٥ م) .

ونحن نعلم ان اول من اسلم من ملوك المغول هو (تكودار) بن هولوكو الذي ولي الملك بعد اخيه (اباقا خان) وتسمى بأحمد . وكان اباقا خان قد عهد بالملك الى ابنه (ارغون) . ولكن آل الجويني ومن والا هم من الامراء والقواد لم يدعوا ارغون يتولى الملك ونادوا بتكودار ملكا سنة ٦٨٠ ولم يطل الامر اكثر من ثلاث سنين حيث استطاع ارغون التغلب على عمه الامير (احمد تكودار) وقتله وتولى الملك بعده . وفي عهد ارغون انتعشت الوثنية من جديد كما اشتد نفوذ اليهود . وبعد ارغون تولى ابنه غازان الذي كان اول ملك مغولي يؤدي الصلاة في المساجد الجوامع فيحذو حذوه الامراء والكبراء وجمهرة الشعب المغولي . وكانت صلة رشيد الدين بغازان في اول امرها صلة علمية بحتة . وكان السلطان يغتنم فرصة لقائه برشيد الدين ليذاكره في مبادئ الاسلام وتفسير القرآن ويستوضحه ما خفي عليه من شؤون الدين ، وليجول معه في امور العلم والفكر .

ثم ولاه المنصب الاول في الدولة وجعله وزيرا له ، بعد مقتل الوزير السابق صدر الدين الزنجاني ، الذي اودى به سعيه برشيد الدين عند غازان ومحاولة الايقاع به لديه ، فادى ذلك الى مقتله واحلال رشيد الدين محله عام ٦٩٧هـ (١٢٩٧ م) واشرك معه في الوزارة سعد الدين الساجسي .

ثم مات غازان وتولى الحكم بعده اخوه الجايتو خدابنده فحفظ للوزيرين منصبيهما وظلت لرشيد الدين نفس

المنزلة التي كانت له عند غازان .
وكما حيكت له الدسائس لدى غازان اخذت
الدسائس تحاك له ولزميله سعد الدين لدى (خدابنده)
فنجبا منها رشيد الدين مرارا في حين انها ادت الى
مقتل زميله سعد الدين واحلال علي شاه محله الذي
اخذ يدس على رشيد الدين دون ان ينجح في دسائسه .
ومات الجايو خدابنده ورشيد الدين على مكانته ، وتولى
بعد خدابنده ولده ابو سعيد والتنافر بين الوزيرين على
اشده ودسائس علي شاه لدى ابي سعيد تتوالى حتى
نجح في حمل السلطان على اقصائه عن الوزارة سنة
٧١٧هـ (١٣١٧ م) . على ان مساعي اصدقائه اعادته
من جديد الى الوزارة بعد ان تردد واحجم ، ولكن هذه
العودة كانت السبب في وصوله الى نهاية المحنة . اذ اتهمه
زميله علي شاه بانه سمم السلطان خدابنده وبعد مناقشات
طويلة اقتنع ابو سعيد بان رشيد الدين ان لم يسمم
اباه فهو على الاقل وصف له دواء كان السبب في موته .
وبالرغم من ان التهمة كانت واهية فتد سيطرت على
ابي سعيد فأمر بان يقتل رشيد الدين وان يقتل معه
ولده اليافع ابراهيم الذي لم يكن قد تجاوز السادسة عشرة
من عمره بدعوى انه هو الذي ناول الدواء بنفسه للسلطان ،
فقتل ولده امام عينيه ثم قتل هو سنة ٧١٨هـ (١٣١٩ م) وقد
بلغ الثالثة والسبعين من عمره .

ولم يلبث بعد ذلك ابو سعيد ان ادرك انه كان مخطئا
فيما اجراه على رشيد الدين وولده ، وشاء ان يكفر

عما فعل فاستدعى غياث الدين احد اولاد رشيد الدين وعهد اليه بالمنصب الذي كان يشغله ابوه في الوزارة .

الربع الرشيدي

انشأ رشيد الدين في تبريز ضاحية اطلق عليها اسم الربع الرشيدي وعني بها عناية فائقة . على ان اكثر ما يهمننا من تلك الضاحية انه انشأ فيها مكتبة حافلة جمع فيها من صنوف الكتب ما قل ان يجتمع مثيله في مكتبة . وكانت نحنوي على ما لا يقل عن خمسين الف مجلد .

ولما نكب وقتل كان من افجع اثار النكبة احراق تلك المكتبة بكل ما فيها . ولدينا الكثير من الكتب التي لم يصلنا الا اسمها وكانت فيما تحويه مكتبة الربع الرشيدي وذهبت كلها طعمة للنار . ويكفي ان نذكر منها مؤلفات ابن الفوطي وحدها .

الثقف المسلم والعالم العالي

هذا تلخيص لحياة رشيد الدين السياسية ، وهي حياة مهما كان قد اوتي فيها من كفاءة وتفوق في حسن نصريف الامور ، ومهما كتب له من النجاح في ميادينها ، فهي على كل حال حياة كحياة كل السياسيين المتفوقين منهم وغير المتفوقين ، الذين لا يلبث اسمهم ان يضيع في طيات الزمن ويختفي في اغوار الدهر . ولو كانت هذه الحياة هي كل ما كان لرشيد الدين لما وجد من يشغل نفسه بها ويلفت قراءه اليها .

ولكن لرشيد الدين حياة اخرى هي التي تعيننا في هذا البحث ، وهي التي عنت قبلنا غيرنا من الكاتبين : هي حياة العالم المفكر المؤرخ ، وهي حياة اكسبت رشيد الدين الخلود ، وجعلته من احياء الذاكر على طول الدهر .

يقول المستشرق الفرنسي (كاترمير) في مقدمته التي كتبها لكتاب جامع التواريخ : « اذا غضضنا النظر عن الطب الذي اقبل رشيد الدين على تعلمه منذ زمن مبكر ، وعن شتى فروع المعرفة الاخرى التي ترتبط بهذا العلم برباط مباشر ، وجدنا انه ايضا لم يهمل دراسة الزراعة والهندسة والميتافيزيقا واللاهوت . وكان يحيط احاطة تامة بكثير من اللغات وهي : الفارسية والعربية والمغولية والتركية والعبرية وربما الصينية » .

ويقول عنه ايضا « كان مولعا بالمعرفة اشد الولع فاستطاع رغم كل هذه المشاغل والموانع ان يجد لنفسه الوسيلة لمعالجة الاداب والعلوم والاداطة بالدين الاسلامي الى اعماق حد » .

ويبدو مما ذكره الفقيه الكبير الحسن بن يوسف بن المطهر ، المعروف بالعلامة الحلبي في بعض كتبه ان مجالس رشيد الدين في عهد وزارته كانت مجالس علمية ومباحث اسلامية تعرض فيها شتى البحوث وتطرح مختلف الاسئلة لا سيما المتعلقة منها بالاسلام . وان بعض من كان يحضر كان يسأل رشيد الدين عن دقيق الامور ، وكان رشيد الدين يجيب ويناقش .

وقد ذكر العلامة الحلي انه حضر بعض تلك الجلسات في عهد السلطان الجايقو خدابنده واستمع الى سؤالين اسلاميين طرحا على رشيد الدين وانه اجاب عنهما . ولشدة اعجاب الحلي بجواب رشيد الدين فقد دون السؤالين والجوابين . يقول العلامة الحلي ما نصه : (وحضرت في بعض الليالي للاستفادة من نتائج قريحته فسئل في تلك الليلة سؤالين مشكلين فاجاد في الجواب عنهما) .

والواقع ان رشيد الدين كان يمثل المسلم المثقف ، الرفيع الثقافة كما كان يمثل العالم العالمي ، باوسع ما تعنيه هذه الكلمات من معنى . ولو لم تشغله السياسة ، ولو لم يغره الحكم لكان له من الشأن فوق الذي كان . اذ انه لم يعط الجانب الثقافي الا بعض العطاء ومع ذلك فقد كان له فيه مثل الذي رأينا .

واذا كان لرشيد الدين من الكتب مثل (التوضيحات) و (مفتاح التفاسير) والرسالة السلطانية) و (الاحياء او الاثار) و لطائف الحقائق) و (بيان الحقائق) ، فلا شك ان قمة اعماله التأليفية هي ما كتبه في التاريخ في كتابه (جامع التواريخ) .

قصة جامع التواريخ

يعود الفضل بالدرجة الاولى في تأليف هذا الكتاب الى السلطان غازان الذي شاء ان يكون للمغول تاريخ مكتوب . وكان لا بد في الرجوع في تسجيل هذا التاريخ الى مصادر معروفة واحداث مكتوبة تكون المادة الاولى للمؤرخ

الذي يأخذ على نفسه القيام بهذا العبء .
 وكان سلاطين المغول يحتفظون في خزائهم بوثائق
 مكتوبة بلغتهم فيها تدوين لكثير من وقائعهم ، كما كان
 كثير من الاسر المغولية العريقة يحتفظ بمثل هذه الوثائق .
 وكان كل ذلك يحتاج الى من ينظمه وينسقه ويستخلص
 منه الحقائق ، ويخرج منه اصولا لتاريخ يمكن ان يدون .
 واهتم غازان بهذا ونضجت الفكرة في ذهنه فعمل
 على تحقيقها ، ولم يكن في بلاطه افضل من رشيد الدين
 من يمكن ان يعهد اليه بانجاز تاريخ المغول وتدوينه . فاودع
 لديه كل ما كان تحت يده من وثائق وعهد اليه باستطلاع
 ما يمكنه استطلاعها من المدونات الاخرى او الروايات غير
 المعروفة .

فقام رشيد الدين بالمهمة على افضل وجوهها
 وعكف على انجازها بقدر ما تسمح له به ظروف اضطلاع
 بشؤون الادارة والحكم .

ولما اوشك الكتاب على التمام كان غازان قد توفي
 ٧٠٢ (١٣٠٣) وورث عرشه اخوه (الجايتو خدابنده) فلم
 يكن اقل اهتماما من اخيه بانجاز هذا التاريخ ، بل زاد عليه
 بان طلب الى رشيد الدين ان يشير الى الشعوب التي
 اتصل بها المغول ويعرض لتاريخها وان يضيف الى ذلك
 دراسة شاملة لكل الشعوب .

ولم تأت سنة ٧١٠ (١٣١٠) حتى كان الكتاب قد
 انتهى مكتوبا باللغة العربية واللغة الفارسية باسم
 (جامع التواريخ) واودع مكتبة المسجد الذي كان رشيد الدين

تد بناه في مدينة تبريز .

ويصف كاترمير الكتاب قائلا : « الواقع ان تاريخ رشيد الدين قد اعتمد في تأليفه على فحص الوثائق الوطنية الصحيحة المحفوظة في سجلات الامبراطورية والمذكرات التي في حوزة الاسر الكبيرة وقام بتأليفه رجل صادق حي الضمير ، وبذلك يكون قد توفرت له كل مقومات الصدق » .

وينقل كاترمير عن المخطوطة العربية وصفا لمنهج رشيد الدين وطريقته في التدوين بقلم رشيد الدين نفسه : « استطيع ان اشهد لنفسي بانني لم ادخر اي احتياط او جهد في تحري الحقيقة والامتناع عن كتابة كل ما هو زائف او مشكوك فيه . وقد اقتبست دون اي تغيير ما انطوت عليه اصدق الوثائق الخاصة بكل شعب ، والروايات التي حازت احسن التقدير والمعلومات التي استقيتها من اعلم الرجال في كل قطر . وفتشت كتب المؤرخين ورجال الانساب . وحققت هجاء اسم كل امة وكل قبيلة » .

الواقع اننا نستطيع ان نعد ميزة التجرد اولى الميزات التي اتصف بها رشيد الدين في تاريخه ، وان نوقن بانه سعى وراء الحقيقة سعيا مخلصا شجاعا ، ولم يراع جانب المغول وهو يتحدث عما في تاريخهم من فظائع ، وكان كما قال عنه كاترمير : « اذا كان يبدو في كتابه مسلما صادق الاسلام ، فانانراه من جهة اخرى يتجنب الاطراء غير المجدي ويتمسك دائما بنزاهة في الرأي تستحق كل اجلال ، ولا سيما اذا كانت من مؤرخ » .

ويقول ايضا : « يذكر دون مواربة ولكن دون مبالغة

ايضا ضروب القسوة الشنيعة التي ارتكبتها هذا الشعب (المغولي) وتخريب اعظم المدن واكثرها ازدهارا وتذبيح السكان العديدين دون قلق او ندم ، كما يصور بهدوء وتحفظ ضروب التجديف التي قاموا بها في مساجد بخارى وغيرها من المدن ، حيث مزقوا المصاحف والقوا بها ارضا وصنعوا من اغلفتها الثمينة مذاود لخيولهم .

تاريخ هولوكو

عندما نراجع كتاب تاريخ هولوكو ونتجاوز ما فيه من ذكر المذابح والاهوال التي رافقت هولوكو ومشت معه في كل خطوة خطاها مما نص عليه رشيد الدين نسا واضحا، وعندما نقف عند محاولة المغول غزو مصر ، وتصميم الملك المظفر سيف الدين قطز على المقاومة والقتال وما انتهى اليه الامر بعد ذلك من الظفر .

نرى ان هذا القسم قد حوى من الحقائق ووضح من الخوافي ما لم يكن ممكنا الوصول اليه في غير هذا الكتاب . لقد ابرز لنا مثلا مقدمات معركة عين جالوت والاحداث التي ادت الى تلك المعركة ابرازا لا نجد له مثيلا في غيره . وحين نريد الاعتزاز بما جرى لا نجد امامنا ما يمدنا بمثل ما امدنا به رشيد الدين في كتابه .

وعندما يصف المؤتمر العسكري الذي عقده وترأسه الملك المظفر سيف الدين قطز ، فانه يذكر كل الكلمات والجميل التي وصفت هولوكو بما هو فيه والتي صورته سفاكا غادرا لا يرعى الا ولا ذمة ولا يحفظ عهدا ولا امانا .

انه يذكر مثلا عن لسان ناصر الدين قيمري من
 كبار اعضاء المؤتمر قوله عن هولاءكو : « لا يتورع عن
 احتزاز الرؤوس . وهو لا يفى بعهده وميثاقه » .
 ويذكر عن لسان سيف الدين قطز قوله واصفا
 ما جرى في البلاد التي مر بها هولاءكو : « ان كافة بلاد
 ديار بكر وربيعة والشام ممثلة بالمناحات والفجائع ،
 واضحت البلاد من بغداد حتى الروم خرابا يبابا ، وقضى
 على جميع ما فيها من حرث ونسل » .

حقائق اخرى

من الحقائق التي عرفناها في كتاب (جامع التواريخ)
 حقائق مذهلة حقا . فلم يكن يدور في خلدنا ان المحرضين
 للمغول على غزو المسلمين هم بعض المسلمين . وان
 قاضي القضاة شمس الدين القزويني كان هو المحرض
 والمصر على التحريض والثابت عليه . فان هذا القاضي
 او قاضي القضاة هذا كان لا يحتمل وجود الاسماعيليين
 في قلاعهم المنيعة التي ارتدت عنها جحافل جنكيز ، فكان
 لا يفتأ يتوسل الى منكوخان بمختلف الوسائل المثمرة ليحمله
 على توجيه هولاءكو لمباشرة الغزو والتقدم الى القلاع
 الاسماعيلية .

ولقد سار هولاءكو وشعار حملته القضاء على
 الاسماعيليين الذين كان يسميهم الملاحدة . ويحدثنا رشيد
 الدين عن ذلك قائلا عن هولاءكو : « ثم ارسل عدة رسل
 الى الملوك والسلاطين في ايران تشتمل على تلك

العبارات : « بناء على امر القآن فذ عزمتنا على تحطيم
تقلاع الملاحدة وازعاج تلك الطائفة ... » ..

تدابير ابن العلقمي

ويعرض لنا رشيد الدين التدابير المحكمة التي كان
يعدها ابن العلقمي لدفع عادية المغول وكيف كان يفسدها
الدوادر الصغير مجاهد الدين ، كما يحدثنا عما يشبهه
المؤتمر الذي عقده من يسميهم امراء بغداد وعظماؤها
في منزل ابن العلقمي الذين كان منهم سليمان شاه
والذي اضطر على حضوره - على ما يبدو - الدوادر نفسه
وكيف حمل الحاضرون على ضعف الخليفة مستشعرين
الخطر الداهم . وكيف قام ابن العلقمي بعد ذلك
باعداد الجنود عرضهم وكيف كان نقص المال يحول دون اكمال
الاعداد وكيف ان الخليفة رفض مد الجند بالمال مما افسد
خطط الوزير ..

ثم يشير رشيد الدين الى حقيقة اتهام ابن العلقمي

قائلا :

« ولما كان الدوادر - في تلك الفترة - خصما للوزير
فان اتباعه من سفلة المدينة واوباشها كانوا يذيعون بين
الناس ان الوزير متفق مع هولاكوخان » .

كما يشير الى ان سليمان شاه حين احضر بين
يدي هولاكو واستجوبه هولاكو متسائلا كيف لم يشر على
الخليفة بما فيه الرأي ، وان سليمان شاه اجابه بان
الخليفة لم يستمع لنصح الناصحين .

حقائق وحقائق

ومما يثير النفس اسى ان المستعصم الذي رفض ان يوجد بالمال لاعداد الجيش وتنظيمه كما اراد ابن العلقمي، يضطر بعد ان دخل المغول بغداد لان يكشف لهولاكو عن حوض مملوء بالذهب في ساحة القصر ، فحفروا الارض حتى وجدوه وكان مليئا بالذهب الاحمر وكله سبائك تزن الواحدة مائة مثقال ، كما يروي رشيد الدين .

ثم يقول : وقصارى القول ان كل ما كان الخلفاء قد جمعوه خلال خمسة قرون وضعه المغول بعضه على بعض فكان كجبل على جبل .

بعد فوات الاوان

وبعد فوات الاوان يدرك المستعصم ان ما قد اشار به ابن العلقمي كان هو الصواب وانه لو عمل بآرائه لما وصل الحال الى ما وصل اليه ..

ولما استدعاه هولوكو عاد يستشير ابن العلقمي قائلا له : ما حيلتنا ؟ .. فقال ابن العلقمي : « لحيتنا طويلة » . وكان مراده من ذلك كما نص رشيد الدين — : (انه عندما فكر اول الامر في ان ترسل احمال وفيرة لدفع هذا البلاء ، قال الدوادار : « لحية الوزير طويلة » وحال دون الاخذ بهذا الرأي واستمع الخليفة لكلامه واهمل تدبير الوزير) .

ولا شك ان الامر الان قد خرج عن كل تدبير ورأي . ومن صراحة رشيد الدين استعماله كلمة الشهادة

لمن يقتله المغول كما قال عن تاج الدين بن صلاح
الاربلبي : « ... وعند محاكمته ثبت جرمه واستشهد » .

كذلك يشير الى ما بلغ اليه الملوك من الهلع الذي
حملهم على الاستخاء استخاء مزريا : فهو مثلا يحدثنا عن
السلطان عز الدين صاحب الروم ، انه عندما فتحت
بغداد أمر بصنع حذاء ملكي في غاية الجودة ونقشت صورته
على نعل ذلك الحذاء ثم قدمه لهولاكو اثناء معابته اياه .
وعندما وقع نظر هولاكو على تلك الصورة قبل عز الدين
الارض وقال : (ان املي هو ان يشرف الملك رأس هذا
العبد بوضع قدمه المباركة عليها) .

مجلدات الكتاب

يشتمل كتاب جامع التواريخ على اربعة مجلدات :
الاول : يتعلق بتاريخ المغول المشتمل على تاريخ
القبائل التركية المغولية واجداد جنكيز ، ثم جنكيز نفسه
ومن بعده خلفاؤه حتى غازان . والثاني : يتعلق بتاريخ
الفرس قبل الاسلام ، ثم التاريخ الاسلامي الى سقوط
بغداد ، ثم الامم التي اتصل بها المغول في فتوحاتهم ، والثالث :
يشتمل على ابعث عصور التاريخ حتى اخر خلفاء بني
العباس . والرابع : يشتمل على تفصيل حدود الاقاليم
السبعة وولايات ممالك العالم .

على ان كاترمير يقول : لدينا الجزء الاول من كتاب
رشيد الدين وهو الجزء الخاص بتاريخ المغول . وانه
الكتاب الوحيد الذي نستطيع العثور فيه على اصدق

المعلومات عن حياة جنكيز خان وخلفائه وعن عهودهم .
ثم يتساءل كاترمير : هل الاجزاء الثلاثة الاخرى قد
ضاعت دون امل في العثور عليها ؟ وكان في نية كاترمير
تحقيق اكثر ما يمكنه تحقيقه من المجلد الاول ولكنه لم يستطع
تحقيق سوى القسم الخاص بهولاكو ونشره بالفرنسية مع
مقدمة نفيسة طويلة سنة ١٨٣٦ .

ويقول يحيى الخشاب : ان حديث كاترمير عن (جامع
التواريخ) قديم ، وقد جد الكثير عنه سواء من ناحية
اكتشاف اجزاء منه لم تكن قد عثر عليها ايام كاترمير او
من ناحية النشر .

ومن امثلة ذلك الطبعة التي صدرت سنة ١٨٥٨
وهي قسم من الجزء الاول متعلق باجداد جنكيز وتاريخ
جنكيز نفسه . وكان اخراج آخر جزء من هذا البحث سنة
١٨٨٨ باللغة الفارسية مع الترجمة الروسية وقد اخرج
هذه الاجزاء المستشرق الروسي (برزين) .

كما صدر بعد ذلك ابتداء من اوائل هذا القرن اكثر من
قسم من المجلد الاول كهذا الذي نشره المستشرق الفرنسي
(بلوشيه) سنة ١٩١١ والذي نشر في ايران سنة ١٩٣٧
والذي نشره المستشرق التشكسلافكي (كارل) سنة ١٩٤٠
وكذلك سنة ١٩٤١ .

وهكذا يمكن القول ان المجلد الاول من جامع التواريخ
قد نشر كله . كما نشر كارل يان سنة ١٩٥١ القسم المتعلق
بالفرنج من المجلد الثاني .

في اللغة العربية

كان عبد الوهاب عزام اول من دعا في العرب لنشر (جامع التواريخ) وترجمته والقى عام ١٩٤٧ محاضرة في الجمعية الجغرافية عن رشيد الدين تحدث فيها عن كتابه وضرورة القيام بنشر القسم العربي منه وترجمة بقية الاجزاء الى اللغة العربية .

ثم مضت عهود وعهود فكان ان قررت ادارة الثقافة والارشاد القومي في مصر ان تقوم بنشر هذا التاريخ . ولكننا لا نعلم انه صدر في اللغة العربية غير قسم من المجلد الثاني - الجزء الاول وهو (تاريخ هولانكو) . نقله الى اللغة العربية كل من محمد صادق نشأت ومحمد موسى هنداوي وفؤاد عبد المعطي الصياد ، وراجعه وقدم له يحيى الخشاب . وطبع سنة ١٩٦٠ .

كما نشرت مع هذا القسم السيرة الطويلة النفيسة لرشيد الدين التي كتبها المستشرق الفرنسي كاترمير والتي ترجمها محمد القصاص .

وكذلك نشر الجزء الثاني من المجلد الثاني . .

ووعده يحيى الخشاب في آخر مقدمته بنشر ما ينجز من الكتاب اولا بأول . ولا نعلم بعد هل تحقق شيء من هذا الوعد ام لا .

حرص رشيد الدين على حفظ مؤلفاته

كان رشيد الدين حريصا على ان تصل مؤلفاته لا

سيما جامع التواريخ الى الاجيال الآتية . وقد كان يعلم ما كان يمكن ان يكون عليه ، او ما كان عليه مصير كثير من الكتب حين لا يكون في ايدي الناس منها الا نسخ محدودة تذهب بها ايدي الحدثان لا سيما في العصور التي تكثر فيها الفتن وتعم الفوضى .

لذلك حرص اشد الحرص على ان يتخذ طريقة يكتب، لمؤلفاته معها الوصول من جيل الى جيل ، فاستكتب عدة نسخ من كتبه مفردة ومجمعة ، بالفارسية وبالعربية . كما استكتب مجلدا ضخما ضم كل مؤلفاته بالفارسية والعربية زيادة منه في الحرص على حفظها . وادع ذلك في البناء الكبير الذي شاده في الربع الرشيدي ليكون مدفنا له . ثم توسع في الاحتياط فوقف قسما من ثروته لكتابة نسخة بالفارسية ونسخة بالعربية في كل عام من مجموعة مؤلفاته كلها لترسل الى مدينة من مدن الاسلام الكبرى وتوقف على اهل تلك المدينة ، وكتب في ذلك وصية جميلة طريفة مؤثرة .

ولكن كل ذلك الحذر لم يفد وضاع ما ضاع من مؤلفاته ووجد ما وجد شأنه شأن كل المؤلفين في تلك العهود .

ولعل هذا الحرص هو الذي اوصل الينا ما وصل ، ولولاه لضاع الجميع ، وقد كان مطمئنا الى بناء الربع الرشيدي الذي حفظ فيه كتبه ، ولكن الربع كله نهب بعد نكته واحترقت مكتبته كما قلنا .

من ملامح الدولة الفاطمية

يقول الدكتور حسن ابراهيم حسن من عمداء جامعة القاهرة واساتذة التاريخ السابقين فيها وهو يتحدث عن كتاب (المجالس والمسائرات) للنعمان بن محمد : (وعرض النعمان غير مرة لعلاقة المعز (الفاطمي) بالدولة البيزنطية فاوضح اعتماد حاكم الاندلس عبد الرحمن الناصر الاموي على الروم في صراعه مع الفاطميين وصور ما حل بالروم وحلفائهم امام اساطيل المعز تصويرا رائعا وذكر الرسائل التي بعث بها اباطرة الدولة البيزنطية لاستدراج عدلف المعز ومهادنته ولاول مرة نسمع ان مسلمي جزيرة قريطش (كريت) الذين كانوا تحت الحكم العباسي يطلبون النجدة من المعز (الفاطمي) لحرب الروم ومن دراستنا للوثائق التي تبودلت بين اهل قريطش وبين المعز لدين الله نرى ما وصلت اليه الدولة الفاطمية من قوة ونفوذ . » .

ويقول الدكتور محمد كامل حسين من اساتذة جامعة القاهرة :
فالقاهرة الفاطمية اصبحت مطمح انظار العلماء ومحط رحال الطلاب وفي العصر الفاطمي استطاعت مصر ان تفتزع زعامة العالم الاسلامي في الحياة العلمية .

ويقول ايضا : وكان الفاطميون يهتمون بالدراسة الفلسفية في الوقت الذي كان فيه غيرهم في البلاد الاخرى يرمون من يشتغل بالفلسفة بالزندقة والاحاد .

ويقول ايضا : وقد كان الخلفاء الفاطميون يقربون العلماء ويشجعون الطلاب وقد اوقفوا ارزاقا ثابتة للمشتغلين بالعلم حتى يتهيأ لهم التفرغ لما اهلوا انفسهم له .

ويقول ايضا : وتسامح الفاطميون مع العلماء الذين لم يعتنقوا مذهبهم ويقول ايضا : ومهما يكن من شيء فقد كانت هذه الحركة العقلية في مصر الفاطمية في نمو مطرد في كل نواحيها وفنونها ، وتعددت مراكزها في مصر ، وكانت حلقات الدرس في المساجد او الدور في القاهرة والفسطاط وفي الاسكندرية وتيسر في الشمال وفي اسوان وقوص في الجنوب ، كما كان امراء الاقاليم يجمعون حولهم العلماء والشعراء وعن مصر الفاطمية اخذ كثير من العلماء في الشرق والغرب .

ويقول الدكتور مصطفى مشرفة : انه كان للمالكية في الازهر الفاطمي خمس عشرة حلقة وللشافعية مثلها ولاصحاب ابي حنيفة ثلاث حلقات ويقول الدكتور محمد كامل حسين عن الحاكم بامر الله بالذات : والحاكم بامر الله لما امر بعمارة دار العلم ونقل اليها الكتب من القصر اسكنها من شيوخ السنة شيخين احدهما ابو بكر الانطاكي وخلص عليهما وقربهما .

الوحدة بعد التجزئة

هذه الصور المشرقة التي جلاها لنا فريق من

الباحثين عن الدولة الفاطمية هي في الحقيقة نقاط من بحر الواقع الذي كانت عليه تلك الدولة ، وما بلغته في الميادين النضالية والفكرية والعلمية ، وسنحاول هنا عرض ما يسمح به مقال محدود السطور مقيد المكان .

كلمة الدكتور حسن ابراهيم حسن تشير اشارة خاطفة الى امور خطيرة في حياة هذه الدولة منها انها كانت ضرورة من ضرورات العالم الاسلامي في ذلك الحين الذي تمزقت فيه قوى المسلمين وتفرقت كلمتهم وتلاشت دولتهم واصبحوا يتطلعون الى الحمى الذي يمكن ان يلجأوا اليه من الخطر الدايم المهدهم لوجودهم بتزايد قوى الروم واصرارهم على غزو الاسلام في دياره واسترداد ما اخذه منهم والثار للماضي البعيد حتى ان نقفور فوقاس لم يكن يخفي مطامعه انهوجاء في الزحف الى الحجاز نفسه والوصول الى مكة والمدينة .

في هذا البحران الرهيب كان المنقذ منه نشوء دولة فتيحة وزعامة قوية تجمع حولها ما تشتتت من القوى وتوحد ما تفرق من البلاد فكانت الدولة الفاطمية هي المنقذ فجملت الشمال الافريقي في كيان واحد وقيادة واحدة وقضت على التجزئة في وحدة متماسكة جعلته دولة بعدما كان عدة دول متطاحنة متقاتلة .

وليس الشمال الافريقي هينا حين تتجمع قواه وتتوحد كلمته وليست موارده قليلة حين يقدر لها قيادة حكيمة حازمة .

في مواجهة الاخطار

وهكذا رأينا تلك الدولة الفتية ترتفع من بين الزعازع،
وتقوم شديدة لتواجه الخطر الداهم بعد ان اخذت اطراف
البلاد الاسلامية تنتقص واحدة بعد الاخرى مما عبر عنه
شاعر ذلك العصر ابن هاني الاندلسي عند قوله :

فمدينة من بعد اخرى تستبى
وطريقة من بعد اخرى تقتفى
حتى لقد رجفت ديار ربيعة
وتزلزلت ارض العراق تخوفا
والشام قد اودى واودى اهله

الا قليلا والحجاز على شفا

وقد كان تعبير هذا الشاعر تعبيرا واضحا يعطي
الصورة الحقيقية للوضع الاسلامي في تلك الايام ، ويبين
بجلاء حالة الدنيا العربية وما كلت فيه ، وهو من الشعر
الواقعي النادر الذي يرسم الحقيقة الوطنية على اصدق
حالتها

الشام قد اودى الا قليلا ، والحجاز على شفا ، اما بقية
الاقطار كديار ربيعة والعراق وغيرها فاذا كانت بعيدة عن
الخطر الان ، وهو غير مساور لها مباشرة فقد كانت راجفة
متزلزلة حزنا على ما جرى وخوفا مما سيأتي ، وهذا
لعمري من افضل ما يمكن ان يعبر عنه شعر الامم في
مآسيها ونوازلها .

ثم ينطق الشاعر بلسان العالم الاسلامي معبرا
عن الامل العظيم بالدولة الجديدة :

لا تياسوا فאלه منجز وعده
قد آن للظلماء ان تتكشفا

التصدي للمدو

ولنقف قليلا لنرى ما هي حقيقة الحال الذي يصوره
الشاعر :

يقول الدكتور محمد جمال الدين سرور استاذ التاريخ
الاسلامي في جامعة القاهرة : « اتجهت سياسة الفاطميين
بعد ان امتد نفوذهم الى مصر في عهد المعز لدين الله
الفاطمي سنة ٣٥٨هـ (٩٦٩م) الى استعادة المدن
التي استولى عليها البيزنطيون في شمال الشام » .
وهكذا نرى ان الوحدة لم تقتصر على الشمال
الافريقي وحده بل تعدته الى بلاد اخرى ، تعدته الى
مصر نفسها ثم تعدت مصر الى فلسطين وسورية ولبنان
وكذلك الى الجزيرة العربية وحين يلتقي الشمال
الافريقي في وحدة مع مصر والشام وغيرها وحين تتولى مصر
بكل امكانياتها وكفاءاتها زمام هذه الوحدة الكبرى يكون الامر
بعنا اسلاميا شاملا ووثوبا عربيا كاسحا ، وهكذا اصبحت
الدولة الجديدة ذات كيان خطير قضى على الدويلات
وجمع الشمل في اطار يشدها شدا لتواجه الاحداث الرهيبة ،
وكان في اولها حفظ بلاد الشام واسترداد ما تساقط منها في
ايدي الروم الذين وصلوا في احدى نوباتهم في عهد الامبراطور
حننا زيمسكيس سنة ٩٧٥ الى حمص وبعلبك واضطرت
دمشق نفسها الى التسليم ودفع الجزية لهم ثم ساروا

فاستولوا على بعض مدن الساحل مثل صيدا وبيروت .
 (فالشام قد اودى الا قليلا) كما قال الشاعر .
 وظل الروم يتقدمون وظلت الاستعدادات الفاطمية
 تتوالى لانقاذ الشام حتى اصطدمت بالروم في طرابلس
 الشام برا وبحرا فواقعت الهزيمة بهم فارتدت قواهم الى
 انطاكية ..

الاسطول العظيم

وقد كان للاسطول الفاطمي الشأن العظيم في دفع
 عادية الروم والافرنج ولقد كان الفاطميون بعيدي النظر
 حين ادركوا ان الجيوش البرية وحدها لا تكفي لحماية
 العالم الاسلامي وانقاذ الوطن العربي فأنشأوا اسطولا
 ضخما حمى البلاد من الهجمات البيزنطية ثم دافع
 عنها بعد ذلك في الحروب الصليبية .

وفي هذا الاسطول يقول بعض المؤرخين : « بلغ عدد
 ربابنة اسطول الفاطميين خلال القرن الرابع الهجري
 (العاشر الميلادي) خمسة الاف ربان وعدد سفنه مائتي
 سفينة واضطر الافرنج الى الانحياز بمراكبهم الى الجانب
 الشمالي الشرقي من البحر المتوسط لا يبرحونه لان
 هذا البحر يسيطر عليه الاسطول الفاطمي من مضيق
 جبل طارق حتى بيروت » .

ظلم ذوي القربى

ولقد كان من افجع ما عاتاه الفاطميون ان غيرهم

كان يستعين عليهم بالاجنبي الفاتح فبينما كانوا يناضلون لحملة البلاد ورد الافرنج والروم عنها كان حكام الاندلس يحرضون عليهم الروم ويستعينون عليهم بهم ، وكان امير حلب يستنجد بباسيل الثاني امبراطور الروم سنة ٣٨١ ولكن القوات الفاطمية تصمد للروم وتلتقي بهم على نهر العاصي فتهزمهم ، وكذلك يثير عليهم (علاقة) ثورة في صور ثم تكون فاتحة اعماله الاستنجد بالروم وبالامبراطور باسيل الثاني ، ولكن الحركة تنتهي بهزيمة البيزنطيين وحليفهم علاقة .

والامير حسان بن مفرج بن الجراح الطائي صاحب الرملة في فلسطين يستنصر بالبيزنطيين ويستعديهم على اهله هو الآخر .

بل ان فقيها من الفقهاء وحافظا من الحفاظ يبدو انه من الرملة نفسها هو الحافظ محمد بن احمد بن سهل الرملي (١) يقول : « لو كان معي عشرة اسهم لرميت الروم بسهم ورميت المغاربة (٢) بتسعة » وقد عمل اميره حسان بن مفرج بهذه الفتوى فاستنجد بالروم ولكنه زاد على الفتوى فالقى بسهامه العشرة كلها على الفاطميين ولم يلق ولا بسهم واحد على الروم بل اضاف سهامه الى سهامهم فسلطوها مجتمعة على (افامية) فغنموا منها مغانم كثيرة واستولوا على قلعتها واسروا كثيرا من اهلهما .

١ - يسميه بعض المؤرخين باسم آخر .

٢ - اي الفاطميين .

الجهة الغربية

وقد كان الفاطميون مضطرين لان يحاربوا على ثلاث جهات هي الجهة الشرقية جهة بلاد الشام لدفع الروم عنها والجهة الداخلية ليتقوا دسائس بني جنسهم ، والجهة الغربية جهة اوروبا التي كانت قد استغلت ضعف القوى الاسلامية وتمزقها الى دويلات فاخذت تهاجم البلاد بلدا بعد بلد فراحت هذه البلاد تستنجد بالفاطميين كما رأينا فيما فعلته جزيرة كريت .

وكانت اوريا تحاول ضرب الدولة الجديدة قبل ان يستد ساعدها ويعلو امرها فهاجمتها في مواقعها الاوروبية لتقضي عليها فيها ولكن الفاطميين صمدوا لاوروبا في بلادها كما صمدوا لها في بلاد الشام وغير بلاد الشام ويحدثنا ابن الاثير عن واحدة من المعارك الرهيبة التي خاضها الفاطميون في سبيل صون الوطن الاسلامي سنة ٣٥٤ وذلك قبل امتداد دولتهم الى مصر ، ولما كانت هذه المعركة من اروع الصفحات في تاريخنا العسكري فأننا ننقل وصفها بنصه من ابن الاثير :

« . . . ذلك ان احمد بن الحسن والي المعز على صقلية ارسل يستمده فبعث اليه المعز المدد بالعاكر والاموال مع ابيه الحسن وجاء مدد الروم فنزلوا عبر سهل (مسيني) وزحفوا الى رمطة ومقدم الجيش الفاطمي الحسن بن عمار وابن اخي الحسن بن علي .

فاحاط الروم بهم وعظم الامر على المسلمين

فاستماتوا وحملوا على الروم وعقروا فرس قائدهم منويل فسقط عن فرسه فقتل هو وجماعة من البطارقة معه وانهزم الروم وتتبعهم المسلمون بالقتل وامتلأت ايديهم بالغنائم والاسرى ، ثم فتحوا مدينة رمطة عنوة وغنموا ما فيها وركب غل الروم من صقلية وجزيرة (ريو) في الاساطيل ناجين بانفسهم فاتبعهم الامير احمد واصحابه في الماء واحرقوا كثيرا من المراكب التي للروم ففرقت وكثر القتل في الروم فانهزموا لا يلوي احد على احد) .

وكما كانت هذه الواقعة صفحة رائعة في تاريخنا الحربي ونضالنا في البر والبحر فكذلك كانت في تاريخنا الادبي حيث خلدها الشاعر محمد بن هاني الاندلسي بقصيدة فريدة يخاطب بها الخليفة الفاطمي المعز لدين الله تعد من اسمى ما في تراثنا الشعري من روائع الكفاح البطولي يقول ابن هاني في مطلعها :

يوم عريض في الفخار طويل

لا تنقضي غرر له وحجول

وكانت لهذه المعركة نتائجها الحاسمة لاعلى الجبهة

الغربية وحدها بل حتى على الجبهة الشرقية نفسها والى ذلك يشير الشاعر :

مسحت ثغور الشام ادمعها به

ولقد تبل الترب وهي همول

وتبدو حماسة العالم الاسلامي لنتائج هذه المعركة

واعتزازه بها واطمئنانه بعدها مصورا بقلم الشاعر :

وجلا ظلام الدين والدنيا به
 ملك لما قال الكرام فعول
 متكشف عن عزمه علوية
 للكفر منها رنة وعويل
 فلو ان سفنا لم تحمل جيشه
 حملت عزائمها صبا وقبول
 يجلو البشير ضياء بشر خليفة
 ماء الهدى في صفحته يجول
 لله عينا من رأى اخباته
 لما اتاه بريدها الاجفيل
 وسجوده حتى التقى عفر الثرى
 وجبينه والنظم والاكيل
 لو ابصرنك الروم يومئذ درت
 ان الاله بما تشاء كفيل
 ان التي رام (الدمستق) حربها
 لله فيها صارم مسلول
 نامت ملوك في الحشايا وانثنت
 كسلى وطرفك بالسهاد كحيل
 تلهيك صلصلة العوالي كلما
 الهت اولئك قينة وشمول

الفاطميون والعلم

وفيما قاله الدكتور محمد كامل حسين يتضح لنا
 الجانب الاخر من الصورة الفاطمية ، فاذا كان الفاطميون

قد اقاموا الوحدة بعد التجزئة وانشأوا الجيش الضخم والاسطول الفخم فحموا بذلك العالم الاسلامي من اكبر كارثة كانت مستحل به ، فانهم الى جانب ذلك قد وضعوا منذ الساعة الاولى لحكمهم خطة هي ان يقوم هذا الحكم على قواعد ثابتة من العلم والمعرفة ، وخططوا كما نقول اليوم لسياسة تعليمية شاملة تركز على انشاء جامعة كبرى ثم على تفريغ العلماء للعلم وحده فلا يشغلهم شاغل العيش عن الانصراف الى العلم ولا يليهم الفقر عن التوسع في البحث والدرس فجعلوا لهم موارد من الرزق تضمن لهم العيش الكريم ثم ارسلوا يستدعون العلماء من الخارج . وقد امتد هذا المنهج واتسع وقوي بعد اقامة الوحدة بضم البلاد الاخرى الى مصر وانشاء القاهرة واقامة الازهر وقد تم ذلك على الشكل الاتي :

١ - خصصوا لكل مذهب من المذاهب الاسلامية في جامعتهم الكبرى الازهر كرسيًا لتدريس ذلك المذهب وقد كان عدد الطلاب يتفق مع انتشار ذلك المذهب في مصر والبلاد القريبة منها ، وقد عرفنا من عدد الحلقات التي كان ينضم اليها الطلاب مقدار انتشار كل مذهب من تلك المذاهب وعندما يكون عدد حلقات المالكية خمس عشرة حلقة ومثلها عدد حلقات الشافعية ، وعندما تكون الحلقات الحنفية لا تتجاوز الثلاث ، وعندما نفتقد الحلقات الحنبلية فمعنى ذلك انه كان للمذهبين المالكي والشافعي الاغلبية يليهما بفارق كبير المذهب الحنفي وان المذهب الحنبلي لم يكن له وجود .

وكذلك كان للمذهب الجعفري حلقاته ولكننا لم نستطع معرفة العدد في اقوال المؤرخين .

٢ - كان العلماء في البلاد الخارجة عن النفوذ الفاطمي يعانون محنة الفقر وكانت حياتهم مأساة مفرجة فارسل الفاطميون يستدعونهم اليهم ويضمنون لهم العيش الكريم ، وكأمثلة لما كان يجري نورد اسماء محدودة من كل عصر اذ ليس من المستطاع الالمام باسماء الجميع . والذي يدعو الى الاعجاب بالفاطميين ان جميع العلماء الذين استدعواهم او وفدوا اليهم ووفروا لهم التفرغ للعلم كانوا على غير مذهب الفاطميين .

فمن تلك الاسماء اسم عبد السلام القزويني شيخ المعتزلة الذي وفد الى مصر فاقام فيها اربعين سنة يلقي تعاليم مذهبه . ومنها اسم القاضي ابو الفضل محمد البغدادي امام الشافعية الذي وفد هو الاخر الى مصر واخذ يملئ من مذهبه ما شاء الله ان يملئ حتى مات سنة ٤٤١ .

وكذلك ابو الفتح سلطان بن ابراهيم الفلسطيني (٥١٨) وابو الحجاج يوسف الميروقي (٥٢٣) ومجلي بن جميع المخزومي (٥٥٠) والقاضي علي الموصلي الخلمي (٤٤٨) وابو محمد عبدالله السعدي (٥٦١) . وهؤلاء كانوا ممن ولي القضاء للفاطميين على أنهم شافعيو المذهب . ومن فقهاء المالكية عرفت مصر الفاطمية امثال محمد بن سليمان المعروف بابي بكر النعال الذي كانت اليه الرحلة في مصر ،

وكانت حلقته في الازهر تدور على سبعة عشر عمودا لكثرة الطلاب الذين كانوا يقصدونه .

وهناك قصة الفقيه المالكي عبد الوهاب بن علي احد الائمة المجتهدين في المذهب ، والذي وصفه الخطيب في تاريخ بغداد بانه لم ير في المالكية افقه منه لقد ضاقت به دنيا العرب والاسلام فكاد يموت من الجوع في بغداد فلم يجد الا مصر الفاطمية يحتمي بها فلما جاءها تدفق عليه المال وامروه بالانصراف الى علمه وبحثه ولكن الامر لم يطل فاصيب بالفالج فقال : « لا اله الا الله ، عندما عشنا متنا ، (٤٢٢) » وعبد الجليل مخلوف الصقلي (٥٤٩) وابو بكر الطرطوشي (٥٢٥) وغيرهم .

وقد حرصنا على ان نختار واحدا من كل فترة تاريخية لنبين ان الامر قد استمر ولم ينقطع .

ومن اشهر العلماء الذين لجأوا الى مصر في عهد الحاكم بأمر الله ابو الفضل جعفر وكان مكفونا فاعجب به الحاكم وخلق عليه ولقبه عالم العلماء .

على اننا ونحن نشير الى بعض العلماء الذين احتضنتهم مصر الفاطمية فان اشهر واحد منهم هو ابن الهيثم الذي استدعاه الحاكم بأمر الله وخرج لاستقباله بنفسه .

وكان الحاكم يأمر باحضار جماعة من المتخصصين في كل علم بعضهم من اهل الحساب والمنطق ، والفقهاء والاطباء للمذاكرة بين يديه ، فكانت تحضر كل طائفة على انفراد ثم يخلع الحاكم على الجميع ويصلهم

ومن ابلغ ما قيل في هذا الشأن ما قاله ابن ابي اصيبعة : « انه لما وصل المهذب — وكان فاضلا في صناعة الطب — الى الشام من بغداد اقام بدمشق مدة ولم يحصل له بها ما يقوم بكفايته وسمع بالديار المصرية وانعام الخلفاء فيها وكرمهم واحسانهم الى من يقصدهم ولا سيما ارباب العلم والفضل فتوجه الى مصر فوهبت له الاموال واقام فيها مكرما » .

المكتبات

لقد تفرد الفاطميون بانشاء دور الكتب الكبرى في الاسلام وبلغت تلك الدور حدا عجيبا واجتمع فيها ما يثير اليوم دهشتنا . ويكفي ان مكتبة القصر مثلا كانت تضم ستمائة الف والف وكتاب (٦٠١٠٠٠) ولتسهيل المطالعة على المراجعين كانوا يقتنون من امهات الكتب الكبرى التي تكثر حاجة الناس اليها كانوا يقتنعون منها عشرات النسخ ، فقد كان يوجد من تاريخ الطبري وحده الف ومائتا نسخة منها نسخة بخط ابن جرير نفسه ومن كتاب العين نيفا وثلاثين نسخة منها نسخة بخط الخليل الى غير ذلك من هذا واشباهه .

وقد توسع الحاكم بامر الله بشأن دور الكتب العامة وحرص على تسهيل وصول جميع طبقات الشعب اليها ، فقد قال المسبحي وهو يتحدث عن مكتبات القصر ان بعضها كان في خزائن القصر (البرانية) ، ويرى الدكتور محمد كامل حسين ان هذه الخزائن (البرانية) هي التي

انشأها الحاكم سنة ٣٩٥ وسمّاها دار العلم وحمل إليها من خزائن القصر من سائر العلوم والآداب ما لم ير مثله قط مجتمعا لأحد من الملوك وقد أباح ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم .

اشرف خاتمة

ادرك الدولة الفاطمية ما يدرك غيرها من الدول في أيامها الأخيرة فشاخت وضعفت واستنفدت معظم قواها في مقارعة الصليبيين برا وبحرا وفي اخماد الفتن . وفي العام ٥٦٤ بدا ان تهديدا صليبيا ربما وصل الى مصر نفسها وذلك في عهد الخليفة العاضد آخر الخلفاء . وقد ايقن العاضد ان لا قبل له بمقاومة الصليبيين وان جيوشه في وضع قد لا تستطيع معه الصمود في وجه الزحف الفرنجي ، فلم يتردد لحظة واحدة في ان يضع خلافته وملكه وكل بلاده في ايد غير فاطمية يعرف مطالعها به ويدرك ما تضره لما يعتقد ويرتأي ولم يتوان عن ان يسلمها كـل شيء ما دامت تستطيع المعاونة على دفع الصليبيين عن مصر واقدم على تضحية ليس لها شبيهه ولا نظير . لقد ارسل يستدعي نور الدين محمود ، وهو يعلم ما فعل نور الدين في حلب وغير حلب ، ارسل يبيدعيه ليحتل بلاده بمن شاء من قواده وقصي شعور نسائه وارسلها مع كتب الاستنجد قائلا لنور الدين : « هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج » . وكانت خاتمة الدولة الفاطمية وهي اشرف خاتمة تصنعها دولة من الدول لنفسها بيديها .

ابن هاني الاندلسي

اذا كان المدح قد فرض على الشعر العربي فأصبح الشاعر ولا حيلة له الا صوغ المدايح ليستطيع العيش فقد كانت حظوظ الشعراء في هذا السبيل مختلفة ، مختلفة لان شاعرا قد يوفق لمدوح لا يخجله مدحه لبطولة فيه او سجايا حميدة ، ومما لا يبدو معه الشاعر بادي الكذب ظاهر الدجل واضح الاستجداء . .

كما قد لا يوفق شاعر آخر لمثل هذا المدوح ، وقد يكون في مجتموعه اولى بالذم والتجريح منه بالثناء والمديح . ومع ذلك فالشاعر مسوق الى مدحه مدفوع الى الاشادة به لان الرزق في يديه ، والمال رهن كلمته .

سيف الدولة وكافور وعضد الدولة

على ان حظ الشاعر الواحد قد يختلف بين ممدوح وآخر ، فحظ المتنبسي وهو عند سيف الدولة غير حظه وهو عند كافور . واذا كانت قصائد المتنبسي في سيف الدولة هي في اصلها مدحا ، فأنها ايضا اعجاب ببطولة البطل العربي الصامد في وجه الغزو الاجنبي ، المكافح عن الحمى الوطني . والمعارك التي شهدتها المتنبسي مع سيف الدولة جديرة بأن توحى اليه بمثل ما اوحت حتى

ولو لم يكن المتنبى يقصد المدح او لو لم يكن الكسب من غاياته .

والامر مع المتنبى يجري على هذا القياس حتى وهو يمدح غير كافور ممن لم يكن يزري مدحهم في ذلك العصر مثلما كان يزري مدح كافور . فالمتنبى وهو يمدح عضد الدولة كان في موقف غير موقفه وهو يمدح سيف الدولة واذا كان عضد الدولة من الملوك الذين لا مغز فيهم ، وله من المآتي ما يصح معه ان يكون ممدحا . فهو على كل حال ليس في وضع يشبه وضع سيف الدولة وهو لم يكن الجندي المقاتل للعدو الخارجي ، ولا وضعته الاحداث في لهوات الحرب الوطنية فما يمكن ان يوحي به لشاعر كالمتنبى يستطيع اي امير ان يوحي بمثله . ومن هنا تراجعت قصائد المتنبى في مدح عضد الدولة عن قصائده في مدح سيف الدولة وقد كان هذا التراجع واضحا لكل ذي حس شعري ، واعترف به المتنبى نفسه .

والواقع ان ما كان يهز المتنبى وهو يشهد معركة الحدث مثلا مع سيف الدولة فينطقه بهذا القول :

هل الحدث الحمراء تعرف لونها
وتعرف اي الساقيين الغمام
سقتها الغمام الفر قبل نزوله
فلما دنا منها سقتها الجماجم
بناها فأعلى والقنا يقرع القنا
وجيش المنايا حوله متلاطم

وقفت وما في الموت شك لواقف
 كأنك في جفن الردى وهو نائم
 تمر بك الإبطال كلمى هزيمة
 ووجهك وضاح وثفرك باسم
 ومن طلب الفتح الجليل فأنما
 مفاتيحه البيض الخفاف الصوارم

لم يكن عند عضد الدولة مثله ليهتـز له المتنبـي ،
 وبالعكس من ذلك ، عندما مست قلب المتنبـي عاطفة
 جياشة فرأى جمال الطبيعة في شعـب بوان ، ثم لم يسمع
 في تلك المغاني لسانه العربي ، عاد متأثراً لما يرى ويسمع ،
 ففاض الشعر من حنايا نفسه فأبدع ما أبدع .

متنبـي المغرب

ومن الشعراء الذين وفقوا لممدوح جدير بمدحهم
 الشاعر محمد بن هاني الاندسي شاعر المعز لدين
 الله الفاطمي الذي اطلق عليه معاصروه لقب (متنبـي
 المغرب) .

وربما كان ما يجعل ابن هاني جديرا بهذا اللقب
 هو ان مواضيع مدح ابن هاني للمعز ، هي عين
 مواضيع مدح المتنبـي لسيف الدولة . فقد كانت ظروف
 كلا الممدوحين متشابهة ، وكان كلاهما مندفعاً لمقاومة الخطر
 الخارجي المهدد للبلاد الاسلامية يومذاك بل ان مسؤولية
 المعز كانت اكبر ، فهو مسؤول عن جبهة طويلة ممتدة على
 مدى شواطئ افريقيا الشمالية كلها ، ثم هو مسؤول عن

الجزر الاسلامية المهدة وفي طليعتها جزيرة صقلية .
ولم يكن الوضع الاسلامي والوضع العربي
يومذاك مما يقوى العزائم ويشحذ الهمم ، بل كان شمل
العرب والمسلمين ممزقا واختلافاتهم مشتدة ، لا الهدف
يجمعهم ولا الخطر يوحدهم .

وكان الاجنبي الطامع يعرف ذلك كله ، وكانت نار
الانتقام متأججة في نفوس البيزنطيين (الروم) الذين لم ينسهم
تطاول الايام ذكريات هزائهم الماضية، وجلائهم عن بلاد الشام
وغيرها ، وكانوا يحنون للعودة اليها من جديد . بل ان نقفور
فوقاس الثاني كان يهدد بالاستيلاء حتى على المدينة
ومكة واستطاع تحقيق الكثير من امانيه وفي ذلك يقول ابن
هاني :

اسفي على الاحرار قل حفاظهم
لو كان يجدي الحر ان يتأسفا
يا ويلكم افما لكم من صارخ
الا بثغر ضاع او دين عفا
حتى لقد رجفت ديار ربيعة
وتزلزلت ارض العراق تخوفنا
فمدينة من بعد أخرى تستبى
وطريقة من بعد أخرى تقتفى
والشام قد اودى واودى اهله
الا قليلا والحجاز على شفا
وطني مناضل

هذه صرخة وطني مناضل يرى بلاده تتساقط

امام ضربات الاعداء ، ويرى قومه متخاذلين ، هذه صرخة وطني مناضل اكثر منها نغمة شاعر مداح .

والواقع ان المعز لدين الله الفاطمي كان في ذلك العهد امل العرب والمسلمين وكانوا يتطلعون اليه من كل مكان ، حتى من الارض البعيدة عنه غير الخاضعة لسultanه . فعندما شعرت مثلا جزيرة (كريت) بالخطر الداهم ، ولاحت لها طلائع الغزو مطلة من بعيد كان همها ان توصل نداءها الى الرجل المأمول ، ويحدثنا الدكتور حسن ابراهيم حسن وهو يتحدث عن كتاب (المجالس والمسائرات) للنعمان فيقول : « وعرض النعمان غير مرة لعلاقة المعز بالدولة البيزنطية فأوضح اعتماد حاكم الاندلس عبد الرحمن الناصر الاموي على الروم في صراعه مع الفاطميين ، وصور ما حل بالروم وحلفائهم امام اساطيل المعز تصويرا رائعا ، وذكر الرسائل التي بعث بها اباطرة الدولة البيزنطية لاستدراار عطف المعز ومهادنته . ولاول مرة نسمع ان مسلمي جزيرة قريطش (كريت) الذي كانوا تحت الحكم العباسي يطلبون النجدة من المعز لحرب الروم . ومن دراستنا للوثائق التي تبولدت بين اهل قريطش وبين المعز لدين الله نرى ما وصلت اليه الدولة الفاطمية من قوة ونفوذ » .

وابن هاني يدرك ذلك ويدرك ان ممدوحه اهل لما علق عليه من آمال فيقول :

لا تيأسوا فالله منجز وعده
قد آن للظلماء أن تتكشفا

الاسطول العربي

لقد كان المعز جديرا بالظرف الحرج الذي وضعته فيه
الايام ، فلم يدع الوقت يذهب عبثا وادرك للوهلة الاولى
انه امام خطر بري وآخر بحري قد يكون هو الاشد . لذلك
صرف جهده اول ما صرفه الى انشاء اسطول ضخم يتناسب
مع المهمة الثقيلة التي تنتظره وهي حماية الشواطىء
الافريقية الشمالية من اي غزو متوقع ، وبذل لهذا
الاسطول اقصى ما يستطيع بذله حتى اصبح اسطوله
سيد البحر المتوسط ، وحتى صار مهددا للاعداء بعد ان
كان الاعداء مهددين ، وحتى صاروا يخشونه بعد ان
كانت البلاد تخشاهم .

وقد كان هذا الاسطول اعظم ما يمكن ان يصل اليه
اسطول في ذلك العصر مجهزا بأحدث الالات الحربية والادوات
النارية . فأثار هذا الاسطول حماسة الشاعر ورأى فيه
المخرج من الاخطار والحماية من النوازل ، وهاج فيه اعتزازه
وحميته ، فأنطقه ذلك بقصيدة هي بحق من فرائد
الشعر العربي :

لك البر والبحر العظيم عبابه

فسيان اغمار تخاض وبيد

وماراع ملك الروم الا اطلعها

تنشر اعلام لها وبنود

عليها غمام مكفهر صبره
 له بارقات جمّة ورعود
 مواخر في طامي العباب كأنه
 لعزمك بأس او لكفك جود
 اتافت بها اعلامها وسمالها
 بناء على غير العراء مشيد
 من الراسيات الشم لولا انتقالها
 فمنها قنّان شمخ وريود
 من الطير الا انهن جوارح
 فليس لها الا النفوس مصيد
 من القادحات النار تضرم للصلى
 فليس لها يوم اللقاء خمود
 اذا زفرت غيظا ترامت بمارج
 كما شب من نار الجحيم وقود
 فأنفاسهن الحاميات صواعق
 وافواههن الزاخرات حديد
 لها شعل فوق الغمار كأنها
 دماء تلتقتها ملاحف سود
 تعانق موج البحر حتى كأنه
 سليط لها فيه الذبال عتيّد

ثم يصف وصول وغود الروم متذلة تطلب الصالح
 مخاطبا المعز مشيرا الى ما كان من تغلغل الروم قبل
 ذلك في بلاد الشام :

فلا غرو ان اعززت دين محمد
 فانت له دون الانام عقيد
 غضبت له ان ثل في الشام عرشه
 وعادك من ذكر العواصم عيـد
 وقلت اناس ذا (الدمستق) شكره
 اذا جاءه بالعفو منك بريد
 تناجيك عنه الكتب وهي ضراعة
 ويأتيك عنه القول وهو سجد
 اذا انكرت فيها التراجم لفظه
 فادمعه بين السطور شهود
 ليالي تقفو الرسل رسل خواضع
 ويأتيك من بعد الوفود وفود

انتصارات

ويمضي الاسطول العربي في اداء رسالته ، وتجوب
 قطعه البحر المتوسط متحدية كل من تحدثه نفسه بالشر ،
 وتعلن سفنه بنفسها عن نفسها ، ثم تلتقي على غير
 موعد بسفن الاعداء فلا تلبث ان تصطمم بها ، ويتهاوى
 الفريقان في نار الوغى ويتجالدون اعنف جلاذ ، تحفز الروم
 ثارات متأصلة واوتار دغينة . . وتحفز العرب اخطار منتظرة
 وشرور مرتقبة ويتطلع العرب بقلوبهم الى الوطن العربي
 العزيز ويتخيلون ماذا سيحل بتلك الارض الطيبة ، اذا هم
 ترحزحوا عن موقفهم او تزلزلوا في حربهم فيندفعون مكبرين
 وينطلقون مهالين فتجلي المعركة عن نصرهم البحري

الحاسم في معركة المجاز . ويكون الشاعر معهم بكل شعوره وكل جوارحه ، متلهفا لمعرفة الخبر الاخير ولما يبلغ اذنيه نبأ الفوز ينطلق مزهوا متغنيا بالبطولات :

يوم عريض بالفخار طويل
لا تنقضي غرر له وحجـول
مسحت ثغور الشام ادمعها به
ولقد تبل التراب وهي همول
قل للدمستق مورد الجمع الذي
ما اصدرته له قنا ونصول
سل رهط (منويل) وانت غررته
في اي معركة ثوى منوين
منع الجنود من القفول رواجعا
تبا له بالمنديات قفول
وبعثت بالاسطول يحمل عدة
فأتابنا بالعدة الاسطول
ادى الينا ما جمعت موفرا
ثم انثنى باليم وهو جفون
ومضى يخف على الجنائب حمـله
ولقد يرى بالجيش وهو ثقيل
لم يتركوا فيها بجعجاج الردى
الا النجيع على النجيع يسيل
نحرت بها العرب الاعاجم انها
رمح أمق ولهزم مصقول

ثم يفئني الى مدبر ذلك كله وقائد النصر ومعد
الاسطول ومهيء الجيش ، الى المعز :
لا تعدمك امة اغنيها

بهديتها تجلو العمى وتبيل
وتتكرر معارك الاسطول العربي وتتكرر انتصاراته
فيحرص الشاعر على الاشادة بالاسطول :
وسفن اذا ما خاضت اليم زاخرا
جلت عن بياض الصبح وهي غرابيب
تشب لها حمراء قان اوارها
سبوح لها ذيل على الماء مسحوب

وتلتقي جيوش الروم واساطيلهم بجيوش الفاطميين
البرية واساطيلهم اكثر من مرة وتقع المعارك البرية والبحرية
في اوقات متقاربة وينتصر الفاطميون وتحمى بانتصاراتهم
ديار الاسلام والعروبة فيقول ابن هانسي مشيرا الى ان الروم
كانوا قبل اليوم سادة البحر المتوسط ، تجول فيه اساطيلهم
وتصول بلا رقيب ولا منافس ، والى ان جيوشهم البرية كانت
كذلك :

لو كان لاروم علم بالذي لقيت
ما هئنت ام بطريق بمولود
القي « الديمستق » بالاعلام حين رأى
ما انزل الله من نصر وتأيد
فقل له حال من دون الخليج قنا
سمر واذرع ابطال مناويد
ثم يخاطب المعز :

ذموا قنك وقد ثارت اسنتها
 فما تركن وريدا غير مورود
 حميته البر والبحر الفضاء معا
 فما يمر باب غير مسدود
 قد كانت الروم محذورا كتائبها
 تدني البلاد على شحط وتبعيد
 وشاغبوا اليم ألفي حجة كملا
 وهم فوارس قارياته السود
 فاليوم قد طمست فيه مسالكهم
 من كل لاحب نهج الفلك مقصود
 هيهات راعهم في كل معترك
 ملك الملوك وصنديد الصناديد

من الاندلس الى افريقية

ابن هاني اشبيلي المولد اندلسي النشأة فقد ولد
 سنة ٣٢٠ أو ٣٢٦ في قرية سكون من قرى مدينة اشبيلية
 وكان صديقا لوالي اشبيلية مقربا اليه . وكان الحكام في
 الاندلس لا يحبون الدولة الجديدة التي اخذت تشب ويقوى
 ساعدها في افريقيا فأخذوا يعملون على زعزعتها . ولم
 يتورعوا عن التحالف مع الاجنبي للقضاء عليها(١) .
 وكان هوى ابن هاني مع الفاطميين وقلبه متجها

١ - يقول الدكتور حسن ابراهيم حسن عن كتاب الجبالس
 والمسائرات المخطوط : (... فاوضح اعتماد حاكم الاندلس عبد الرحمن
 الناصر الاموي على الروم في صراعه مع الفاطميين ...)

اليهم ، وكان كغيره يرى في شباب دولتهم ما يمكن ان يعيد الشباب الى الوطن العربي . ويبدو انه كان لا يتورع عن الجهر بأرائه والدعوة اليها ، مما لم يكن يخفى على الحاكمين ، فدبروا له تهمة الاخذ بالفلسفة ، وهي تهمة كانت هناك في ذلك الوقت كافية لاستحلال الدماء . ويبدو ان صديقه الوالي الاشبيلي قد أحس بما يدبر للشاعر في الخفاء فنصح بترك اشبيلية فأخذ الشاعر بالنصيحة واتجه الى العدو الافريقية حيث اتصل في المسيلة بجعفر بن علي بن حمدون المعروف بابن الاندلسية والي المسيلة (٢) فلم يجد جعفر هدية يقدمها لخليفته اثن من هذا الشاعر ، فاوفده اليه . وكان المعز في امس الحاجة لمثل ابن هاني ليكون لسانه الناطق في تطور دولته

٢ - المسيلة :قاعدة المغرب الاوسط ، او ما كان يسمى ببلاد الزاب يطلق عليه الان اسم (الجزائر) . وهذه المدينة هي احدى المدن التي انشأتها الدولة الفاطمية في اول قيامها ، اختطها ولي عهد هذه الدولة محمد بن عبيد الله المهدي . وكان ابوه قد وجهه الى اقليم الزاب ليعقبه سطلانه ويقمع بعض الفتن الناشبة فيه حتى اذا فرغ من شأنه وتم له ما اراد ، اختط هذه المدينة لتكون قاعدة هذا الاقليم بدلا من مدينة طنبة ، وعهد الي علي بن حمدون (والد جعفر) الاندلسي بينائها ، ثم اطلق عليها اسم (الحمديّة) نسبة الى ولي العهد ، الى جانب اسم المسيلة ، ذلك الاسم الذي يرجع - فيما نحسب - الى اصل قديم . ولم تلبث هذه المدينة ان نمت وازدهرت وخاصة في عهد اميرها جعفر بن علي بن حمدون ، وقد آلت اليه امارتها بعد ابيه الذي تولى - كما مر - بناؤها ، وكان معتزا بها فجعلها مناط هبته ووجه اليها طموحه كله حتى استطاع ان يجعل منها مركزا من اول المراكز الادبية في المغرب العربي نهضيا بالادب وتشجيعا للادباء ورعاية لهم واستنارة لواهبهم . وفيها برزت شاعرية ابن هاني .

وتقدمها ، وليكون وسيلته الاعلامية ، واذاعته القوية ، فاحتفى به وقربه اليه وظل ابن هانئ يسجل انتصارات المعز ويعدد وقائعه الى ان خطا المعز خطوته الحاسمة فارسل قائده جوهر لضم مصر الى خلافته ودخل جوهر الاسكندرية متقدما الى العاصمة فأذاع ابن هانئ النبا بهذا الشكل :

يقول بنو العباس هل فتحت مصر ؟
فقل لبني العباس قد قضى الامر
وقد جاوز الاسكندرية جوهر
تسرب به البشرى ويقدمه النصر

نهاية الشاعر

ويتهياً المعز للذهاب الى مصر وانشاء عاصمته الجديدة (القاهرة) ثم يمضي اليها على ان يلحظه شاعره ليكون هناك كما كان هنا المذيع البليغ . وكان حكام الاندلس متابعين لخطر الشاعر عالين بما فعله شعره للدولة المتقدمة وما يمكن ان يفعله بعد ان تطورت من حال الى حال . ورأوا في قلبه خطرا لا يقل مضاء عن السيف فقرروا حرمان الدولة الحديثة منه فأرسلوا اليه من اغتاله وهو في الطريق الى مصر عند برقة سنة ٣٦٢ وهكذا انتهى هذا الشاعر الفريد نهاية اليمه غير متجاوز مراحل الشباب . ولا شك انه لو قدر له الوصول الى مصر لترك في احداثها وحياتها وطبيعتها الشيء الكثير الثمين .

حمزة بن عبد المطلب

عم النبي ورضيعه

حمزة بن عبد المطلب من الأبطال الذين اعترز الإسلام بهم ، ولو قدرت له الحياة المديدة لكان له من الشأن ما يبلغ به أرفع منزلة في الكفاح الإسلامي الطويل ، ولكن شاء الله أن يقضي في مطالع الدعوة الإسلامية بعد أن أبلى في نصرتها ما لم يبيل مثله إنسان آخر .

رضيع النبي

وقد كان قريبا من النبي حبيبا إليه ، كما كان هو متفانيا في الإخلاص لمحمد (ص) تفانيا قل مثيله . وقد نشأ هو والنبي معا في سنن واحدة أو متقاربة واختلف في تحديد الفارق في السن بينهما ، فقيل أنه أسن من النبي (ص) بستين وقيل بأربع سنين وقيل إنهما في سن واحدة . على أن الثابت أن ثوية مولاة أبي لهب أرضعتها بلبن ابنها مسروح ، فكانا أخوين من الرضاعة . واستدل بعضهم بذلك على تساويهما في السن ، ولكن آخرين ردوا على هذا بأن هذه الأخوة الرضاعية لا تؤدي حتما إلى هذا الاستنتاج . فقال أحدهم أنه يمكن أن يكون أخاه من الرضاعة بلبن مسروح بن ثوية ويكون مع ذلك

اكبر منه . ولكن حتى الذين قالوا بذلك اختلفوا في تحديد الفارق ، اهو اربع سنين ، ام سنتان . فقال الاخرون لا يصح ان يكون الفارق اربع سنين اذ ما دام ثابتا ان الرضاعة كانت بلبن مسروح فلا بد ان يكون الفارق سنتين ، لانه لا رضاع الا في حولين (١) . ولكن المخالفين لذلك ردوا بانه يمكن ان يكون ارضاعها حمزة في اخر سنته في اول ارضاعها لابنها . وارضاعها للنبي (ص) في اول سنته في آخر ارضاعها ابنها فيكون اكبر من النبي باربعة سنين (٢) .

وكان بينه وبين النبي (ص) قربة اخرى ، فأم حمزة هي هالة بنت ابيب بن عبد مناف بن زهرة . وام النبي (ص) هي امية بن وهب بن عبد مناف فهما ابنتا عم .

اخوته

وكان حمزة واحدا من ثلاثة عشر ولدا لعبد المطلب . على ان بعضهم يقول انهم كانوا عشرة ، وبعض قال احد عشر . وايا كان عددهم ، فقد ادرك الاسلام منهم اربعة شذ واحد منهم عن الطريق السوي فلم يسلم ، بل قاوم الاسلام ما وسعته المقاومة ، ذاك هو ابو لهب . واستقام ثلاثة على الطريق فاسلموا ، وهم : ابو طالب والحمزة والعباس . وكان لكل واحد منهم مواقف في الدفاع عن النبي ونصرته ، فحماه ابو طالب الحماية المنيعة ولم ينل النبي اذى

١ - ابن عبد البر في الاستيعاب .

٢ - اعيان الشيعة .

الا بعد موته ، وناضل دونه الحمزة اي نضال ، وعضده العباس في بيعة العقبة وكان عينه في مكة .

أسلامه

كان اسلام حمزة في السنة الثانية من البعث (١) وقيل بل كان ذلك بعد دخول النبي (ص) دار الارقم في السنة السادسة . وكان اسلامه فتحا عظيما اذ قوي به المسلمون وتباشروا بذلك اي تباشروا لما كان يتمتع به حمزة من بسالة وحمية واقدام ورأي واخلاص . ومما وصف به انه كان « اعز فتى في قريش واشد شكيمة » .

اما السبب المباشر في اسلامه فذلك ان ابا جهل مر بالنبي (ص) عند الصفا فاذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف لامره ، فلم يكلمه النبي (ص) . ثم انصرف ابو جهل الى ناد من قريش عند الكعبة فجلس معهم . وكانت مولاة لعبد الله بن جدعان في مسكن لها تسمع وترى ما فعل ابو جهل ، فلم تطق صبورا ، ولم تستطع ان تقف في وجه ابي جهل . فلم يلبث حمزة ان اقبل من قنص له متوشحا قوسه . وكان من عادته اذا عاد من القنص ان يقصد الكعبة فيطوف بها ، وكان اذا فعل ذلك لم يمر على ناد من اندية قريش الا وقف وسلم وتحدث معهم . فلما مر بالمولاة — وكان النبي قد رجع الى بيته — قالت المولاة : يا ابا عمارة لو رأيت ما لقي ابن اخيك محمد

انفا من ابي الحكم بن هشام . وجده ها هنا جالسا فاذاه
 وسبه وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد .
 فغضب حمزة ومضى مسرعا يسعى دون ان يقف
 على احد ، حتى اذا لقي ابا جهل اقبل نحوه حتى اذا
 قام على رأسه رفع القوس فضربه فشججه شجة منكراة ، ثم
 قال : اتشتمه ؟ فأنا على دينه ، اقول ما يقول ، فرد ذلك
 علي ان استطعت .

فقامت رجال من بني مخزوم الى حمزة لينصروا ابا جهل
 فقال ابو جهل : دعوا ابا عمارة فاني والله قد سببت
 ابن اخيه سبا قبيحا .

هكذا اعلن حمزة اسلامه ، ويقول ابن اسحاق : فلما
 اسلم حمزة عرفت قريش ان رسول الله (ص) قد عز وامتنع
 وان حمزة سيمنعها فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه) .

شعره عند اسلامه

ان لحمزة بعض الشعر في بعض الاحداث . ومما رواه
 صاحب الدرجات الرفيعة ان حمزة قال حين اسلم من
 ابيات :

حمدت الله حين هدى فؤادي
 الى الاسلام والدين الحنيف
 اذا تليت رسائله علينا
 تحدر دمع ذي اللب الحنيف
 فلا والله نسلمه لقوم
 ولما نقض منهم بالسيوف

اول قائد

ومنذ الساعة التي اسلم فيها حمزة وقف نفسه على خدمة الاسلام والدفاع عن كيانه بكل قوته واصبح حصنا حصينا للمسلمين يلونون به عند الشدائد . وحين اذن النبي (ص) بالهجرة هاجر حمزة فيمن هاجر من المسلمين ، ولما استقر المقام بمحمد (ص) في المدينة وبدأ النظام الاسلامي يتكامل وتتجمع قواه كان من الطبيعي ان تكون لحمزة المكانة الرفيعة فلم تمض بضعة اشهر على النزول في يثرب حتى اصبح حمزة القائد الاول في الاسلام ، فقد عقد له النبي لواء ابيض واسلم اليه امر سرية من المسلمين ليتقدم بهم الى « سيف » البحر على طريق القوافل القرشية فكان هذا اللواء اول لواء عقد في الاسلام وهذه السرية اول سرية وهذا القائد اول قائد .

في بدر

وفي بدر حين برز عتبة بن ربيعة وابنه الوليد واخوه شيبة ودعوا الى البراز ، خرج اليهم ثلاثة غتيان من الانصار هم معاذ ومعوذ وعوف بنو الحارث ، فرفض القرشيون مبارزتهم وقالوا ارجعوا فما لنا بكم من حاجة ، ثم نادى مناديتهم : يا محمد اخرج الينا اكفائنا من قومنا . فقال النبي (ص) لعبيدة بن الحارث بن المطلب وحمزة بن عبد المطلب وعلي بن ابي طالب : قوموا فقاتلوا بحقكم اذ

جاعوا بباطلهم ، فمشى هؤلاء الثلاثة الى العدو متمثلة بهم عظمة الاسلام ونخوته وبسالته ، فلما صاروا ازاء القرشيين قال عتبة: تكلموا نعرفكم ، فان كنتم اكفائنا قاتلناكم . فقال حمزة : انا حمزة بن عبد المطلب اسدالله واسد رسوله . فقال عتبة كفؤ كريم ، وانا اسد الاحلاف ، ومن هذان معك ؟ قال : علي بن ابي طالب وعبيدة بن الحارث بن المطلب . قال: كفؤان كريمان .

اللحظة التاريخية الحاسمة

كانت هذه اللحظة من اللحظات الحاسمة في تاريخ الاسلام ، فيها هي قريش عدوة الاسلام بعدتها وعديدها ، وها هو الاسلام بما تجمع لديه من قوة . ها هما يقفان لأول مرة وجها لوجه . وهاهم اكفاء ثلاثة في قريش الجبارة يتقدمون الصفوف متحددين الدعوة الاسلامية وقوتها العسكرية . . فما هو المصير ؟ انتصر قريش فتفتت في عضد المسلمين وتزلزل معنوياتهم فلا يقوون على الصمود ؟ ام ينتصر المؤمنون فيوهنون عزائم قريش ويكسرون جبروتها فتولى الدبر ؟

سنة رجال في صفتين مختلفين ، عليهم يتوقف مجرى التاريخ ، وتطلع الكون كله الى تلك اللحظة الرائعة ، فاما ضربات ثلاث من ها هنا من هذا الصف المؤمن تحط على هذه الرؤوس الشامخة فتحيلها هباء تعلقو بعده كلمة الحق وينتشر نور الهدى . واما ضربات ثلاث من الصف الاخرتحيل الفجر المشرق الى ليل دامس .

اول نصر في الاسلام

واسرع علي فاردي الوليد وهما اصغر القوم سننا
 ولعلي خمص وعشرون سنة . والتقى سيف عبيدة سيف
 شيبة وهما اسن القوم ولعبيدة سبعون سنة ، فهوى
 السيفان كل على هدفه ، فاصاب سيف عبيدة رأس شيبة
 ففلق هامته ، واصاب سيف شيبة ساق عبيدة فقطعها وسقطا
 جميعا . وغالب حمزة عتبة وهما اوسط القوم ، ولحمزة
 سبع وخمسون سنة ، فصمد عتبة وجالد طويلا ثم سقط .
 ثم حمل حمزة وعلي عبيدة فوضعا بين يدي النبي
 (ص) فقال عبيدة : لو كان ابو طالب حيا لعلم اني اقررت
 عينه حين قال :

كذبتم وبيت الله نخلي محمدا

ولما نطاعن دونه ونفاضل

وننصره حتى نصرع حوله

ونذهل عن ابنائنا والحلائل

ثم حمل عبيدة فمات في طريق العودة الى المدينة .

في احد

يصف ابن الاثير خروج النبي الى احد وصفا
 يرينا ان امر الجيش الاسلامي كان الى حمزة وانسه كان
 قائده الفعلي باشراف النبي (ص) ، فقد قال ابن الاثير :
 ان رسول الله (ص) لما خرج الى احد خرج حمزة
 بالجيش بين يديه .

وكانت نار الثأر تغلي في صدر هند بنت عتبة زوجة ابي سفيان فاستعظمت مقتل ابيها وعمها واخيها بايدي الهاشميين مضافا الى قتل ولدها حنظلة خلال المعركة بيد علي بن ابي طالب ، فدبرت مع (وحشي) ان يقتل اما محمدا او حمزة او عليا ، وجعلت له على ذلك جعلاً ، ويبدو ان اكثر من موتور واحد قد ساهموا في اغراء وحشي بقتل واحد من هؤلاء الثلاثة .

فاجاب وحشي : اما محمد فقد علمت اني لا اقدر عليه لان اصحابه لن يسلموه ، واما حمزة فوالله لو وجدته نائماً ما ايقظته من هيبته ، واما علي فألتمسه . قال وحشي : « فكنت يوم احد التمسه . فبينما انا في طلبه طلع علي رجل حذر كثير الالتفات ، فقلت ما هذا بصاحبني الذي التمس ، اذ رأيت حمزة يفرى الناس فرياً ، فكمننت له الى صخرة . ثم اقبل علي مكبا حين رأني ، فلما بلغ المسيل ، وطىء على جرف فزلت قدمه . فهزرت حربتي حتى رضيت منها فاضرب بها في خاصرته حتى خرجت من مثنائه . وكر عليه طائفة من اصحابه فاسمعهم يقولون : ابا عماره ، فلا يجيب ، فقلت قد والله مات الرجل ، وذكرت هذا وما لقيت على ابيها واخيها . . وانكشف عنه اصحابه حين ايقنوا بموته ولا يروني » .

واقبل وحشي على هند يخبرها بما فعل فنزعمت ثيابها وحليها فاعطتها وحشياً ، ثم قالت له ارني مصرعه ، فاراها مصرعه فجذعت انفه وقطعت اذنيه ثم جعلت ذلك مسكتين ومعضدين وخدمتين حتى قدمت بذلك مكة ،

وكانت قد اخذت قطعة من كبد حمزة فمضغتها فلم تستطع ان تسيغها فأعطتها .

رثاء النبي لحمزة

ووجد حمزة بعد المعركة ببطن الوادي قد بقر بطنه عن كبده ومثل به ، فحين رآه النبي (النبي) بكى بكاء شديدا وقال : لمن اصاب بمثلك ، ما وقفت موقفا قط اغيظ علي من هذا الموقف . وكان من رثائه له قوله : يا عم رسول الله واسد الله واسد رسوله ، يا حمزة يا فاعل الخيرات يا كاشف الكربات ، يا حمزة يا ذاب يا مانع عن وجه رسول الله .

في المدينة

ولما رجع النبي (ص) والمسلمون الى المدينة مر بدار من دور الانصار فسمع البكاء والنوائح على القتلى ، فتذكر النبي انه هو وحمزة وبني هاشم غرياء الدار ، وان الهاشميات بعيادات المنازل هناك في مكة ، قد حيل بينهن وبين رجالهن ، وان قريشا العاتية قد مزقت شمل هذه الاسرة الكريمة ، وان حمزة النازح الغريب لا اهل له هنا في هذا البلد الطيب .

فعاد النبي (ص) انسانا بكل ما في الانسان من رقة وحنان وعاطفة ، وثار شجونه كأكرم ما تثار شجون الرجل النائي عن دياره المفجوع باحبائه ، فذرفت عيناه بالبكاء ، وقال مضمنا كلمته كل ما يمكن ان تتضمنه الكلمات من معاني الحزن المشوب بالتحسر على

امة تقاتل رجلا جاء يدعوها الى فلاحها وعزتها ، ثم
تفجعه باحب الناس اليه واكرمهم عليه . قال : (اما حمزة
غلا بواكي نه) .

وفهم بعض السامعين الكلمة على معناها القريب ،
ولم يدركوا ما كان يرمي اليه النبي (ص) من هذا القول ،
وحسبوا ان محمدا (ص) يحب فعلا ان يسمع نوح النائحات
على عمه الحبيب ، فرجع سعد بن معاذ الى دار بني
عبد الاشهل ، فأمر نساءهم ان يذهبن فيمكن على حمزة في داره .
فلما علم النبي (ص) بذلك امر بردهن ، مقدر العاطفة
التي حملتهن وحملت رجالهن على ان فعلن ذلك ،
فقال : رضي الله عنكن وعن اولادكن .

فاطمة تبكي عمها

واذا كانت الهاشميات بمجموعهن بعيادات عن هذا
الماتم النبوي العظيم ، فقد كانت هناك هاشمية واحدة قامت
مقامهن وبكت عنهن ما اسعفا الدمع ، تلك هي فاطمة
بنت محمد التي قدر لها ان تحمل وخطها منذ طفولتها عبء
مشاركة ابيها همومه وآسائه ، وان تكون في الشدائد الى
جانبه مواسية مقاسمة حتى لقبها النبي (ص) ام ابيها .

ولما بلغها ما حدث خرجت تستقبل اباها وماء عينيها
الدمع بكاء على عمها العظيم . وروى ابن سعد في
الطبقات انها كانت بعد ذلك تأتي قبر حمزة فترمه
وتصلحه .

مرثيته

كانت فاجعة الاسلام بحمزة مبعث شعر كثير
ساهمت فيه شقيقته صفية بنت عبد المطلب فقالت ترثيه
من قصيدة :

وقال الخبيران : حمزة قد ثوى

وزير رسول الله خير وزير

فيا ليت ثلوي عند ذاك واعظمي

لدى أضبع تعتادني ونسور

اقول وقد اعلى النعي عشرتي

جزى الله خيرا من أخ ونصير

فوالله ما انسك ما هبت الصبا

بكاء وحننا محضري ومسيري

على أسد الله الذي كان مدرها

يذود عن الاسلام كل كفور

وقال عبد الله بن رواحة من قصيدة مشيرا

الى شماتة هند :

أبا يعلى لك الاركان هدت

وأنت الماجد البر الوصول

عليك سلام ربك في جنان

مخالطها نعيم لا يزول

الا يا هلشم الاخيار صبورا

فكل فعالكم حسن جميل

الا من مبلغ عني لؤيا

فبعد اليوم دائلة تدول

نسيتم ضربنا بقليب بدر
 غداة اتاكم الموت العجيل
 وعتبة وابنه خرا جميعا
 وشيبة عضه السيف الحويل
 وهام بنبي ربيعة سائلوها
 ففسي اسيافنا منها فلول
 الا يا هند لا تبدي شماتا
 بحمزة ان عزكم ذليل

ورثاه حسان بن ثابت باكثر من قصيدة قال في واحدة
 منها :

قرم تمكن من ذؤابة هاشم
 حيث النبوة والندى والسؤدد
 العاقر الكوم الجلال اذا غدت
 ريح يكاد الماء فيها يجمد
 والتارك القرن الكمي مجدلا
 يوم الكريهة والقنا يتقصد
 وتراه يرغل في الحديد كأنه
 في لبدة ثثن البرائن اريد
 عم النبي محمد وصفيه
 ورد الحمام فطاب ذاك المورد
 ولقد اخال بذاك هندا بشرت
 لتميت داخل غصة لا تبرد

معركة شعريّة

توبل استشهد حمزة بين القرشيين بسرور يعادل
ما استقبل به من حزن بين المسلمين ، واكبر السرور
كان عند هند بنت عتبة ، فكان ان علت فوق صخرة مثرفة
عندما بلغها قتله وصرخت باعلى صوتها : (١)

نحن جزيناكم بيوم بدر
والحرب بعد الحرب ذات سعر
ما كان عن عتبة لي من صبر
ولا اخي وعمه وبكري
شفيت نفسي وقضية نذري
شفيت (وحشي) غليل صدري
فشكر (وحشي) علي عمري
حتى ترم اعظمي في قبري
فأثار هذا الشعر شاعرة مسلمة هي هند بنت اثالة
فردت عليها قائلة :

خزيت في بدر وغير بدر
يا بنت غدار عظيم الكفر
افحمك الله غداة الفخر
بالباشميين الطوال الزهر
بكل قطاع حسام يفري
حمزة ليثى وعلي صقري

اذ رام « شيب » وابوك تهري
فخضبا منه ضواحي النحر

شعر حمزة

لم تشغل الاحداث حمزة عن نظم الشعر ،
بل يبدو ان الاحداث نفسها كانت هي التي تهزه الى نظم
الشعر فقد رأينا ما نظمه عند اسلامه ، وهو اعظم حدث
في حياته . ولما تتابعت الاحداث تتابع شعره فيها ، فمن
ذلك ما نظمه عندما عقد له النبي (ص) اللواء الاول في
الاسلام وبعثه الى سيف البحر ، فقد التقى هناك بابي
جهل فقال من قصيدة :

الإيا لقومي للتحلم والجهل
وللنقض من رأى الرجال وللعقل
وللمعجلينا بالمظالم لم نطأ
لهم حرمت من سوام ولا اهل
كأنا نبلناهم ولا نبل عندنا
لهم غير امر بالعفاف وبالعدل
فما برحوا حتى انتدبت لفارة
لهم حيث حلوا ابتغي راحة الفضل
بأمر رسول الله اول خافق
عليه لواء لم يكن لاح من قبلي
عشية ساروا حاشدين وكلنا
مراجله من غيظ اصحابه تغلي

فقلنا لهم حبل الاله نصرنا
وما لكم الا الضلالة من حبل
فثار « ابو جهل » هناك باغيا
فخاب ورد الله كيد ابي جهل
فرد عليه ابو جهل بقصيدة جاء فيها :
عجبت لاسباب الحفيظة والجهل
وللشاغبينا بالخلاف وبالبطل
اتوننا بأفك كي يضلوا عقولنا
وليس مضلا افكهم عقل ذي عقل
فان تبقني الايام ارجع عليهم
بييض رقاق الحد محدثة الصقل

وقد ابقت الايام ابا جهل كما تمنى ولقيهم بالبييض
الرقاق في بدر ، ولكن البييض الرقاق لم تغن عنه شيئا ،
ذلك ان بيضهم الرقاق قضت عليه .

جعفر بن أبي طالب

الرواد المسلمون الاوائل الذين اقبلوا على الاسلام في ضعفه ، موطنين نفوسهم على البلاء والمحنة ، فكابدوا الشدائد والاهوال ، وتحملوا التشريد والترويع ، ثم وقفوا نفوسهم على حمايته ونشره ، ولم يطمعوا بمغرم ولا فازوا بسطان ، بل كان نصيبهم الاستشهاد ، او الكفاح من جديد لحماية الاسلام من بعض المسلمين .. هؤلاء الرواد الاوائل جديرون بالعباية والدرس ، ليكونوا القدوة والمثل ، لتظل سيرهم امام العيون وملء القلوب ، تلهم الناس الايمان والصبر والتجرد والتضحية ، ومغالبة الظلم ومصارعة الباطل .

ومن اوائل هؤلاء الرواد ، الشهيد جعفر بن ابي طالب . .

ابوه وامه واخوته

كان لابي طالب ستة اولاد : اربعة ذكور وابنتان . والذكور اكبرهم طالب واصغرهم علي ، وبينهما عقيل وجعفر ، وكان كل واحد من هؤلاء يكبر اخاه بعشر سنين ، والبنتان هما جمانة وام هاني ، امهم جميعا فاطمة بنت اسد . وكانت هذه السيدة للنبي (ص) بمنزلة الام ، حين

كفل زوجها ابو طالب ابن اخيه محمدا بعد وفاة جده عبد
المطلب ، فاحتضنت محمدا (ص) وعينت به عنايتها باولادها .
وقد حفظ النبي (ص) لها هذا الجميل فكان يجلبها اجلال
الولد لامه ، ولما ماتت كفنها في قميصه وصلى عليها ونزل
في قبرها ، ثم خرج وعيناه تذرغان ، وحثا في قبرها . فقيل له :
« رأيتك يا رسول الله فعلت على هذه المرأة شيئا لم تفعله
على احد » . فقال : « ان هذه المرأة كانت بمنزلة امي
التي ولدتني » (١) وكانت قد اسلمت وهاجرت الى
المدينة وفيها توفيت .

وطالب الولد الاكبر لابي طالب كان ممن اكرهتهم قريش
من الهاشميين على الخروج الى بدر ، هو وعمه العباس
وغيرهما . وبعد بدر اختفى خبره فلم يعلم مصيره . ويبدو
ان قريشا لما قتل زعماءها الثلاثة : عتبة وشيبة والوليد
بايدي الهاشميين ، حاولت الفتك بمن اخرجتهم معها من
الهاشميين فاغتالت طالبا . فلما احس العباس وغيره بما
يجري لجأوا الى صفوف المسلمين ، فاعتبرهم المسلمون
اسرى واعتبرهم النبي (ص) كذلك ، واجبرهم على دفع
الفداء .

اسلام جعفر

اسلم جعفر بعد اسلام اخيه علي بقليل ، بيوم او

نحوه ، وذلك ان ابا طالب ، وكان معه ولده جعفر ، رأى النبي (ص) وعليه يعلين ، وعليه قائم على يمين النبي (ص) فقال لابنه جعفر : « صل جناح ابن عمك وصلّ على يساره » (٢) فكانت هذه الجماعة اول جماعة اقيمت في الاسلام (٣) .

ومنذ اسلم جعفر حمل عبء الدعوة مع غيره من الابطال ولما اشدت الازى بالمسلمين ورأى النبي ان يهاجروا من ديارهم ، اختار جعفر لقيادة قافلة المهاجرين ، وكانوا خمسة وسبعين رجلا واثنى عشر امرأة ، وذلك في السنة الرابعة او الخامسة من النبوة ، وقد خرج جعفر ومعه امرأته اسماء بنت عميس ، فولدت له هناك اولاده عبدالله وعونا ومحمدا (٤) . وكانت هذه الهجرة في حياة ابي طالب ، فنظم ابو طالب ابياتا من الشعر ارسلها الى النجاشي قال فيها :

ليعلم خيار الناس ان محمدا

نظير لموسى والمسيح بن مريم

وانك ما تأتيك منا عصابة

بفضلك الا ارجعوا بالتكريم (٥)

٢ - اسد الغابة .

٣ - امالي محمد بن بابويه .

٤ - طبقات ابن سعد .

٥ - الحاكم في المستدرک .

المنافرة امام النجاشي

ورأت قريش في هذه الهجرة حماية للمسلمين فعملت على استرداد المهاجرين ، وارسلت لذلك وفدا مؤلفا من عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد بن المغيرة (اخي خالد بن الوليد) ليفاوضا النجاشي في تسليم جعفر وجماعته . فجرت في مجلس النجاشي منافرة طريفة بين زعيمي الفريقين اللذين جمع بينهما النجاشي ليسمع من كل منهما ما يقول قبل ان يقرر امرا بشأنهما . وفيما يروي ابن عساكر كما يقول ابن كثير ، ان وفد قريش كان يتكلم باسم زعيمها ابي سفيان ، وان ابا سفيان ارسل مع الوفد هدية للنجاشي وبطارقته .

وسأل النجاشي عمرا عما يقول ، فاجاب عمرو : انه قد صار اليك ناس من سفلتنا وسفهاننا ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينك ، وجاعوا بدين ابتدعوه ، فادفعهم الينا ..

ويبدو النجاشي في هذا الموقف دقيقا وحكيما ، ويظهر وكأنه حاكم من حكام هذا العصر يدقق في طلب تسليم لاجيء من اللاجئين . فهو لم يرفض رأسا ، ولم يوافق رأسا . بل درس الطلب ثم استجوب زعيم المطلوبين ، ثم اصدر قراره برد طلب التسليم . فكان بذلك سباقا لمن وضعوا في عهدنا الحديثة اصول تسليم اللاجئين بين بلديين مختلفين . بل يمكن ان نقول انه اول من ميز بين المجرم العادي الذي يجوز تسليمه ، وببسن المجرم السياسي — كما نقول في اصطلاحنا اليوم — الذي لا يجوز تسليمه ،

كما سنرى بعد قليل .

شرح مبادئ الاسلام

وقد كان عمرو بن العاص بارعا حين اثار امام النجاشي وبطارقته امر اعتناق دين جديد . وادرك جعفر ما رمى اليه عمرو ، فركز جوابه على تفصيل امر الدين الجديد وما يدعو اليه من خير وما ينهى عنه من شر ، فقال ما خلاصته : ايها الملك ، كنا قوما اهل جاهلية ، نعبد الاصنام ونأتي الفواحش ويأكل القوي منا الضعيف ، حتى بعث الله الينا رسولا منا نعرف صدقه وامانته وعفاهه ، دعانا الى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والاوثنان ، وامرنا بالمعروف ونهانا عن المنكر ، وامرنا بصدق الحديث واداء الامانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور واكل مال اليتيم وتذف المحصنة وكل ما يعرف من السيئات . وامرنا ان نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئا ، وامرنا بالصلاة والزكاة والصيام والصدقة وكل ما يعرف من الاخلاق الحسنة . فصدقناه وآمنا به واتبعناه . فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا الى عبادة الاوثان ، وان نستحل ما كنا نستحل من الخبائث . فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا الى بلادك .

وكان هذا الدفاع الذي القاه جعفر عرضا موجزا لاهم مبادئ الاسلام . وقبل ذلك سأل النجاشي عمرا :

اهؤلاء عبيد اكم ؟ فقال عمرو : لا ، فقال النجاشي : فلكم عليهم دين ؟ قال عمرو : لا .

اذن فاللاجئون ليسوا مجرمين عاديين : فلا هم عبيد أبقون ولا هم مدينون فارون بحقوق الناس ، بل هم (لاجئون سياسيون) ذور مبادئ معينة اوضحها قائدهم ، وهي مبادئ لا يستطيع اي منصف ان يجعلها سببا في تسليم اصحابها لمن يناقضونها بوثنتهم . واذا كانت دينا جديدا فليس فيه ما يؤخذ على اصحابه .

وهكذا صدر قرار النجاشي برد طلب الاسترداد . فبرهن بذلك على انه على اعلى مستويات الانسانية .

دعوة جديد

ولم يكن عمرو بن العاص ممن يهزمون بسهولة ، فتفتق ذهنه عن داهية رأى انها خير ما يرمي به جعفر واصحابه . فعاد يقول للنجاشي : « ان لهؤلاء رأيا في عيسى يخالف ما انت عليه » ، فدعاهم النجاشي من جديد ، فكان وقع هذه الدعوة اليما في نفوسهم ، اذ حسبوا انه قد بدا للنجاشي ما غير رأيه فيهم . وكان جعفر حين تلقى الدعوة الاولى قد عقد مؤتمرا من اصحابه ذاکرهم فيه : ما يجب ان يكون عليه جوابهم للنجاشي . وبعد المداولة اقرروا كلهم رأي جعفر حين قال لهم : « يجب ان نقول ما علمنا وما أمرنا به نبينا كائنا في ذلك ما هو كائن . . » اذلك رأينا حين دخل على النجاشي يسلم عليه تسليما بسيطا ويأبى السجود بين يديه على عادة

جميع الداخلين عليه ، مع انه كان من المحتمل ان يثيره هذا التصرف ويغضبه ويسيء لمصلحتهم . ولكن جعفر ابنى ان يتصرف الا على اساس اسلامي بحت ، وان لا يتنازل قييد شعرة عن مبادئه التي لا تجيز السجود لغير الله . ولم يمض هذا التصرف بلا مناقشة ، فقد تساعل النجاشي عن تصرفهم الذي خالفوا فيه قواعد الدخول على الملوك . فقال جعفر ما مفهومه ان نبينا حدد لنا قواعد السلام بين الناس دون تمييز بينهم وامرنا بذلك فحييناك بالذي يحيي به بعضنا بعضا . . . وكذلك رأيناه ايضا في جوابه الاول غير مجمم ولا موارد ، كما كان حين اجاب عن رأي نبيهم في عيسى : هو عبدالله ورسوله وروحه وكلمته القاها الى مريم البتول العذراء . . .

فلم يجد النجاشي في هذا الرأي ما يمكن ان يؤاخذ به اللاجئون ، فانهم اذا كانوا لا يرون رأي النجاشي في عيسى فانهم لا يقلون عنه احتراماً له ولا مه ، لذلك ايد قراره الاول بقرار جديد ، ورفض تسليم اللاجئين .

مكة العاصمة

ويظهر مما قاله ابن اسحاق فيما حكاه ابن هشام في سيرته ، ان الامر في مكة كان يدل على ان سلطتين تتنازعان امر مكة ، وان اللاجئين كانوا يمثلون سلطة ، وعمرو بن العاص كان يمثل اخرى ، وان الطلب لم يكن فرديا او شخصيا . فعمر بن العاص حمل معه هدايا للنجاشي وبطارقته وقدمها باسم ابي سفيان

ممثّل السلطة الفعلية . ورأيضا ان ابا طالب ارسل للنجاشي شعرا يشرح له وجهة نظر الفريق الاخر في طلب الحماسية للاجئين .

وهنا ايضا عندما علم ابو طالب بما كان من امر ارسال الوفد الى النجاشي عاد فارسل اليه شعرا جديدا ضمنه الحنين الى ولده جعفر ، ثم الثناء على النجاشي والاعتماد عليه في حفظ حق اللاجئين في « لجوئهم السياسي » . . ولعل في كل هذا ما يدلنا على طبيعة العلاقات بين مكة وغيرها من العواصم قبل الاسلام وخلال الدعوة الاسلامية ، وعلى ان مكة كان معترفا بها كعاصمة تفاوض وتطالب ، وان قريشا كان مسلما لها بالسلطة في مكة ، وان وفدها كان وفدا (رسميا) معترفا به .

كما قد يدلنا الشعر الذي ارسله ابو طالب مرتين على انه كان للغة العربية ولشعرها وادبها جذور خارج الجزيرة العربية ، والا فلماذا استعمل ابو طالب الشعر ، وكذلك فان ابن اسحق وغيره يرون ان النجاشي طلب من جعفر ان يقرأ له شيئا مما جاء به النبي (ص) فقرأ له صدرا من (كهيعص) وان النجاشي ومن في مجلسه تأثروا بما سمعوا من القرآن .

محاولة انقلاب على النجاشي

ويروي ابن اسحاق عن بعض المسلمين اللاجئين ان محاولة انقلاب جرت بعد هذه الاحداث كانت تستهدف

النجاشي نفسه ، ولا يحدثنا الراوي عن اسباب هذه المحاولة وعمما تذرع به الانقلابيون ، بل يكتفي بان يصف شعور اللاجئين حين سمعوا بالاخبار ، فيقول بهذا النص وهو يتحدث عن حسن صنيع النجاشي : « فوالله انا لعلى ذلك اذ نزل به - اي النجاشي . رجل من الحبشة ينازعه في ملكه فوالله ما حزنا قط حزنا كان اشد من حزن حزناه عند ذلك تخوفا من ان يظهر ذلك الرجل على النجاشي » .

وبالرغم من ان هذا الراوي لا يتحدث عن التفاصيل والاسباب ، فان من غير البعيد ان يكون المنازع للنجاشي قد استغل حماية النجاشي لاصحاب الدين الجديد وجعلها من عوامل ثورته وتحريض الناس عليه . لذلك حزن اللاجئين اولا ثم فرحوا ثانيا . ويدل على ذلك ان بعض اعوان النجاشي ممن حضر مجلس المناظرة لم يكونوا راضين عن الرعاية التي ظفر بها اللاجئين من النجاشي .

الرجوع من الحبشة

ثم مضت الحياة سلبية على جعفر واصحابه وكانوا يتنسمون اخبار الحجاز ، فعملوا بهجرة النبي (ص) وصحبه الى المدينة ، ثم تتابعت انباء الانتصارات الاسلامية فمضت ايام بدر واحد وبني النضير والخندق وبني قريضة واستقر امر الاسلام واصبح قوة تحمي نفسها واصحابها ثم جاء يوم خيبر ، فاذا بجعفر واصحابه يصلون المدينة يوم

النصر ، فيقول النبي : « لا ادري بايهما انا اشد فرحا :
بفتح خيبر ، ام بقدم جعفر » .

قتل رسول النبي

الخطة التي ارادها النبي (ص) لنشر الاسلام لم تكن خطة الفتح والغزو على عكس ما يعتقد الناس وما جرى عليه الحال بعد النبي (ص) . بل كانت الخطة ارسال الرسل والدعاة مزودين بالاسلام بكل ما في مبادئه من حرية وعدالة اجتماعية واخوة ومحبة . وقد رأينا نجاح هذه الخطة في البحرين واليمن مثلا . وفي يقيني انه لو امتدت الحياة بالنبي (ص) لما سلك غير هذا السبيل ولما لجأ الى القتال الا اذا الجيء اليه كما حدث حين ارسل في السنة الثامنة للهجرة رسوله الحارث ابن عمير الازدي داعية الى بلاد الشام فقتله شرحبيل بن عمرو الغساني احد حكام العرب العاملين تحت سلطة الروم في بلاد الشام . ومن الطبيعي ان لا يسكت النبي لقتل رسوله المسالم .

غزوة مؤتة

لذلك اعد جيشا عدته ثلاثة الاف، لتأديب المجرمين ، ووجهه الى البلقاء حيث كان قد وقع الاعتداء ، وجعل للجيش ثلاثة قواد يتناوبون القيادة في حال استشهاد احدهم ، هم جعفر ابن ابي طالب ، وزيد بن حارثة ، وعبد الله بن رواحة . فاجتمع لحربهم جيش مكون من مائتي الف نصفهم

بن العرب ونصفهم من الروم ، فابوا ان يرتدوا وفي ذلك يقول
عبدالله بن رواحة :

فرحنا ز الجياد مسومات
تنفس في مناخرها السموم
نقامت ليلتين على (معان)
فاعقب بعد فرقتها جـوم
فلا وابي مآب لنائينها
ولو كانت بها عرب وروم
بذي لجب كأن البيض فيه
إذا برزت قوائسها النجوم

والتقت القوتان غير المتكافئتين واستشهد القواد
الثلاثة . وعرف عن جعفر انه اخذ الراية بيمينه فقطعت
يمينه فأخذ الراية بيساره فقطعت يساره ، وحاول ان يضم
الراية الى صدره بساعديه المبتورين حتى قتل . واجمع
المؤرخون على انه وجد في جسده عشرات الجروح ما بين
ضربة بالسيف وطعنة بالرمح . وانتهت الحرب بانسحاب
المسلمين .

صدي الاستشهاد

وبلغ النبي الخبر فمضى الى منزل جعفر
وسأل زوجته أسماء : اين بنو جعفر ، فجاءته بهم — وهم
اطفال — فضمهم وقبلهم ثم ذرفت عيناه فبكى ، فقالت أسماء :

يا رسول الله لعله بلغك عن جعفر شيء . قال : نعم انه
قتل . ثم قال على مثل جعفر فلتبك البواكي .

مراثيه

قال كعب بن مالك الانصاري يرثيه من قصيدة :
صبروا بمؤتة للاله نفوسهم
عند الحمام حفيظة ان ينكلوا
ساروا امام المسلمين كأنهم
طود يقودهم الهزبر المشبل
اذ يهتدون بجعفر ولوائه
قدام اولهم ونعم الاول
حتى تقوضت الصفوف وجعفر

حيث التقى جمع الغواة مجدل .
وقال حسان بن ثابت من قصيدة :
غداة غدوا بالمؤمنين يقودهم
الى الموت ميمون النقيبة ازهر
اغر كضوء البدر من آل هاشم
ابي اذا سيم الظلما اصعر
فطاعن حتى مال غير موسد
بمعترك فييه القنما متكسر .

الزنج في معركة الاسلام

كرم محمد بن عبد الله (ص) الانسانية كلها فألقى الاضطهاد العنصري الغاء عمليا حين اختار لاقدس مهمة زنجيا اسود اللون ، وجعل منه مؤذنه الذي ينادي المؤمنين للصلوات في اوقاتها الخمس .

هذا الاسود هو بلال الحبشي الذي كان عبدا من عبيد قريش فلم تكذب تبغفه الدعوة الاسلامية حتى كان اول الملبين لها ، وتعلم به قريش ، ويعلم به سيده (امية بن خلف) فينصحونه بالعدول عن الطريق الذي مشى فيه فلا يقبل النصيحة ويستمر مسلما مخلصا فيأخذون في تغذية العذاب الاليم ، ولكنه لا يزداد الا ايمانا ، ثم يفر بنفسه الى المدينة مع من هاجر اليها ، وهناك صار مؤذن الرسول . ولقد كانت في صوته لكمة فلا يستطيع ان يلفظ الشين لفظا صحيحا ، بل تخرج من فمه وكأنها سين ، فيقول الرسول (ص) ان سينه عند الله شين . .

وعلى صوت بلال الحبشي كان يهرع شيوخ المسلمين وشبانهم الى المسجد ملبين نداء الله يبعثه هذا الانسان الاسود اللون . ولم يكن تكريم لعنصر بلال اعظم من هذا التكريم الذي خصه به رسول الله ، ولذلك فانه لما مات النبي انقطع الى اهل البيت مخلصا لهم ، وفيما لذكرى ابيهم الرسول .

بين الجحود والوفاء

وتدور الايام ويلقى اهل البيت محنا وارزاء ، ويميز الاوغياء ملتفين حول الاسرة النبوية عازمين على الموت دونها اخلاصا لمحمد ورسالته . ويقف الحسين في كربلاء في اقل من مائة من الرجال كانوا يمثلون في تلك الساعة انبل ما في الكون من سجايا ، وهل في الكون انبل من ان يبذل الانساء دمه طواعية وفاء لرجل وثباتا على مبدأ واخلاصا لعقيدة .

وتبارى الرجال في التضحية ومضوا يسقطون واحدا بعد الاخر . وكان في الركب الحسيني رجل بسيط ، لا يحسب اذا حسبت البطولات ، ولا يذكر اذا ذكرت التضحيات ، لا يؤبه لرأيه ولا يعد لمهمة من مهمات الامور . كان يؤمر فيلبي الامر ، ويستخدم فيخدم مسرعا ، كان اقصى ما يعرفه الرفاق عنه انه خادم امين وتابع مخلص . وما فوق ذلك فليس مما يرد اسمه على البال .

كان رقيقا من اولئك الارقاء السود الذين امتلأت بهم قصور العتاة وبيوت الطفافة ، وكانت اية حشرة تلتقى عناية اكثر مما يلقاه اي واحد منهم . وكان نصيبه ان وصل الى يد ابي ذر الغفاري صاحب محمد المخلص ، وسمع ابو ذر النبي (ص) يوصي بالارقاء خيرا ويحض الناس على تحريرهم ، ومن اولى من ابي ذر بتنفيذ وصايا النبي فاعتق ابو ذر العبد (جون) وارسله حرا .

واصابته المحنة ابا ذر وطورد واضطهد ومات منقيا في الربذة ، وظل جون فقيرا معدما ، فلتقاه اهل البيت بالحنان

والعطف ، فقد كانت فيه ذكريات من صاحب جدهم رأوها .
بنيرة بالوفاء فاحتضنوه والحقوه بشؤونهم يقوم على رعاية
بيتهم والعناية باطفالهم وقضاء حاجات رجالهم .

جون في كربلاء

ومشى الحسين الى كربلاء ، وهذه حال جون ،
لا شأن له اكثر من هذا الشأن ، ولا من يفكر بان يكون لجون
دور فوق هذا الدور . وكان في حسابان الجميع انه
سيغتم اول فرصة للسلامة فينجو بنفسه وينشد الخدمة
من جديد في بيت جديد .

ولكن جون بقي في ركب الحسين لم يفارقه مع
المفارقين ، وثبت مع الرجال المائة الذين ثبتوا حتى
وصلوا الى كربلاء وظن الناس ان (جون) سينتظر
الساعة الحاسمة ، ثم ينطلق بعدها في طريق النجاة ، ولكن
الايام مضت وجون في مكانه لم يبرحه ، وجاء اليوم
التاسع من المحرم وجون قائم على خدمة الحسين ، فما هو
يصلح له سيفه والحسين يردد تلك الابيات الشهيرة التي
لم تستطع معها اخته زينب الا ان تذرف دموعها .

اما جون فلم يذكر احد انه انفعل او تأثر او بكى ،
اتراه لم يفهم ما كانت تعنيه تلك الابيات ؟ اتراه صلب العاطفة
متحجر القلب الى حد لا يهزه صوت الحسين ينعى نفسه ؟
اتراه في تلك الساعة في شاغل عن كل شيء الا عن نفسه
يفكر كيف يدبر وسيلة الخلاص عصر اليوم او صباح الغد ؟

معالم الوفاء

الحقيقة كانت فوق كل تصور . . ثم بيث جون ولم ينفعل ولم يتأثر ، لان ما كان فيه كان فوق البكاء والانفعال والتأثر . كان جون وهو يصلح سيف الحسين ، والحسين ينشد ابياته ، كان جون يستعرض في ذهنه كل ذلك الماضي الحافل ، كان يتذكر النبي محمدا (ص) وهو يرفع الانسان الاسود الى اعلى مراتب الكرامة حين عهد الى واحد منهم بوظيفة مؤذنه الخاص وكان يتذكر تلك الالوف من السود التي انطلقت حرة تنفيذا لوصايا محمد . كان كل ذلك يجول في ذهن (جون) مولى ابي ذر الغفاري .

مع سيف الحسين

وها هو سيف الحسين الان في يده لآخر مرة يصلحه له ليقف به الحسين غدا على اعلى قمة في التاريخ فيهب الدنيا كلها لتشهد كيف تكون حماية الهدى والحق والخير ، وكيف تكون البطولات التي لا تبغى الا الاستشهاد نودا عما تؤمن به وتعنتقه ، وكيف يرفض الاباة الحياة اذا لم تكن كما يريدون حياة الحرية والسعادة للامة ، وحياة الكرامة والحق لهم .

غدا سيلمع هذا السيف الحديدي في كف الحسين ثم ينثلم الى الابد ، ولكن سيف الحق الذي جرده الحسين سيلمع الى الابد دون ان ينثلم ، وغدا سيعلو صوت الحسين بنداء الحرية ثم يصمت الى الابد ، ولكن صوت الحرية الذي انطلق من فم الحسين سيظل مدويا الى الابد .

سكون جون

كان جون يلجأ الى صمت رهيب ، وظل صامتا حتى دنا الليل ، واصفى بكل جوارحه الى الحوار البطولي الخارق الذي جرى بين الحسين وانصاره ، وهو يحرضهم على تركه وحده والانطلاق في سواد الليل ، وهم يردون عليه واحدا بعد واحد رافضين لاول مرة في حياتهم اوامره ، ويصرون على ان يلقوا نفس المصير الذي سيلاقيه هو .

كان جون في تلك الساعة يجلس في زاوية دون ان يأبه له احد ، وكان يود من كل قلبه لو كان لصوت الزنوج صوت يبين هذه الاصوات ، ولكنه فضل الصمت المطبق .

جون البطل

وفي الصباح عندما تبارى الابطال المائة متسابقين الى الموت ، ومشى كل منهم يستأذن الحسين ويودعه ماضيا الى مصيره ، تقدم (جون) ، وهو في كل خطوة من خطواته لا ينفك مصغيا الى صوت زميله بلال الحبشي متعاليا فوق كل اصوات البيض تكريما من محمد واعزازا . وربما خطر له في تلك اللحظات منظر بلال وهو واقف على اشرف مكان واقدس بقعة ، على ظهر الكعبة حين امره محمد ساعة فتح مكة ان يصعد فينادي بالاذان . الاسود الذي كان عبدا ذليلا قبل رسالة محمد يصعد على الكعبة ، وهو في نظر الناس اعز انسان . دنت ساعة الوفاء ل محمد ، دنت الساعة التي يرد

فيها هذا الزنجي (جون) بعض الجميل لمحمد ، وهـل اعظم في الوفاء لمحمد من ان يموت ذودا عن ابنائه ونسائه وتعاليمه ، وتقدم جون من الحسين وقد انقلب بطلا مغوارا ، وقد تجمعت فيه كل فضائل بني جنسه ، تقدم يستأذن الحسين في ان يكون كغيره من رفاق الحسين .

الكريم الحسب

والتفت الحسين اليه وقد اخذته الرقة له والحنان عليه ، ولم يشأ ان يورطه فيما لا شأن له به ، فقال له : انت انما تبعتنا للعافية فلا تبتل بطريقتنا .

ولكن جون البطل اجاب الحسين : انا في الرخاء على قصاعكم وفي الشدة اخذلكم؟! ثم اردف هذا الجواب بكلمات لم يقصد بها الحسين ، بل اراد ان يوجهها للاجيال الماضية والاجيال الحاضرة والاجيال الآتية ، تلك الاجيال التي لم تر للزنوج الكرامة التي لهم ، فقال : ان ريحي لنتن ، وان حسبي للئيم ، وان لوني لاسود ، افتنفس علي بالجنة فيطيب ريحي ويشرف حسبي ويبيض وجهي ؟ لا والله لا افارقكم حتى يختلط هذا الدم الاسود بدمائكم .

لقد كان جون يعلم انه اكرم على الحسين من الوفاء البيض ، وان الحسين اكرم من ان يراه لئيم الحسب نتن الريح . لم يكن جون في الواقع يخاطب الحسين سبط محمد مكرم الزنوج ، بل كان يقف على ذروة من ذروات التاريخ ليقول للدعياء المفاخرين بالوانهم واطيابهم ، اليكم

هذا الذي ترونه في نظركم لئيم الحسب نتن الريح ، اليكم به اليوم يطاولكم شرفا وحمية وشجاعة ووفاء فلا تصلون الى اخص قدميه . منكم يزيد الابيض اللون ، المتحدر من عبد مناف ، المضح بالاطياب ، ومنكم عبید الله بن زياد ومنكم شمر ابن ذي الجوشن وحجاز بن ابجر وقيس ابن الاشعث وعمرو بن الحجاج ، منكم قبل هؤلاء وبعد هؤلاء كثيرون ، وكلهم يشع بياضا ويعبق طيبا ، وكلهم يجروا وراءه حلقات آباء واجداد .

اولئك غدروا بمحمد الذي اخرجهم من الظلمات ، فداسوا تعاليمه وحشدوا الحشود على بنيه ، اولئك يتهيئون الان ليرفعوا رؤوس ابناء محمد على رماحهم . وهذا الزنجي وفي لمحمد الذي حرره واكرم جنسه ، فتقدم ليزودكم عن بنيه وبناته وتعاليمه ، وهو يتهاى الان ليسفك دمه دون ذلك ، فأيكم اللئيم الحسب ، النتن الريح ، الاسود الوجه ؟ انتم أم هو ؟

جون يحقق امله

وحقق الحسين رجاء جون فأذن له ، ومشى (جون) مزهوا ببطولته معتزا بوفائه يود لو ان عيني بلال الحبشي تراه في خطواته هذه ، وان زوج الدنيا يطلون عليه ليروا كيف مثلهم في موكب البطولات وتكلم باسمهم على منبر التضحيات ، وكيف شرفهم ساعة لا شرف الا للنفوس العظيمة .

لقد ضارب جون الحر اولئك العبيد باعمالهم ، السود

بقلوبهم ، وكان له ما اراد . فامتزج دمه الاسود مع اشرف
دم : مع دم الحسين سبط محمد ومع دماء اهل بيته .
ووفى الزوج لمحمد الذي رفع من شأنهم واعلى
امرهم ، وتحقق ما اراده جون . فلم ينفس عليه الحسين
بالجنة ، ولم يبخل عليه بان يثبت بانه كريم الحسب طيب
الريح .

زين العابدين علي بن الحسين

للحسين بن علي ولدان كل منهما يسمى عليا :
 هما علي الاكبر وعلي الاصغر . والمشهور ان شهيد
 كربلاء هو علي الاكبر . ولكن هذه الشهرة موضع مناقشة
 فقد قيل ان الاكبر هو علي زين العابدين ، ويبدو ان هذا القول
 هو الصواب ، لان من الثابت ان الامام محمد الباقر ابن الامام
 زين العابدين ادرك جده الحسين وانه عاش معه ثلاث
 سنين او اربع سنين . في حين لم يرد ان شهيد كربلاء
 كان عند استشهاده متزوجا . ومن غير المتعارف ان يتزوج
 الولد الاصغر قبل الاكبر .

ولكن الشهرة طاغية ، فما من احد يذكر الشهيد
 في الخطابة او الكتابة الا ويقرن اسمه بلفظ (الاكبر) .
 وقد علل الشيخ المفيد في كتابه (الارشاد) هذه الشهرة
 بانه كان للحسين ولد ثالث هو اصغر الاخوة الثلاثة وان
 الشهيد هو الاوسط ولكنه اكبر بالنسبة الى الاصغر .

مولده ووفاته

ولد في المدينة ، وفي يوم ولادته وشهرها وسنتها بعض
 الاختلاف ، فمن قائل انه ولد لتسع او خمس او سبع
 خلون من شعبان . ومن قائل انه ولد في منتصف جمادى الآخرة .

وكذلك قيل انه ولد سنة ٣٨ او ٣٧ او ٣٦ من الهجرة .
وتوفي في المدينة في المحرم سنة ٩٤ او ٩٥ .

نشأته

عاش مع جده علي بن ابي طالب سنتين او اكثر ،
ومع عمه الحسن اثنتي عشرة سنة او عشر سنين ومع
ابيه الحسين ٢٣ او ٢٤ سنة ، وعاش بعد ابيه الحسين
٣٤ او ٣٣ او ٣٥ سنة .

في كربلاء

لم يسلم احد من اهل البيت في كربلاء فقتل حتى الاطفال،
فان الحسين حين طلب من اخته زينب ان تريحه طفله
الصغير عبدالله ليودعه ، واخذه في يديه واوماً اليه ليقبله
رماه حرمة بن كاهل الاسدي بسهم فوقع في نحره فذبحه .
وكذلك لما رأى عبدالله بن الحسن وحدة عمه الحسين
لم يستطع - وهو غلام لم يراهق - ان يصبر فانسل من
خيمة النساء وانطلق الى عمه فلحقته زينب بنت علي
لترده . فقال لها الحسين : احبسيه . فامتنع الغلام
امتناعاً شديداً وجاء يشتد الى عمه الحسين حتى
وقف الى جنبه وقال : لا انفارق عمي .

كان هذا المشهد الانساني الرائع تتدفق احداثه متتابعة
بكل ما فيها من رهبة وعاطفة وجلال : زينب تحاول رد
الغلام ، والحسين يحاول اقناعه بالرجوع ، زينب بكل
ما فيها من رقة نسوية انسانية وبكل ما اشتملت عليه

جوانحها من حنان القريبى تجر الطفل الى الخيمة ،
والحسين بكل ما احتواه قلبه الكبير من اشفاق ورحمة
يبعد الغلام عنه ، والغلام بكل ما غذي به في بيت النبوة
من سمو ورجولة وشمم ، وبكل ما ورثه عن علي وفاطمة
من بر ووفاء ونخوة وشجاعة يتملص منهما ويرد عليهما
سارخا : لا افارق عمي . ثم يقف الى جنب عمه يحاول لو
يستطيع حمل سيف او نقل رمح يدافع بهما عن هذا
العم العظيم . ولكنه لا يملك الا قلبه العطوف وجسمه
الغضر فيتقدم ليشارك بهما عمه الحسين بمصيره .

هذا المشهد الانساني الرائع لم يكن له في قلب ابجر بن
كعب من اثر الا اثاره همجيته واستفزاز وحشيته فاهوى
بسيفه الى الحسين فصاح الغلام ويلك انتقتل عمي ؟
فازدادت وحشية ابجر وتعاضمت همجيته فترك الحسين
واندفع بالسيف الى الغلام سبط محمد بن عبد الله (ص)،
فاتقى الغلام السيف بيده فأطنها السيف الى الجلد فاذا
هي معلقة فنادى الغلام : يا عماه ، فاخذه الحسين اليه
فرماه حرملة بن كاهل بسهم اجهز عليه وهو في حجر عمه .
هكذا كان مصير كل من شهد كربلاء من اهل البيت
لم يشفع بأحد منهم سنن ولا ضعف .

ولكن زين العابدين سلم ، لانه كان مريضا لا يستطيع
وقوفا ولا يطيق حركة ولا يتحمل خطوة ، ومع ذلك فان الذين
قتلوا اباه واعمامه واخوته كادوا يقتلونه ، ولكن حميد بن
مسلم ظل يقنعهم ويداورهم حتى انصرفوا عنه وتركوه
لما به ، وهكذا سلم علي بن الحسين زين العابدين
فكان منه وحده نسل الحسين ..

بعد كربلاء

على انه تعرض بعد كربلاء لموقف كاد فيه ان يقتل ،
 وذلك انه بعد ان سيق نساء البيت النبوي مع زين العابدين
 الى عبيد الله بن زياد الى الكوفة ، وادخل الجميع
 عليه ، تعجب ابن زياد ان يرى بين من ادخلن شابا
 سليما . فقال له من انت ؟ قال : انا علي بن الحسين
 فقال ابن زياد : اليس قد قتل الله علي بن الحسين ؟
 فقال له علي : قد كان لي اخ يسمى عليا قتله الناس .
 فقال ابن زياد : بل الله قد قتله . فقال علي : الله يتوفى
 الانفس حين موتها .

فغضب ابن زياد وقال : ويك جراحة لجوابي وفيك
 بقية للرد علي ، اذهبوا به فاضربوا عنقه .
 فتعلقت به عمته زينب . وقالت يا ابن زياد حسبك
 من دمائنا ، واعتنقته وقالت والله لا افارقه فان قتله فاقتلني
 معه .

وقال له علي : اباقتل تهددني يا ابن زياد ؟ اما علمت
 ان القتل لنا عادة وكرامتنا الشهادة ؟

في دمشق

ساق ابن زياد نساء البيت النبوي ورؤوس رجاله
 الى دمشق ، وساق معهم زين العابدين ، فاعرض علي
 عمن رافقوهم من الرجال فلم يكلم احدا منهم بكلمة حتى
 بلغوا دمشق .

وفي دمشق اصر زين العابدين على يزيد بن يعاد

اليهم ما سلب منهم . وكان عجيبا منه ان يهتم بما سلب منهم بعد الاذى الذي جرى عليهم . ولكن زين العابدين قال : اني اطالب بما اخذ منا لان فيه مغزل فاطمة بنت محمد . ومقتنعها ، وقلادتها ، ومقيصها .

الاسلام والرق

الذين يأخذون على الاسلام انه لم يلغ الرق الغاء كاملا يتجاهلون ان الحياة الاقتصادية كانت تقوم في تلك العصور على الرق ، وانه لا يكفي ان يعلن الاسلام الغاء الرق وتحريمه ، بل لا بد في ذلك من التدرج تدرجا لا تضرب منه الاوضاع الاقتصادية اضطرابا يخربها . والاسلام في كل احكامه كان عمليا واقعيا ، لذلك عمل اول ما عمل على الغاء المنابع الاساسية للرق بحيث يتقلص تقلصا طبيعيا مع الزمن . ثم حض على تحرير العبيد واعلن ان ذلك اكبر مكسب للمثوبات الكبرى ، واعظم ما يتقرب به الانسان الى خالقه . ولست الان بسبيل التوسع في هذا الموضوع . ولكن كان لا بد من هذه الاشارة لنرى كيف طبق الرجال الذين تمسكوا بالاسس الاسلامية تعاليم الاسلام وكيف مشوا في تحرير العبيد الخطوات السليمة .

محرر العبيد

ومن اولى من الامام زين العابدين بالاخذ بحقيقة الاسلام وجوهره اخذا كاملا ، وقد عمل بهذا النهج في كل شؤون حياته لا سيما بشأن الرق بحيث يحق لنا ان نطلق

عليه لقب محرر العبيد .

ففي الوقت الذي كانت تمتلئ فيه قصور الحكام بالارقاء نساء ورجالا وكانت الدولة تسيء تطبيق تعاليم الاسلام ، كان علي بن الحسين يقود حملة تحرير الرقيق ويجعل من نفسه في ذلك قدوة للشعب . وكانت خطته كما يلي :

اولا : كان عندما يصل الارقاء الى يده يعاملهم معاملة الانداد ، فاذا اخطأوا لم يعاقبهم ، بل يسجل اخطاءهم في دفتر عنده وينتظر حتى يأتي عيد الفطر فيجمعهم ويعرض عليهم اخطاءهم ملاطفا لهم فيعترفوا بتلك الاخطاء فيقول لهم : عفوت عنكم فهل عفوتم عني ما كان مني اليكم؟ فيقولون : قد عفونا عنك وما اسأت ، فيقول : قولوا اللهم اعف عن علي بن الحسين كما عفا . ثم يحررهم ويعطيهم بعض المال ليبدؤوا حياتهم الجديدة .

ثانيا : لم يكن يبقى عنده عبدا سنة كاملة ، بل كان يشتريهم في الشهور التي تسبق رمضان ليسرع في تحريرهم وقت العيد .

ثالثا : وكذلك كان يفعل في عيد الاضحى ، فهو يشتري العبيد وليس له حاجة بهم ، فاذا جاء وقت الحج خرج بهم الى عرفات ، فاذا انتهى الحج حررهم وزودهم بالمال . ولم يكن ينقص عدد المحررين في كل عيد عن العشرين انسانا .

والذي يزيد في تقديرنا لهذا العمل العظيم هو ان علي بن الحسين لم يكن ذا ثروة تساعد على التوسع في هذه الخطة ، بل كانت موارد رزقه محدودة ، فكان ينفق كل ما

يصل الى يديه في هذا السبيل وفي مساعدة ذوي الحاجات
كما سنذكر .

مساعدته للفقراء

كان يخرج في الليل حاملا معه ما استطاع جمعه من
المال ، وربما حمل الطعام او الحطب ايضا حتى يأتي
ابواب الفقراء ، فيقرعها بابا بابا ، ثم يناول من يخرج
اليه ، ويكون مغطيا وجهه لئلا يعرفه احد . فلما توفي
انقطع عن الفقراء ما كان يأتيهم فعرفوا انه هو الفاعل .

انسانيته

كان هشام بن اسماعيل (١) امير المدينة يسيء الى
علي بن الحسين ويؤذيه اذى شديدا ، فلما عزل امر به الوليد
ان يوقف للناس . . فقال هشام ما اخاف الا من علي بن
الحسين فكان الناس يهرون به فيشتمون . فمر به زين
العابدين وسلم عليه وامر خاصته ان لا يعرض له احد .

ولما طرد اهل المدينة بنى امية قبل وقعة الحرة ، اراد
مروان بن الحكم ان يستودع اهله ، فلم يقبل احد ان
يكونوا عنده ، الا علي بن الحسين ، فوضعهم مع عياله

١ - هو هشام بن اسماعيل بن هشام الخزومي . وهو الذي ضرب
سميد بن المسيب حين دعاه الى البيعة للوليد عبد الملك لما
عقد له ابوه بالخلافة فلبى سميد ، وقال أنتظر ما يصنع الناس ، فضربه
وطاف به وحبسه . وهكذا انطبق عليه القول المأثور (من اعان ظالما سلطه
الله عليه) .

واحسن اليهم مع عداوة مروان المعروفة له ولبيته . وعال في وقعة الحرة اربعمائة امرأة من بني عبد مناف الى ان تفرق جيش مسلم بن عقبة .

وكان يقول لمن يشتمه : ان كنت كما قلت فاسأل الله ان يغفر لي ، وان لم اكن كما قلت فاسأل الله ان يغفر لك . وكان لا يسافر الا مع رفقة لا يعرفونه ويشترط عليهم ان يكون من خدم الرفقة فيما يحتاجونه ، ويقول اكره ان آخذ برسول الله مالا اعطي مثله .

وكان يأبى ان يؤاكل امه ، فقيل له يا ابن رسول الله انت ابر الناس واوصلهم للرحم فكيف لا تؤاكل امك ؟ فقال انسي اكره ان تسبق يدي الى ما سبقت اليه عينها . وكان يعجبه ان يحضر طعامه اليتامى والاضراء والزمنى والمساكين الذين لا حيلة لهم ، وكان يناولهم بيده . ومن كان منهم له عيال حمل الى عياله من طعامه .

كانت مجالسه دروسا في شتى المعارف الاسلامية

وقد اتخذ من المسجد ومن بيته مكانا يلتف فيه حوله طلاب العلم الوافدون من كل مكان ، وكانت مجالسه دروسا في شتى المعارف الاسلامية ، فمنذ سنة ٦١ هـ الى سنة ٩٥ ، اي طيلة خمس وثلاثين سنة كان منزله وكان المسجد مدرستين يزدحم فيهما الطلاب عليه ، فبينما كانت الدولة مشغولة باستردادها واستنزاف دماء الشعب وسلب امواله واضطهاد احراره ، كان علي بن الحسين مشغولا بنشر العلم وبث الثقافة وانارة الافكار وتهذيب

الأخلاق . فكثير نلاميذه والاخذون عنه في انواع العلم . واصبح
ريك التلاميذ وتلاميذهم صفوفاً بناء الحضارة الاسلامية
ونخبة رجال الفكر الاسلامي والتشريع والادب .

ولقد اخذ عنه علماء الحجاز ومن يأتي من البلاد
البعيدة والقريبة في مواسم الحج ودونوا ما اخذوه عنه
ورواه عنهم الناس .

فمن روى عنه او روى عن روى عنه : الزهري ،
وسفيان بن عيينة ، ونافع ، والاوزاعي ، ومقاتل ،
والواقدي ، ومحمد بن اسحاق ، والطبري ، وابن البيع ،
واحمد بن حنبل ، وابن بطة ، وابو داود ، وصاحب
الحلية ، وصاحب الاغانى ، وصاحب قوت القلوب ،
وصاحب شرف المصطفى ، وصاحب اسباب النزول ، وصاحب
الفائق ، وصاحب الترغيب والترهيب وغيرهم .

ومن رجاله من الصحابة جابر بن عبدالله الانصاري ،
وعامر بن وائلة الكنانى . .

ومن التابعين سعيد بن المسيب ، وابو
محمد سعيد بن جبير ، ومحمد بن جبير بن مطعم ،
وابو خالد الكابلي ، والقاسم بن عوف ، واسماعيل
ابن عبدالله بن جعفر ، وابراهيم والحسن ابنا محمد
بن الحنفية ، وحبيب بن ابي ثابت ، وابو يحيى
الاسدي ، وابو حازم الاعرج ، وسلمة بن دينار . ومن اصحابه
ابو حمزة الثمالي ، وفرات بن احنف ، وعلي بن رافع ، وابو محمد
القرشي السدي الكوفي ، وجابر بن محمد بن ابي بكر
وايوب بن الحسن ، والضحاك بن مزاحم الخراساني ،

وطاووس بن كيسان ، وحميد بن موسى الكوفي ،
وابان بن تغلب ، والفرزدق الشاعر وغيرهم .

مؤلفاته

من آثاره المدونة والتي تعتبر من اوائل التأليف في
صدر الاسلام :

١ - الصحيفة الكاملة . وقد استنسخ الناس منها قبل
عهد الطباعة نسخا لا تعد ولا تحصى بالخطوط الجميلة
النادرة المثلث والمزينة بجداول الذهب . اما في عصور
الطباعة فقد طبعت طبعات كثيرة .

وشرحها العلماء شروحا عديدة منها شرح بهاء الدين
العاملي المسمى حدائق المقربين . واحسن شروحها
شرح السيد علي خان الشيرازي .

وهذه الصحيفة كانت منها نسخة عند ولده زيد الشهيد
ثم انتقلت الى اولاده والى اولاد عبدالله بن الحسن .
مضافا الى ما كان عند الامام محمد الباقر .

وتعتبر من اعلى درجات البيان العربي بأسلوبها
ومعانيها ، وهي حرية بدراسات واسعة .

٢ - رسالة الحقوق ، وهي من الاعمال الفكرية
السامية في الاسلام تحتوي على توجيهات ودراسات
وتعليمات وقواعد في السلوك العام والخاص من ادق ما
يعرفه الفكر الانساني .

الزعيم الشعبي

ان المزايا التي كان يتمتع بها هذا الامام جعلت منه

زعيمًا شعبيًا محبوبًا إلى أقصى حدود الحب ، مهابة
 إلى أعلى درجات المهابة . والحادثة الاتية وحدها دليل
 على ما كان يكنه له الشعب من حب واحترام وتقدير .
 فقد حج هشام بن عبد الملك ، وهو الرجل الثاني
 في الدولة ، فطاف بالبيت ، وجهد ان يصل إلى الحجر
 الاسود فيستلمه فلم يستطع لشدة الزحام ، فنصب له منبر
 وجلس عليه ينظر إلى الناس ومعه حواشيه واتباعه،
 اذ اقبل علي بن الحسين فطاف بالبيت ، ولم يكـد
 يطل بطلعته على الجماهير المحتشدة حتى تطلعت
 بابصارها إليه ترمقه بنظرات الحب والتقدير والاعجاب
 ثم افرجت له بين صفوفها محدقة به احداق الاجلال
 والاكبار . فقال رجل من حاشية هشام من هذا الذي قد هابه
 الناس هذه الهيئة ؟ فقال هشام متجاهلا : لا اعرفه . وكان
 الشاعر الفرزدق حاضرا ، فاوحى له هذا المشهد وهذا
 التساؤل بقصيدة من احسن شعره قال فيها :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته

والبيت يعرفه والحل والحرم

هذا ابن خير عباد الله كلهم

هذا التقى النقي الطاهر العلم

سهل الخليقة لا تخشى بوادره

يزينه اثنان حسن الخلق والكرم

حمل اثقال اقوام اذا فدحوا

رحب الفناء اريب حين يعتزم

يكاد يمسكه عرفان راحته

ركن الحطيم اذا ما جاء يستلم

وليس قولك من هذا بضائره
العرب تعرف من انكرت والمعجم

وقد جرت هذه القصيدة بلاء على الفرزدق اذ
امر هشام يحبسه في عسفان بين مكة والمدينة .
وارسل اليه زين العابدين بمبلغ من المال فردده
وقال انما قلت ما قلته غضبا لله ورسوله فما
أخذ عليه اجرا . فقال الامام نحن اهل بيت لا
يعود الينا ما اعطينا . فقبله الفرزدق .

جعفر الصادق

قال الحسين بن علي الوشاء وهو يتحدث عن جعفر الصادق : « ادركت في هذا المسجد — يعني مسجد الكوفة — تسعمائة شيخ كل يقول : حدثني جعفر بن محمد » .
ويقول المؤرخ الهندي السيد امير علي : « ولا مشاحة ان انتشار العلم في ذلك الحين قد ساعد على فك الفكر من عقاله فاصبحت المناقشات الفلسفية عامة في كل حاضرة من حواضر العالم الاسلامي ، ولا يفوتنا ان نشير الى ان الذي تزعم تلك الحركة هو حفيد علي بن ابي طالب المسمى (جعفر) والملقب (بالصادق) وهو رجل رحب افق التفكير بعيده اغوار العقل ، ملم كل الامام بعلوم عصره ، ويعتبر في الواقع اول من اسس المدارس الفلسفية المشهورة في الاسلام ، ولم يكن يحضر حلقاته العلمية اولئك الذين اصبحوا مؤسسي المذاهب فحسب ، بل كان يحضرها طلاب الفلسفة والمتفلسفون من الانحاء القاصية » .

هذان قولان لمؤرخين واحد قديم وواحد حديث تقع بينهما اقوال لا تحصى لمؤرخين مروا تباعا من هاتيك العهود البعيدة الى هذا العهد القريب ، وكلها تطبق على ما كان عليه جعفر الصادق من تميز في العلم والفكر والتوجيه السليم والقيادة الحكيمة .

وكي يقول المؤرخ القديم انه ادرك تسعمائة شيخ في مسجد الكوفة يقون الى طلابهم ما القاه اليهم جعفر الصادق من علم ، فان ذلك يعني ان تسعمائة مدرسة كانت تنعقد حلقاتها في المسجد الجامع مشتملة على طلاب من اقطار شتى ، وافدين الى الجامعة الكبرى للتزود بالعلم الغزير والمعرفة الواسعة . ويوم نعلم ان رجلا هو مصدر التثقيف لتسعمائة مدرسة عالية فأنا ندرک ما كان عليه هذا الرجل من الاحاطة والشمول والحكمة .

عصر الامام الصادق

ولد جعفر الصادق في المدينة العام الثمانين او الثالث والثمانين للهجرة وتوفي فيها سنة ١٤٨ وعمره ٦٥ او ٦٨ سنة عاش فيها مع جده الامام علي بن الحسين ١٢ سنة واياما او ١٥ واياما ومع ابيه الامام محمد الباقر بعد جده ١٩ سنة وبعد ابيه ٣٤ سنة .

وهي بقية ملك هشام بن عبد الملك والوليد بن يزيد ويزيد بن الوليد وابراهيم بن الوليد ومروان بن محمد الامويين . والفاح العباسي وتوفي بعد انقضاء عشر سنين من ملك المنصور العباسي .

اسرته

هو ابن محمد الباقر بن علي بن الحسين بن علي ابن ابي طالب و امه فاطمة بنت القاسم بن محمد بن ابي بكر و امها اسماء بنت عبد الرحمان بن ابي بكر . ولذلك كان

يقول الصادق : لقد ولدني ابو بكر مرتين .

ثقافته

لعل اول ما يتبادر الى الذهن عند ذكر الامام الصادق ان ثقافته لا تتجاوز المجال الديني ، ولا تتعدى التفسير والحديث والفقه وما الى ذلك مما لا بد منه لامام في مثل منزلة جعفر الصادق ، يفترض فيه ان يكون عارفا بكل ما له ارتباط باحكام الشريعة ومشاكلها . .

ولكن الامر كان عند الصادق اوسع من هذا ، فقد احاط احاطة كاملة بعلوم شتى تتجاوز الفقه وما اليه وتشتمل على جوانب متعددة من علوم مختلفة كانت في عهده قمة الثقافات العالمية . ثم اخذ في تأسيس المدارس المستندة على هذه العلوم فرأينا بين خريجي معاهده : الفقيه والمحدث والمفسر والفيلسوف والرياضي والكيمائي والطبيب والشاعر والكاتب والمتقف ثقافة عامة .

وهذا ما جعل ابن حجر يقول في كتابه (الصواعق) :
نقل الناس عن جعفر بن محمد من العلوم ما سارت به
الركبان وانتشر صيته في جميع البلدان .

وجعل الدكتور يحيى الهاشمي يقول : ان اسم جابر ابن حيان الكوفي ينزل في تاريخ الكيمياء منزلة ارسطو في تاريخ المنطق ولم يكن لجابر استاذ غير الامام الصادق .
والعالم الغربي هوليارد يقول : ان جابرا هو تلميذ جعفر الصادق وصديقه وقد وجد في امامه الفذ سنداً ومعيناً وموجهاً لا يستغنى عنه وقد سعى جابر لان يحرر

الكيمياء بارشاد استاذة من اساطير الاولين التي علقت بها من الاسكندرية فنجح في هذا السبيل الى حد بعيد .
العوامل التي جعلت للصادق كل هذا الاثر حتى ادت الى ان مذهبها اسلاميا كبيرا ينسب اليه فيقال عنه المذهب الجعفري ، في حين ان جعفر الصادق هو واحد من عدة ائمة لهم من المنزلة مثل ما لجعفر الصادق ولاقوالهم من التقدير نفس ما لاقواله .

العوامل التي ميزته هو فجعلت لاسمه هذا الذبوع واوجبت هذه النسبة اليه هي انه عاش في فترة كان فيها اثر السلطة ضعيفا فهي لا تقوى على الاستمرار في اضطهاد الاراء وتكبير العلماء ، فكان له حرية نسبية ادت به الى الانطلاق العلمي الواسع الذي شهدنا اثره .

فقد عاش كما رأينا في اواخر الدولة الاموية في بقية ملك هشام بن عبد الملك ومن تلاه من الامويين ، وفي هذه الفترة كانت الدولة قد اخذت بالانحلال وكان بعضها قد اخذ يأكل بعضها فانشغلت بنفسها عن غيرها فتنفس الناس بعض التنفس ، واطل بعض النور متسللا من بعض المنافذ ، فشهدنا بروز العديد من العلماء الذين كان الاضطهاد من قبل يأخذ عليهم كل سبيل . فرأينا في التفسير والنسب امثال محمد بن السائب الحلبي والسدي الكبير اسماعيل بن عبد الرحمان وابي حمزة الثمالي . وفي الفقه والحديث امثال الامام ابي حنيفة وتلميذه ابي يوسف والامام مالك بن انس ومحمد بن عبد الرحمان بن ابي ليلى وفي علوم اللغة امثال معاذ بن مسلم الهراء الكوفي واضع علم الصرف،

وفي الفلك نوبخت وبنيه . وهذا يشمل كذلك اوائل الدولة العباسية ايام السفاح واوائل عهد المنصور حيث كانت الدولة متفرغة لتركيز قواعدها وتثبيت امورها . ولها في هذا ما يصرفها عن اضطهاد الفكر والمفكرين ، كما وقع بعد ذلك لابني حنيفة وغيره من الائمة والعلماء .

هذه الحرية النسبية مكنت الصادق من ان ينطلق في ميدان رحب ويعكف على نشر العلم ويدلي براء اهل البيت النبوي في التشريع والتوجيه فكانت مدرسته الكبرى التي خرج منها الاساتيد التسعمائة الذين تولوا انشاء جامعة الكوفة والتدريس فيها ، ثم كانت تلك النهضة العلمية العظيمة التي شملت العالم الاسلامي كله .
يقول الشيخ الازهري الاستاذ ابو زهرة :

« ما اجمع علماء الاسلام على اختلاف طوائفهم في امر ، كما اجمعوا على فضل الامام الصادق وعلمه ، فائمة السنة الذين عاصروه تلقوا عنه واخذوا ، اخذ عنه مالك واخذ عنه طلبة مالك كسفيان بن عيينه وسفيان الثوري وغيرهم كثير ، واخذ عنه ابو حنيفة مع تقاربهما بالسن واعتبره اعلم الناس لانه اعلم الناس باختلاف الناس »

مدرسة الصادق

كانت المدينة هي مقر مدرسة الصادق واتخذ من المسجد النبوي مكانا للتدريس فأقبلت الوفود اليها من كل مكان ، ويذكر الرواة ان عدد المنتمين اليها بلغ الاربعة الآلاف من اهل العراق والحجاز وخراسان والشام وفيهم من كبار

العلماء والفقهاء والمحدثين الذين اصبحوا ائمة ومؤسسين لمذاهب اسلامية ، كما فيهم الشعراء والادباء .

وعكف طلاب الصادق على التأليف وتدوين العلوم ، فالف ابان بن تغلب (معاني القرآن) والف المفضل بن عمر كتاب (التوحيد) والف جابر بن حيان كتابه في الكيمياء . كما انصرف غير هؤلاء الى التأليف امثال زرارة بن اعين وابي بصير ومحمد بن مسلم واسماعيل بن ابي خالد وامثالهم حتى بلغ عدد المؤلفات اربعمائة كتاب لاربعمائة مؤلف من تلاميذ الامام الصادق .

وكان يحض طلابه على التأليف ويحرضهم على التدوين اذ لم يكن التأليف متأصلا في البيئات الاسلامية ، بل لا يكاد يكون معروفا ، وكان نادر الحدوث . فكان من منهج الصادق الحث عليه لتترسخ قواعده ويغدو مبدءا عاما ، فكان يقول مثلا لاصحابه : اكتبوا فانكم لا تحفظون حتى تكتبوا وقال للمفضل بن عمر : اكتب وبت علمك في اخوانك ، فان مت فورث كتبك بنيك . وقال لاصحابه : احتفظوا بكتبكم فانكم سوف تحتاجون اليها . فانكم سوف تحتاجون اليها . وهكذا يمكن القول انه هو واضع اساس في التأليف في الاسهام .

كما كان يعنى بتخريج الكتاب والشعراء فممن اشتهر من الشعراء في عصره وبعضهم كان من مادحيه : السيد الحميري واشجع السلمى والكميت وابنه المستهل واخوه الورد وابو هريره الابار وابو هريرة العجلي وجعفر بن عفان والعبدي وسليمان بن قتة العدوي وسديف وابراهيم بن

هرمة ومنصور النمري .

ويرى بعض الباحثين ان اسباب نجاح مدرسة الامام الصادق هذا النجاح العظيم يعود الى ثلاثة عوامل :

- ١ - شخصية جعفر الصادق .
- ٢ - المحتوى الفكري للمدرسة .
- ٣ - جذور المدرسة الفكرية .

فمن ناحية المحتوى الفكري فان محتواها يمتاز بالتماسك الفكري الوثيق والترابط فيما بين افكارها واتجاهاتها ومثل هذا التماسك يشد اتجاهات المدرسة بعضها الى بعض ويؤدي الالتزام باي جزء منه الى الالتزام بالجزء الاخر فالمدرسة الجعفرية مثلاً فتحت باب الاجتهاد وتركته مفتوحاً ، وقد كان لهذا العامل تأثير كبير على نمو المدرسة بعد عصر الصادق .

اما جذور المدرسة الفكرية فليس الصادق في الحقيقة هو المنشئ الاول للمدرسة ، بل ان الائمة من آباءه هم المؤسسون الاول ، ولكن المدرسة انطلقت في عهده انطلاقها اتواسع .

فمنذ عهد الامام زين العابدين علي بن الحسين كانت المدرسة قد تركزت وامتدت اثارها الى جميع انحاء العالم الاسلامي - كما رأينا في مقال سابق - ثم جاء الامام محمد الباقر بن علي بن الحسين ، فمضت المدرسة في طريقها الصاعد مؤلبة حولها رواد العلم من كل مكان ، بالقدر الذي سمح لها به الجو الارهابي المسيطر ، ولما تولى الزمام جعفر الصادق ، وكانت ظروف الدولة

لا تسمح لها بالتضييق الشديد استطاع الصادق ان يفعل ما
فعل .

المبادئ الكبرى التي اعتمدها الصادق

١ - كل ما فيه خير للمجتمع فهو حلال ، وكل من اضطر
الى شيء فهو له مباح ، فالحائض الذي تضيق به سبل العيش
لا يعاقب على السرقة ، والمدين الذي يعجز عن الوفاء
لا يحبس ولا يحجز له ما لا بد له منه من مسكن ومأكل وملبس .
٢ - لكل بالغ عاقل صفة ذاتية تؤهل للالتزام والالتزام
بما له وما عليه . والشرط الرئيسي لصحة الالتزام والالتزام
ان يكون العمل حقا للملتزم وسائفا في نفسه لا يستدعي
ضرا على من الزم او التزم ولا على غيرهما . فكل
معاهدة تخرج عن اختصاص المتعاهدين او تضربهما او
باحدهما او بغيرهما او تكون مجهولة الحقيقة فهي تضليل
يجب الغاؤها . وكل تجارة او زراعة او صناعة فيها شائبة
الضرر فهي فاسدة . وكل من نذر او اقسم او عاهد الله ان
يفعل ما يصره ، وبغيره فنذره وقسمه وعهده لغو .

٣ - في الفقه : شدد في الطلاق واشترط فيه حضور
شاهدين عدلين ، وان يجري عند مرجع صالح بصيغة
معينة ، وضيق دائرته الى اقصى الحدود بفرضه القيود
الصارمة على المطلق والمطلقة وصيغة الطلاق وشهوده . ولم
يجز وقوع الطلاق ثلاثا بلفظ واحد .

وفي القضايا الاخرى لم يأخذ بالقياس واجاز الوصية
لوارث واعتمد في الارث قاعدة الاقرب فالاقرب فجعل

الاولاد والاباء اولى بالارث من الاخوة والاجداد ، والاخوة اولى من الاعمام والاخوال . فالبننت عنده تحجب عنها كما يحجبه الابن من غير فرق . وكذلك اعتمد نفس القاعدة في النفقات (١) .

{ — الثقة بالانسان ، فقد جاء في اقواله : « بنى الانسان على خصال فمهما بنى عليه فانه لا يبنى على الخيانة والكذب » .

وكل من يدين بدين يرتب على اعماله اثار الصحة ما دامت موافقة لما يعتقد ، وان خالفت الاسلام .

الصادق رائدا اجتماعيا

اذا كان الصادق قد عني بالتعليم فهو لم يهمل التربية بل نقد عني بها اشد عناية ، وكانت تربيته من نوع التربية الاجتماعية التي تحاول ان تخلق مجتمعا كريما اصيل الاخلاق متماسك الجوانب ، ويمكن تلخيص منهجه بهذه الجملة التي قالها لاصحابه فيما كان يقول لهم من مناهجه التربوية : (كونوا زينا لذا ولا تكونوا شينا علينا ليقول الناس رحم الله جعفر بن محمد ، لنعم ما ادب اصحابه) .

وقال لهم : اوصيكم بتقوى الله واداء الامانة لمن ائتمنكم وحسن الصحبة لمن صحبتموه وان تكونوا لنا دعاة صامتين . فقالوا : وكيف ندعو ونحن صامتون ؟ قال : تعملون

بما امرناكم به من العمل بطاعة الله وتعاملون الناس بالصدق والعدل وتؤدون الامانة وتأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، ولا يطلع الناس منكم الا على خير ، فأذا راوا ما انتم عليه علموا فضل ما عندنا ففتازعوا اليه .

وله في النهي عن التعصب والعصبية قول هو خير ما يقال في هذا الموضوع ، بل لو انه اتخذ مبدأ انسانيا ونفذ على حذافيره على نطاق عالمي واسع سواء بين الافراد او الجماعات والدول لنجت الانسانية من كثير من الشرور التي لا يبعثها الا التعصب الاعمى .

قال : (ليس من العصبية ان تحب اخاك ولكن العصبية ان ترى شرار قومك خيرا من خيار غيرهم)

وقد بدأت في عصره تطفى الروح الانهزامية في المجتمع بدعوى الزهد والايغال في التصوف والاستغراق به استغراقا يخرج به عن حقيقته الخيرة . لذلك كان يحث على الجدية في الحياة ، والكفاح من اجل العيش الكريم . فكان من اقواله في ذلك : (ان الله يحب الجمال والتحمل ويغض البؤس والتبؤس ، فان الله اذا انعم على عبده بنعمة احب ان يرى عليه اثرها) ، قيل له كيف ذلك ؟ قال: ينظف ثوبه ويطيب ريحه ، ويجصص داره ويكنس افنيتيه .

وقد كان كثيرا ما يحلي وعظه بالنكتة والطرفة كما قال حين مر به رجل وهو يتغدى فلم يسلم ، فدعاه الى الطعام ، فقيل له : السننة ان يسلم ثم يدعى ، وقد ترك السلام على عهد فقال : هذا فقه فيه بخل .

وكانت انسانيته تبلغ اسمى الحدود . فقد دخل عليه مرة سفيان الثوري فرآه متغير اللون فسأله عن ذلك ، فقال : كنت نهيت ان يصعدوا فوق البيت ، فدخلت فاذا جارية من جوارى ممن تربى بعض ولدي قد صعدت في مسلم والصبى معها ، فلما بصرت بي ارتعدت وتحيرت وسقط الصبى في الارض فمات . فما تغير لوني لموت الصبى وانما تغير لوني لما ادخلت عليها من الرعب . وكان قد قال لها مرتين : انت حرة لوجه الله لا بأس عليك .

الصادق والشعر

لقد مدح جعفر الصادق بشعر كثير ومن اشهر مداحه السيد الحميري ومما قيل فيه ما قاله عبدالله بن المبارك :

انت يا جعفر فوق المدح والمدح عناء
انما الاشراف ارض ولهم انت سماء
جاز حد المدح من قد ولدته الانبياء
على انه هو نفسه كان يقول الشعر احيانا فمن ذلك قوله :

لا اليسر يطرؤنا يوما فيبطننا
ولا لازمة دهر نظهر الجزعا
ان سرنا الدهر لم نبهج لصحته
او ساعنا الدهر لم نظهر له الهلعا
مثل النجوم على مضمار اولنا
اذا تغيب نجم آخر طلعا

وفي البيت التالي دلالة على الحياة العلمية
التي كان يحياها مع تلاميذه بين الاملاء والتدوين
والتأليف مما لا بد فيه يومذاك من وصول المداد الى
الانامل والايدي والملابس :
لا تجزعن من المداد فأنه

عطر الرجال وحليّة الاداب

ولمات وحمل الى البقيع انشد ابو هريرة العجلي:
اقول وقد راحوا به يحملونه
على كاهل من حامله وعاتق
اتدرون ماذا تحملون الى الثرى
ثبيرا ثوى من رأس علياء شاهبق
غداة حثا الحاثون فوق ضريحه
ترايا واولى كان فوق المنارق

الخليل بن احمد الفراهيدي

مدون اللغة العربية

المبدعون في كل امة قلة وجود بهم الزمن بين الحين والحين . وفي تاريخنا بعض من هؤلاء ممن عاشوا لمبدأ ولرأي ولفكرة ، زاهدين ببهارج الحياة وزيف العيش ، مما يغري غيرهم .

وفي الذروة منهم الخليل بن احمد الفراهيدي (١) الذي اسبغ على اللغة العربية من الفضل ما جعله من اخلد الخالدين في تاريخنا العلمي .

الفقر والحرمات ثم الرحيل

ولد الخليل في البصرة سنة ١٠٠ هجرية وتوفي سنة ١٦٠ . وفي قول انه عاش اربعا وسبعين سنة . ومضت حياته الاولى في مسقط رأسه كفاحا في سبيل العلم وانكبابا على البحث والدرس ، مع فقر طاغ يهد العزم ويقصم الظهر ، فرأى ان يترك البصرة الى بلد آخر يستطيع ان يجمع فيه بين ما هو في سبيله من انصراف الى المعرفة وبين ما يكفل له العيش الكريم ، وامضى في ذلك عزمه ودنا

يوم نزوحه عن البصرة ، وعلم البصريون بذلك فخرج لتشييعه ثلاثة الاف رجل ما فيهم الا محدث او لغوي او اخباري ، فلما صار في المربد ، قال يا اهل البصرة : يعز علي فراقكم ، والله لو وجدت كل يوم كيلجة باقلاء (٢) ما فارقتكم ..

ويعلق على ذلك مؤرخ بقوله : فلم يكن فيهم من يتكفل له بذلك .

فانت ترى ان الذين اهمهم رحيله وساءتهم هجرته لم يكونوا الا من صنفه علماء يعيشون للعلم والفكر ، فليس فيهم صاحب سلطان ولا كائز اموال ، ولعل هؤلاء المشيعين لو استطاعوا الرحيل مثله لرحلوا هم ايضا كما رحل . ولذلك لا مجال للعتب عليهم بان لم يوجد بينهم من يتكفل له كل يوم بكيلجة باقلاء ، واذا شئنا التعبير باصطلاحنا الحديث قلنا : من يتكفل له (بطبق من الفول) .

هكذا كانت تمضي حياة المفكرين والعلماء في ظل الحكم الفردي الاستبدادي الغاشم الذي انتهى اليه العالم الاسلامي منذ العام «٤١» الهجري وهكذا كان رجل مثل الخليل بن احمد لا يستطيع ان يجد في يومه كيلجة باقلاء ، ولا يستطيع واحد من ثلاثة آلاف عالم ان يضمن له ذلك . واننا لننطاطىءا لراس اجلالا لاؤلئك العلماء في تلك العصور الذين استطاعوا ان يصمدوا للطغيان ويصبروا على الحرمان فيكونوا هم وحدهم مظهر حضارتنا وحقبة تاريخنا . واذا كان لنا ما نفاخر به في ماضينا فهو تراثهم الذي خلفوه وكفاحهم الذي واصلوه اما المتسلطون فهم سبتنا

التي منها نبأ .

في خراسان

مضى الخليل عن البصرة مغذا السير حتى اتاخ في خراسان ، ويقول مؤرخ : « فأفاد فيها أموالا » . وهنا نتساءل عن حقيقة هذه الأموال وعن مصدرها ؟
أكبر الظن انها انما تعد أموالا بالنسبة لما كان فيه بالبصرة ، لا بالنسبة الى ما يمكن ان تكون عليه الاموال وأما سببها فهو قطعاً سبب كريم .

ودليلنا على ذلك ان سليمان بن علي والسي الاهواز ارسل الى الخليل طالبا اليه ان يؤدب له ولده ، فاخرج الخليل لرسول سليمان خبزا يابسا وقال ما دمت اجده فلا حاجة لي الى سليمان فقال الرسول فما ابلغه عنك ؟ فقال :

ابلق سليمان اني عنه في سعة
وفي غنى غير اني لست ذا مال
شحا بنفسي ، اني لا ارى احدا
يموت هزلا ولا يبقى على حال
فالرزق عن قدر لا العجز ينقصه
ولا يزيدك فيه حول محتال
والفقر في النفس لا في المال تعرفه
ومثل ذاك الغنى في النفس لا المال (١)

لقد رفض الخليل دعوة والي الاهواز وما فيها من الرفاه والنعيم لانها ستستعبد نفسه وتقيد فكره وتجعله واحدا من حاشية المسيطرين ، وهو قد اعد نفسه لما هو اسمى من ذلك . . .

ويزيد مؤرخ آخر على ما مر ناسبا القصة لا اللى سليمان بن علي بل اللى سليمان بن حبيب الازدي والي فارس والاهواز ، ويقول انه كان قد عين للخليل راتبا ، ثم كتب اليه يستدعيه فكتب الخليل جوابه الابيات المقدمة فقطع عنه سليمان الراتب(٤) فانشد الخليل هذين البيتين :

ان الذي شق فمي كافل
للرزق حتى يتوفاني
حرمتمني مالا قليلا فما
زادك في مالك حرماني
فبلغ البيتان سليمان فكتب اليه يعتذر واضعف له
الراتب فقال الخليل :
وزلة يكفر الشيطان ان ذكرت
منها التعجب جاءت من سليمانا
لا تعجبن خير زل عن يده
فالكوكب النحاس يسقي الارض احيانا

وهكذا نرى ان الوالي عين راتبا للخليل املا بان يغريه بان يصبح من الاتباع المشيدين به فارسل يستدعيه فرفض الخليل الدعوة لانه يعلم مرماها ، ولما

ذهبت الغاية من دفع المال قطعة الوالي ، ولما سمع
الشعر خاف مغبة الهجاء فعاد يضاعف المال اتقاء للهجو
لا تقديرا للعلم

ومن العجب ان هذا الفقير القانع كان بعلمه سبب
الغنى للناس وهو في فقره وخصاصته . قال النضر بن
شميل : أكلت الدنيا بعلم الخليل بن احمد وكتبه وهو في
خص لا يشعر به . وقال ايضا : اقام في خص بالبصرة لا
يقدر على فلس ، وعلمه قد انتشر وكسب به اصحابه
الاموال .

ويصفه النضر قائلا : كان الخليل اشعث الرأس شاحب
اللون شعث الهيئة منخرق الثياب منقطع القدمين مغمورا
في الناس لا يعرف .
وانها لمأساة العلم في تلك العصور ان يكون مثل هذا
العالم العظيم على هذه الصورة الشوهاء من شحوب
وتشعث وانخراق وتقطع ، وان يزويه الفقر والحرمان فيجهل
مكانه ولا تعرف مكانته .

الشكل

لم يكن الخط في صدر الاسلام معجما ولا مشكولا . ولما
فشا اللحن وفسدت السلائق كان لا بد من معالجة ذلك
بوسيلة ما فابتكر ابو الاسود الدئلي المتوفى سنة ٦٩ هـ
طريقة توضح صحة الكلمة فجعل علامات للحركات الثلاث،
فجعل علامة الفتحة نقطة فوق الحرف والكسرة نقطة تحته ،
والضمة نقطة بين يديه وجعل التنوين نقطتين .

ولجعل الحركات بارزة للقارىء فضل ان يكتبها بمداد يخالف المداد المكتوبة به الكلمات . ولا يزال مثال لهذا التشكيل موجودا في قرآن منسوب الى خط علي بن ابي طالب عليه السلام تحتفظ به المكتبة الرضوية في مدينة مشهد بايران . .

وحتى هذا الوقت لم يكن في الكلمات من اعجام فلم يلتبس الامر على القارىء ، ولكن لما وضع بعد ذلك نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر نقط الاعجام اشقته الحال لعدم امكان التمييز بين نقط الاعجام ونقط الشكل ، فكان لا بد من حل ، فكان الخليل بن احمد صاحب الحل حيث وضع الشكل بصورته المعروفة حتى اليوم وازاد اليه اشارة المد و اشارة الشدة ، كما وضع اشارة خاصة للمهزة والالف الوصل . فكان مجموع ما ابتكره ثمانى علامات ، كلها حروف صغيرة او ابعاض حروف بينها وبين ما دلت عليه اجلى مناسبة بخلاف علامات ابي الاسود فانها مجرد اصطلاح لم يبين على مناسبة بين الدال والمدلول . .

وقد الف الخليل كتابا مفصلا في هذا الموضوع ، ولا تزال قاعدته هي المعمول بها لم يزد عليها احد شيئا .

العروض

علم العروض مما ابتكره الخليل ولم يسبقه اليه سابق ، وقد ملاً بوضع قواعد هذا العلم فراغا في اللغة العربية كان من الواجب ملؤه ، فقد كان الشعر بدون قواعد تربط اوزانه وتحدد اركانه ، فحصر الخليل اقسامه في خمس

دوائر يستخرج منها خمسة عشر بحرا .

ومن اروع ما في هذا الموضوع انه جاء دقيقا كاملا لم يستطع احد بعده ان يستدرك عليه شيئا او يزيد امرا ، اذا استثنينا من ذلك البحر الذي زاده تلميذه الاخفش وسماء (الخبب) على ان لهذا البحر اصلا عند الخليل .
ومن الطرائف التي وقعت له وهو يعاني تركيز بحور الشعر ان ولدا له دخل عليه وهو يقطع بيتا من الشعر فذعر مما سمع وخرج الى الناس يقول ان اباه قد جن .
وقرأ رجل عليه العروض فلم يفهم فقال له الخليل : قطع هذا البيت :

اذا لم تستطع امرا فدعه

وجاوزه الى ما تستطيع

قال الخليل : فشرع الرجل في تقطيعه على مبلغ علمه ثم قام فلم يرجع الي . فعجبت من فطنته لما قصدته في البيت مع بعد فهمه .

الموسيقى

هذا الفقير المعدم المنصرف الى البحث والكشف لم ينس الموسيقى فجعلها بعض همه فالف فيها كتابا جمع فيه اصناف النغم وحصر انواع اللحن وحدد ذلك كله ولخصه وذكر مبالغ اقسامه ونهايات اعداده ، فصار كتابه المرجع العربي الاول لكل طارق لهذا الموضوع . وقال بعض الباحثين ان مهارة الخليل في علم الالحن هي التي اعانته على علم العروض .

كتاب العين

كما انه لم يكن في اللغة العربية حتى عصر الخليل قواعد للشكل والعروض ولم يكن فيها مؤلفات في الموسيقى ، كذلك لم يكن فيها معاجم لمعرفة صحة الكلمات ومعانيها . بل الاصح ان نقول ان اللغة العربية لم تكن مدونة قبل الخليل ، فهو المدون الاول لها وواضع اول معجم فيها . ومن بعد الخليل جاء الازهري ، فألف كتاب التهذيب ، وابن سيده فألف كتاب المحكم ، ثم الجوهري فألف كتاب الصحاح ، واذا كان المؤلفون لم يزيدوا شيئا على ما وضع الخليل في الشكل والعروض فان كتب اللغة اخذت بعد الخليل بالتطور والتحسين حتى كان كتاب الصحاح المتقدم ذكره فكان اسهل ترتيبا لانه راعى ترتيب الحروف الهجائية في اول الكلمة واخرها وتبعه المؤلفون على ذلك . واستغنى الناس بهذا عن كتاب العين ، ولكن بقي فضل الابتكار للخليل .

خطته في كتاب العين

كان السبب في تسمية الكتاب بالعين ان الخليل احتار باي حرف يبدأ كتابه ، اذ كان عليه ان يبدأ بحرف الالف ثم ما يليه من الحروف ، ولكنه رأى ان حرف الالف حرف معتل فلم يجز الابتداء به ، ولما فاتته حرف الالف وهو اول الحروف كره ان يجعل الثاني اولا وهو الباء الالسبب ، وبعد استقصاء وجد ان مخرج الكلام كله من الحلق فجعل اولها بالابتداء به ادخلها في الحلق ، وقد وجد ان العين اقصاها في الحلق ،

فجعل حرف العين الحرف الاول ، ثم ما قرب مخرجه منها بعد العين .

ويبدو ان الكتاب سمي كتاب (العين) لان اول حرف كان فيه هو حرف العين ، ولكن من غير المعلوم ما اذا كان هو نفسه سماه هذا الاسم ام ان بعض من جاء بعده هو الذي سماه .

ضجة حول كتاب العين

لم يسلم هذا الكتاب من تنازع فيه ، فقد وجد من يقول انه ليس للخليل اصلا ، ومن يقول انه ابتدا به واكمله غيره وان كل ما له فيه هو ما جاء عن حرف العين وان الليث بن نصر بن سيّار هو الذي اكمله .

والذين قالوا هذا القول روه بحكايات مختلفة ، ومما قيل في ذلك : ان الخليل كان منقطعا الى الليث بن رافع بن نصر بن سيّار ، وكان هذا ادبيا بارعا يكتب للبرامكة ، فاهداه الخليل كتاب العين ، فعكف عليه مطالعة وتنقيها ، واشترى يوما جارية جميلة اغارت زوجته فارادت هذه اغاظته فلم تجد اجدى من ان تتلف الكتاب الذي كان لا يفارقه فاحرقته ، وان الليث اعاد كتابة نصف الكتاب — وكان الخليل قد مات — من حفظه ، واجتمع مع فريق من الادباء على اكمال الباقي على نسق النصف الاول (٥) وقيلت اقوال كثيرة غير هذا .

على ان هذه الاقوال لا تكاد تثبت امام النظر الثابت المنقب . وقد اجتهد فريق من العلماء في الاستدراك على الكتاب ، كما فعل ابو عمر محمد بن عبد الواحد المعروف بغلام ثعلب الذي كتب (فائت العين) وابو غالب ابن التبانسي الذي كتب (فتح العين) وغيرهما . كما ان هناك من الف مدخلا له وهو النضر بن شميل ، ومن اختصره وهو محمد بن الحسن الزبيدي وابو الحسن علي بن القاسم الخوافي .

مؤلفات اخرى للخليل

للخليل العديد من المؤلفات ومعظمها يدخل ضمن المواضيع التي استنبطها . من ذلك : ١- كتاب زبدة العروض توجد منه نسخة خطية في المكتبة الفاضلة بايران ٢- كتاب في الإمامة ٣- كتاب الايقاع ٤- كتاب النغم ٥- الجمل ، اي جمل الاعراب في النحو ٦- الشواهد ٧- النقط والشكل ٨- كتاب في معاني اسماء حروف الهجاء ، ومنه نسخة في مكتبة لندن ونسخة في مكتبة برلين . وهذا الكتاب طريف ، اذ انه اثار فيه الى ان لكل حرف من حروف الهجاء معنى خاصا فمعنى التاء مثلا : البقرة تحلب يقول الشاعر :

انا فارس الهجاء في كل حومة

وانت ابن تاء تحلب التاء دائبا

ويعنى الرء : القراد . ومعنى الزاي الرجل

الاكول . قال الشاعر :

إذا اختلف السراة يكون راء

وعند الاكل زاي جفطري

ومعنى الصاد : الديك المتمرغ بالتراب قال الشاعر :

وانى اذا ما غبت عنى ميتم

كأني صاد في الثرى يتململ

ومعنى الذال : عرف الديك ، قال الشاعر :

به وهن يلوح بحاجبيه

كذال الديك يأتلق ائتلاقا

وهكذا حتى اتى على جميع حروف الهجاء فيحدد

معنى كل حرف . وربما كان هذا الكتاب مستلا من كتاب

العين .

شعر الخليل

كان الخليل شاعرا ويصفه صاحب شذرات الذهب

بانه شاعر مطبوع مفلق ، ويقول آخر انه كان ينظم البيتين

والابيات . ومن شعره قوله :

وما هي الا ليلة بعد ليلة

ويوم الى يوم وشهر الى شهر

مراحل يدنين الجديد الى البلى

ويدنين اشلاء الكرام الى القبر

الادريسي وخرائطه وكتابه

عندما نجا ادريس بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن ابي طالب من مجزرة فخ الرهية لم يكن احد يحسب انه سيكون لنجاته مثل هذا الشأن الذي صار لها ..

ولكن ادريس استطاع ان يجعل لنجاته شأنًا تاريخيا كبيرا امتدت اثاره عدة قرن وعاد على العرب والمسلمين بالخير الكثير .

وليس القصد من هذه الكلمة تدوين ما قام به ادريس ثم اعقابه من نضال مستميت في سبيل نشر الاسلام في افريقيا وتوطيد قدم العروبة فيها ، فذلك له مكان آخر غير هذا المكان .

ولعل افضل ما قيل عن الدولة الادريسية هو ما قاله الدكتور حسين مؤنس : « ما زالت الدولة الادريسية تنتظر من يكتب تاريخها ويحدد دورها في بناء المغرب العربي . ولا زال اصحاب كتب التاريخ الاسلامي العام ينظمونها في سلك الدويلات التي تقاسمت نواحي المغرب الاسلامي ابتداء من منتصف القرن الهجري الثاني جاعلين اياها صنوا لدولة بني الاغلب او دولة بني رستم التاهرتيين او حتى دولة بني مدرار اصحاب

سجل مأساة . ويفوتهم في اثناء هذا العرض السريع المتواضع ان يتبينوا مكانها كحجر الزاوية في بناء اسلام المغرب وعروبته وما قامت به من دور عظيم في مد رقعة الاسلام في شمال المغرب الاقصى وغربي المغرب الاوسط — الى ان يقول — : وما بذله امرأؤها من جهد في ارساء اساس الاسلام الصحيح وتثبيت دعائم العروبة ولغتها وثقافتها في بلد اصبح بفضل الادارسة الدرغ الواقى للجناح الغربي من مملكة الاسلام » .

هذا القول الموجز يتضمن حقيقة كبرى من حقائق التاريخ ، ويشير اشارة بليغة الى جوهر الامر في واقع الادارسة وحكمهم في شمال افريقيا ، ويدعو دعوة جهرة الى العناية بتاريخ تلك الحقبة من حياة الاسلام والعروبة ..

لقد كان من ثمار نجاة ادريس ووصوله سالما الى افريقيا ان نبغ من اعقابه انسان فريد ، سادلا بالسلطنة والحكم ، وخذلا بالفتح والقهر . انسان هو في تاريخنا الثقافي وميراثنا الحضاري من القمم الشوامخ . ذاك : ابو عبدالله محمد بن محمد الادريسي ، الذي اشتهر باسم : الشريف الادريسي ، وقد يعرف بالشريف الصقلي المولود سنة ٤٩٣هـ (١٠٩٩ — ١١٠٠) والمجهول سنة الوفاة ، على العكس من نظرائه النابغيين الذين تجهل على الاغلب سنة ولادتهم ، وتعلم سنة وفاتهم . على انه وجد من يناقش في سنة الولادة نفسها ، اذ ان تعيين هذا التاريخ منسوب الى الراهب الماروني ميخائيل الغزيري الذي

نظم فهرسا لاتينيا لمخطوطات الاسكوريال . وقد ذكر سنة ولادة الادريسي دون ان يحدد المصدر الذي اعتمد عليه في ذلك ومن هنا وجد من لا يستطيع الجزم بهذا التاريخ . على اننا لا نحسب الغزيري يمكن ان يكون قد تساهل في وثاقته مصادره . بل يمكن ان نعتمد على قوله ، وان كنا نأخذ عليه تهاونه في تعيين المصدر .

بنو حمود اجداد الادريسي

هم من احفاد ادريس ينتمون الى جددهم حمود المنتمي نسبه الى مؤسس الدولة الادريسية واذا كانت الدولة الادريسية قد قامت في الشمال الافريقي وانتهت فيه ، فانه قام لفرع من فروعها ، فرع بني حمود دولة اخرى لا في افريقيا بل في الاندلس عاشت ردحا من الزمن ثم انتهت الى الزوال .

ذلك انه حين كانت الدولة الاموية في الاندلس تمشي الى نهايتها ، كان في الاندلس اثنان من آل ادريس قدما اليها مع من قدم من البربر ، فاشتهدرا فيها وعرفا بما كانا يبديانه من شجاعة واقدام في مختلف الاحداث ، مما مهد لهما وراثه الدولة الاموية الزائلة .

وكان الادارسة قد تمكن حبهم في قلوب البربر وغدت لهم عليهم رئاسات وزعامات ، كان منها رئاسة الاخوين ، علي والقاسم ابني حمود بن ميمون بن احمد بن علي بن عبيد الله بن عمر بن ادريس ، حيث كان ينقاد لهما البربر في بلاد غمارة من الريف . ولما وقعت

الفتنة بين اموي الاندلس وثار سليمان بن الحكم الملقب بالمستعين على المهدي محمد بن هشام في جنود البربر وزناتة ، كان علي بن حمود واخوه القاسم في جملتهم ، وجرت خطوب واحداث دخل بعدها المستعين وجماعته مدينة قرطبة عنوة سنة ٤٠٣ هـ ثم تغلب البربر على الامر فدعا علي بن حمود واخوه القاسم الى نفسيهما فعضدهما الكثير من البربر وتعصبوا لهما فاقاما خلافة جديدة في الاندلس خلفت الخلافة الزائلة ، وتولى امرها علي بن حمود سنة ٤٠٨ هـ وظلت هذه الخلافة قائمة حتى بويغ آخر خليفة فيها سنة ٤٥٩ . وبعد هذا الخليفة تقاسم ملوك الطوائف الاندلس الى ان تغلب عليهم المرابطون .

نشأت الادارسة

وبعد هذا تفرق الحموديون الادريسيون في انحاء المغرب ووصل بعضهم الى جزيرة صقلية على انه كان في تونس ادريسيون عرفوا بال الصقلي اختصوا بصناعة الطب وتوارثوها خلفا عن سلف ، ويرى الشيخ محمد رضا الشيبيني انهم من ذرية صاحبنا الشريف الادريسي . واذا كان هؤلاء المتأخرون عرفوا بال الصقلي — وهم يقيمون في تونس — فان في ذلك اشارة الى نسبة اجدادهم من قبلهم ، اولئك الذين نزلوا صقلية وكان لهم فيها شأن بارز ، ولكنه محاط بالغموض ، مجهول التفاصيل . ولعل الدكتور حسين مؤنس هو اول من حاول ازالة هذا الغموض والتغلغل الى قلب

الحقيقة فوفق الى الكثير من ذلك توفيقا يسجل له ويشاد به .

الشريف الادريسي

والمعروف ان الشريف الادريسي هو من اهل سبتة ثم انتقل بعد ذلك الى صقلية حيث اتم فيها عمله الجغرافي الكبير . وما دام قد وجد في تونس بيت ادريسي يعرف بال الصقلي وينسب الى الشريف الادريسي ، وما دام الشريف الادريسي نفسه كان يطلق عليه فيما يطلق من الالقاب لقب الصقلي فهل ان هذه النسبة وهذا اللقب قد لحقاه بعد وصوله الى صقلية ، ام ان الامر كما يرى الدكتور حسين مؤنس من ان آل الشريف الادريسي كانوا ممن استقروا اولا في صقلية ثم نزح من نزح منهم الى سبتة حيث كان هذا البلد منبئا للشريف الادريسي منه انطلق في سياحاته الى المشرق والمغرب ثم استقر من جديد في صقلية ؟ ان المنطق السليم يؤيد ما رجحه الدكتور حسين مؤنس ، فلم يكن لقب (الصقلي) ليقرن الى اسمه مجرد اقامته الاخيرة في صقلية ، بل ان هذا اللقب كان يلحق باسرتة التي ينتمي اليها والتي استمد منها لقبه . وهذا اللقب انما الحق بالاسرة ليميزها عن غيرها من الادارسة الذين قدر لهم ان يتفرقوا في اكثر من مكان واحد .

الرحالة

كتب على الشريف الادريسي ان يفارق وطنه سبتة

غير حل طوراً الى الشرق وطوراً الى الغرب ، ولا شك
 هذا الترحال قد افاده بعد ذلك في عمله الجغرافي
 الكبير ، وكان له منه معوان في استجلاء الكثير من الحقائق
 التي اثبتها سواء في كتابه او خريطته .

وقد عبر عن غربته الطويلة وتنقله بين البلاد ، وحياة
 القلق التي كان يحياها بين حل وترحال بهذه الابيات
 الجميلة :

ليت شعري اين قبري ؟
 ضاع في الغربية عمري
 لم ادع للعين ما تشتاق
 في بر وبحر
 وخبرت الناس والار
 ضلدى خير وشر
 لم اجد جاراً ولا دا
 را كما في طي صدري
 فكأنني لم اسر
 الا بميت او بقفر .

واخيراً ينزل صقلية موطن ابائه ويعود الى الارض
 التي نزع عنها اسلافه ، حيث كان لا يزال من الحموديين
 جماعة في صقلية نزحوا اليها بعد زوال سلطانهم
 في الاندلس وتفرقهم في البلاد . واذا كان الادريسي ينزل
 صقلية هذه المرة ليقيم فيها ، فقد كان قد طرقتها من قبل في
 طريق عودته من المشرق ونزل على اقربائه الحموديين فيها .
 اما هذه المرة فقد جاءها مجيباً دعوة حاكمها رجار الثاني

كبير النورمان ليقوم بعمله العلمي الضخم ، متفرغا له تفرغا كاملا ، محاطا برعاية رجار وتشجيعه ، ومعرفته . .

رجار والادريسي

كان رجار الثاني معنيا بالجغرافيا محاولا الوصول الى ادق المعلومات فيها . ولم تكن وسائل الوصول الى هذه المعلومات ميسورة في ذلك الحين ، فكان يستدعي اليه العلماء الباحثين مستعينا بما يعلمونه ، مدونا ما يصل اليه من الحقائق . وكان الى جانبه في كل ذلك الشريف الادريسي يحاور ويساجل ، حتى انقضت خمس عشرة سنة تجمع في خلالها الكثير من المعلومات ، واصبح لدى الادريسي من المادة ما يستطيع معه ان يباشر العمل في خريطته العتيدة .

ولم يقتصر عمله في بلاط رجار على الخريطة وحدها، بل كان انتاجه في تلك الفترة خصبا منوعا لا يزال حتى اليوم وسيظل الى ما بعد اليوم مثار الاعجاب . ومن المؤسف انه قد ضاع في غمار الزمن جزء مهم مما حققه الادريسي من الاعمال ، ذلك اننا عرفنا ما ذكره ابو الفداء انه كان له كتاب الممالك والمسالك ، كما عرفنا من غيره ان هذا الكتاب الف لا لرجار نفسه بل لولده (ولهم) الذي حكم من سنة ١١٥٤ الى سنة ١١٦١ .

وفيما عدا الجغرافيا فقد الف كتابا ممتعا في علم النبات سماه (جامع اثنتاب النبات) يصفه الشيخ محمد رضا الشبيبي بانه يورد فيه اسماء النباتات في لغات

عدة قد يوصلها الى اكثر من عشر لغات شرقية وغربية .

ويقول الشببيبي : ومن هذا الكتاب يستنتج ان الادريسي حاذق في علم النبات والمواليد وعلوم الطبيعة والطب اكثر من حذقه في ناحية الجغرافيا والبلدانيات . والكتاب يدل على علم واسع وتحقيق بالغ ، وهو من المخطوطات النادرة .

اما قمة تأليفاته الجغرافية فهو كتاب « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق الذي كان شرحا الخريطة وتعليقا عليها . ويقع الكتاب في جزئين كبيرين . ويقول محمد عبدالله ماضي : انه اختصر فيما بعد تحت الاسم عينه ، وانه اطلع على نسخة من هذا المختصر في مكتبة المعهد الشرقي بهامبورغ مطبوعة في روما سنة ١٥٩٢ .

خريطة الادريسي اول خريطة

سبق خريطة الادريسي العالمية خريطة تعود الى عهد قياصرة الروم ، لها من العمر ضعف ما لخريطة الادريسي اذ وضعت في العام ٣٦٥م وعرفت باسم خريطة (بوتينجر) ، ولكنها خريطة محدودة الفائدة لم يقصد بها الا بيان طرق المواصلات ، وقد زالت المدن التي ورد ذكرها فيها ولا يعرف لها اليوم من اثر . وهناك خريطة لبطليموس تسبق خريطة الادريسي بالف عام ولكن ليس لها شمول خريطة الادريسي ، اذ ان غاية ما يستفاد منها هو ان تعطي فكرة عامة عما كان عليه العالم القديم .

تصور الادريسي للارض

الارض في تصور الادريسي تختلف عما شاع عنها في اواخر القرون الوسطى من انها مسطحة تقوم على سطح الماء ، فالادريسي يتصورها كرة بيضاوية الشكل محاطة بالماء من كل جانب حيث يغمر الماء نصفها وينحسر عن النصف الاخر ، وينقسم هذا النصف الى قسمين : شمالي هو وحده المعمور ، وجنوبي غير معمور ويفصل بينهما خط الاستواء .

وبناء على هذا التصور وضع الادريسي خريطته فشملت القسم المعمور وحده . ومن البدهي أن نقول انه لم يقسم الارض حسب التقسيم الذي نعرفه في هذا العصر ، اى الى القارات الخمس المعروفة ، لان بعض هذه القارات لم يكن معروفا يوم ذلك كأريكا واستراليا ، وكذلك فان هذا الاصطلاح لم يكن معروفا وانما اخذ به بعد ذلك ، ولكن الادريسي اخذ بتقسيم الارض الى اقاليم سبعة ، على ما كان مصطلحا عليه يومذاك .

يقول محمد عبدالله ماضي : « ومما يذكر للادريسي بالاعجاب والفخر انه حاول بتقسيمه الارض الى الاقاليم السبعة اثبات درجات العرض وتحديدتها ، وانه اطلع في محاولته هذه الى حد بعيد يجعل علماء الاختصاص في الوقت الحديث يطأطئون الرأس له اعجابا وتقديرا » .

البحار

لم يكن اصطلاح (المحيطات) معروفا في تلك العصور

وباستثناء المحيط الاطلسي ، فان تلك المحيطات لم تكن تذكر على اساس كونها بحارا محيطة ، وذلك لان بعضها مثلا لم يكن معروفا اصلا كالمحيط الهادي ، وبعضها الاخر كان ينظر اليه على انه بحر مثله مثل كل البحار كالمحيط الهندي .

اما المحيط الاطلسي فقد كان وحده الذي ينظر نظرة فيها الكثير من الرهبة والتوجس ، والتطلع الى المجهول المخيف . ومن هنا اطلقوا عليه اسم (بحر الظلمات) وحسبك بهذه التسمية دليلا على شدة هذا البحر وتوغله في الثمول والاحاطة . ولا احسب ان المقصود بالظلمات هنا : الظلمات المادية وحدها التي كان يقرن بها هذا البحر يومذاك ، بل ربما كان المقصود ايضا الظلمات المعنوية التي تعني جهل حقيقة ما وراءه ، وما يخفيه من عوالم ليس من المستطاع معرفة كنهها ، فهي ظلمات في ظلمات . ظلمات تخيف وترهب وظلمات تحير وتثير .

واذكر انني عبرت هذا البحر منذ اكثر من عشرين سنة ، عبرته سبحا في الفضاء وتدفقا في السماء ، في قلب طيارة تنداح فوقه موجة اي ايغال . فكتبت عنه فيما كتبت اقول : « ... لم اكبر رواد البحار كما اكبرتهم وانا فوق البحار ، ولم اعلم عظمة ماجلان وكولومبس كما علمتها وانا في الطائرة فوق الاطلانتيك ، فما اصلب اولئك الرجال الذين غالبوا هذه الامواج وغلبوها باضعف سلاح واقل عتاد ، و ما امضى عزائمهم وهم يجوبون هذه المناهات لا الى بلد يعلمونه ولا الى مرفأ يقصدونـه

بل الى المجهول يستطلعونه . . ان المحيط لمخيف في اقوى البواخر وامضى الدوارع ، وانه لعنيفة ، في ائخم الطائرات واعظم الجاريات ، وانه لبغيض مملول حتى وهو طريقك الى بونس ايرس ونيويورك وانين ، فما بالك اذا كان المركب فيه الخشب الرقيق والحبل الدقيق والشراع النصفيق ، واذا كنت تسير فيه لاعلى طريق ولا الى طريق ، بل تخرج من ضيق لتدخل في ضيق يشاحنك فيه حتى الصديق ويخاصمك حتى الرفيق .

هذا هو بحر الظلمات اليوم فكيف قبل اليوم ؟

لذلك افرد هذا البحر وحده واطلق عليه هذا الاسم ولم يدخل في تقسيمات البحار الاخرى التي اعتمدها الادريسي ، اذ قسم البحار الى سبعة : ثلاثة منها متفرعة من بحر الظلمات او مما تفرع عنه ، وهي : بحر الشام او بحر الروم (المتوسط) وخليج البندقية (الادرياتيك) وخليج النطاس (الاسود) . ثم بحر الهند (المحيط الهندي) او البحر الفارسي ، وبحر السويس او بحر القلزم (الاحمر) المتفرعان من بحر الهند .

والبحر السابع بحر لا يتفرع من غيره ولا يتصل بأي بحر هو بحر قزوين (الخزر) . اذن فهذه بحار سبعة على عدد الاقاليم السبعة ، وهي التي اعتمدها الادريسي في خريطته .

على انه لا بد لنا من القول ان الادريسي لم يقتصر في تقسيمه للاقاليم على عدها سبعة ، بل انه قسم كل واحد من هذه السبعة الى عشرة اقسام متساوية وبذلك اصبحت الاقاليم سبعين اقليما .

نزهة المشتاق

ولاجل شرح كل ذلك وجعله واضحا كل الوضوح ، ولجل الوصول الى الغاية التي وضعت من اجلها الخريطة وهي تعميم المنفعة والوصول الى الحقيقة ، والازدياد في المعرفة ، لاجل ذلك وضع الادريسي كتابه العظيم (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) ليكون دليلا للخريطة ومرشدا للمستطلع فيها . لهذا رأينا الادريسي في كتابه يتحدث عن الاقاليم السبعين حديثا مطنبا ويصف مواقعها وصفا دقيقا ، ويحدد اماكن الجزر والبلاد ويدل عليها ، ويشير الى الجبال والانهار فضلا عن المدن . وعدا هذا فهو يتكلم عن الدول في كل اقليم وعن السكان واجناسهم ، ولا يهمل تقاليدهم وعاداتهم . كما لا يهمل ذكر ما عرف به المكان من نبات وحيوان ، وما في ذلك من منافع طبية او خصائص طبيعية . واذا كان الادريسي — كما قال عنه الشيبني — حاذقا في علم النبات والمواليد والطبيعة والطب — فان هذا الحذق لم يتجل في كتابه (جامع اشتات النبات) وحده ، بل لقد تجلى كذلك في (نزهة المشتاق) تجليا بينا واضحا .

وعلى ما وصف به (نزهة المشتاق) فان من العسير تلخيصه ، واظهار واقعه في سطور محدودة ، وهو « كتاب ضخم يقع في جزئين كبيرين الحجم » كما قيل عنه .

الخريطة الفضية

اراد رجار ان يكون عمل الادريسي عملا ثابتا دائما ،

فتفتق ذهنه عن طريقة يحفظ بها الخريطة حفظا مستمرا ، فلا يذهب بها كر الايام وتعاقب السنين ، فاشار بان تحفر الخريطة على لوح من الفضة وعهد الى الادريسي بانجاز ذلك بعد ان وضع بتصرفه مقدار اربعمائة الف درهم فضية — كما يروي خليل المصفي — وامده بامهر الصناع . ولكن الادريسي لم يحتج من الفضة الا اقل من ثلث المبلغ حتى خرجت الخريطة الفضية في شكل مائدة مستطيلة قدر طولها بثلاثة امتار ونصف المتر وارتفاعها بما يقرب من المتر ونصف المتر ، — على ما يروي محمد علي ماضي عن « ميلر » وانتهى العمل بها كله في العام ١٥٤م . وبعد ستة اسابيع من انجاز ما اراد رجار الثاني انجازه سواء في الخريطة او الكتاب او المائدة الفضية مات رجار . واذا كان هذا قد اراد حفظ الخريطة فاشار بصنع المائدة الفضية ، فان الامر كما قال الشاعر : (وتقدرون فتضحك الاقدار) . ذلك انه في عهد ولهم ابن « رجار الثاني » وبعد وفاة رجار بست سنوات (١١٦٠) هاجم المتوار القصر الملكي فكان نهب الناهيين ، وكان فيما نهب : المائدة الفضية التي كسرها الناهيون واقتسموها فيما بينهم مغنما ماديا تافها ، وقضوا بفعلتهم على ذلك المجهود العلمي الفني الرائع . وبذلك لم تسلم الا خريطة الحائط والا خريطة الكتاب الموزعة في السبعين القطعة حسب السبعين الاقليم . ثم فقدت خريطة الحائط فلم تعرف بعد وظلت خريطة الكتاب . وهي الخريطة التي نظم اجزاءها وجمع قطعها المستشرق الالماني « كونراد ميلر » ثم طبعها لاول مرة سنة ١٩٢٨ طبعة ملونة فاخرة .

لقد ظلت خريطة الادريسي المرجع الوحيد لكل المؤلفين في الجغرافيا فعليها اعتمدوا ومنها استمدوا . وظلت نبراسا لكل العاملين في هذا المجال . وما اجدر الادريسي هذا العالم العامل بالاشادة به والاشارة اليه كواحد من اعظم من انجب العرب في كل العصور . وما احرى علماء الجغرافيين في هذا العصر بان يدعوا للتعريف به والاحتفال بذكراه ووضع الدراسات المفصلة عن عمله العلمي الكبير .

ولا اعرف احدا عني بذلك عناية الاستاذ محمد علي ماضي في بحث ممتع له في مجلة الرسالة القاهرية عهد ازدهارها وتوسع انتشارها . كما ان المستشرق الالماني كونراد ميللر كان صاحب الفضل الاول في كشف الغبار عن خريطة الادريسي وبعثها من مرقدتها ونشرها في كل مكان .

جعفران الموسوس

لم يعن مؤرخونا الاولون بتدوين الحياة الشعبية
تدوينا يصور لنا ملامحها الصحيحة ويرينا كيف كانت
تنقضي امور الملايين من الناس الذين هم من غير طبقة
الحكام واضرابهم .

وابو الفرج وحده تعدى في السرد امور الخلفاء والملوك
والوزراء ، وتغلغل في الحياة الشعبية فجاء (مقاتل الطالبين)
و (الاغانى) في الكثير مما فيهما صورا مجلوة لكثير من
الافراد من طبقات لم تظفر من غير قلمه بالتقصي ، فعرفنا
منه سير كثير من الاحرار والمناضلين والعلماء ، ومن
الشعراء غير شعراء الملوك ، ممن آثروا الحياة البسيطة
الوادعة . وعرفنا منه الكثير عن الوشائج الاجتماعية
والروابط بين الناس ومحيطهم ، وعرفنا الكثير من العادات
والتقاليد والامزجة .

وممن عرفناهم اكثر ما عرفناهم من مطالعاتنا في الاغانى
شاعر مسكين اضطهده عصره وخذله محيطه فعاش فقيرا
يائسا ، ومضى محروما ملاحقا ، الى ان ادى الامر لان
يرمى بالجنون ويوصف بالموسوس حتى اصبحت هذه
الصفة ملازمة لاسمه لصيقة بحياته . ذلك هو جعفر بن
علي ، الذي اشتهر باسم (جعفران الموسوس) .

بلده ومولده

هو بغدادى ولد في بغداد ونشأ بها ، وليس من يعنى لا بتاريخ ولادته ولا بتاريخ موته ، فقد كان اهون على اهل زمانه من ان يفكر منهم واحد بالسؤال عن اليوم الذي ولد فيه هذا الموسوس او ان يسجل احد اليوم الذي مات فيه . ولكننا نعلم انه ادرك عصر الامامين موسى الكاظم وعلي الرضا . والاول ولد سنة ١٢٨ وتوفي سنة ١٨٣ والثاني ولد سنة ١٥٣ وتوفي سنة ٢٠٣ . ولنا بعد ذلك ان نقدر متى ولد ومتى مات . .

هو كما قلنا بغدادى المولد والنشأة . ولكن يبدو ان بغداد نبت به بفارقها الى سامراء وسكنها ، وهذا ما نص عليه ابو الفرج في الاغانى ، ولكن لم يقل لنا ان كان قد ظل في سامراء حتى توفي ام لا .

هل هو مجنون حقا ؟

ابو الفرج يؤيد اختلاط عقله وسوسته ، ولكنه لا يقول بجنونه المطبق ، بل بجنون يعاوده بين الحين والحين . ومما وصف به : « كان ادبيا شاعرا مطبوعا ، وغلبت عليه المرة السوداء فاختلط وبطل في اكثر اوقاته ومعظم احواله . ثم كان اذا افاق ثاب اليه عقله وطبعه فقال الشعر الجيد » . اما هو نفسه فيرى ان ما يوصف به من الجنون انما هو محنة من المحن نزلت به فهو ينكر على الناس هذا الوصف فيقول :

قالوا علي كذبا وبطلا

اني مجنون فقدت العقلا

وذلك ان صديقا له روى عنه فقال : جاءني جعيفران فقال : « استوجب العالم مني القتلا » فقلت ولم يا ابا الفضل ؟ فنظر الي نظرة منكرة خفت منها وقال : (لما شعرت فراوني فحلا) ثم سكت هنيهة وقال :

قالوا علي كذبا وجهلا

اني مجنون فقدت العقلا

تالوا المحائ كذبا وجهلا

اقبح بهذا الفعل منهم فعلا

ثم ذهب لينصرف ، فخفت ان يؤذيه الصبيان ، فقلت اصبر فديتك حتى اقوم معك فأنتك مفضب ، واكره ان تخرج على هذه الحال ، فقال : سبحان الله اتراني انسبهم الى الكذب والجهل واستتبح فعلهم ، وتتخوف من مكافاتهم ، ثم ولى وهو يقول :

لست براض من جهول جهلا

ولا مجازيه بفعل فعلا

لكن ارى الصفع لنفسى فضلا

من يرد الخير يجده سهلا

قصة جنونه

عزوا ذلك الى قصة نسبوا فيها اليه عملا غير اخلاقي ادى الى ان يوصي ابوه بحرمانه من ارثه ، فلما مات الاب سمى الوصي فاستصدر حكما من القاضي بهذا الحرمان . قالوا : « فوسوس جعيفران واختلط منذ يومئذ » .

حديثه عن أساتته

وان صحت هذه القصة فهو نفسه يكرر الحديث عن أساتته ، ويفصلها تفصيلا لا مزيد عليه ، تفصيلا مروعا يرينا الحقيقة عارية صريحة . فحرمانه من المراث سبب له الفقر ، والفقر سبب له الهوان ، والهوان اغرى به الناس ، حتى لقد شاع جنونه فبلغ الصبيان . واية فرصة للصبيان ائمن من متهم بالجنون يعبثون به ويصيحون وراءه ويتضحكون عليه .

واي رجل يستطيع ان يصمد لجموع الصبيان المنطلقة في الازقة عاطلة لاهية ، تفتش عما تقتل به وقتها وترفه به فراغا .

اي رجل يستطيع ان يحتفظ بالعقل اذا مر في الطريق فتناولته سخريات الولدان وهزؤهم وتداولته ايديهم بالصفق ، واناملهم بالرشق ، وشفاههم ببذء النطق .

ولا ننسى ان للصبيان من يفريهم ولهم من يدلهم اذا تاهوا ، ويعلمهم اذا جهلوا ، لان له مصلحة في ان يضيع عقل الشاعر ويضطرب فكره .

تحدث جعيفران عن أساتته بلسان فصيح وعقل صحيح :

رأيت الناس تدعوني
بمجنون على حالي
وما بي اليوم من جن
ولا وسواس بلبال

ولكن قولهم هذا
 لافلاسي واقلالي
 ولو كنت اخا وفر
 رخييا ناعم البال
 راوني حسن العقل
 اهل المنزل المالي
 وما ذاك على خير
 ولكن هيبه المال

وهل ابلغ في البيان من هذا البيان ، على انه في
 ابيات اخرى ، كان اكثر انطلاقا بل كان على شيء كثير من
 الفلسفة التي شاء ان يأخذ بها نفسه فلا يبالي بما
 يقولون ، وان كانت مظاهر عدم مبالته هي في بواطنها مبالاة
 اي مبالاة .

وهل اكثر في انشغال بالك من ان تشغل بالك بان لا
 ينشغل ؟

رايت الناس ترمي—
 ني احيانا بوسواس
 ومن يضبط يا صاح
 مقال الناس في الناس
 فدع ما قاله الناس
 ونزع صفوة الكاس
 فتى حرا صحيح الود
 ذا بشر وايناس
 فان الخلق مفرور
 بامثالي واجناسي

يحيونني ويحبونني
على العيينين والراس
ويدعونني عزيزا فـ
مر ان الـذل افلاسي

ومن هذه الابيات نستدل على ان الناس لم يكونوا
كلهم قساة عليه ، فقد كان فيهم من يدرك حقيقة امره ويؤمن
بعقله فان كلمة (احيانا) التي اوردها في البيت الاول ترشد
الى ذلك ، كما ان مخاطبته لنفسه بان يدع (ما قاله
الناس) وان (ينازع صفوة الكاس) :

فتى حرا صحيح الود

ذا بر وايناس

يدل على انه لم يكن يعدم بين الفينة والفينة مثل
هذا الفتى الحر .

ثم هذا البيت الحكيم :

ومن يضبط يا صاح

كلام الناس في الناس

ولكن بعض من كانوا يجالسونه ، لما كانوا ينشدون
متعة المجلس وفكاهة الحديث ، ويستطيون بان يعثوا
به ويتضحوا منه ، انهم لم يكونوا يجالسونه على انه
شاعر قرين لهم في المجلس ، بل على انه مسلاة .

حضر يوما مجلسا ثم قام لحاجة له فقال بعض من
حضر : اي شيء معنى عشرتنا هذا المجنون ، والله ما
نأمنه وهو صاح . فظن جعيفران للمعنى فاقبل عليهم

منشدا :

وندامى اكلوني
 اذ تغيبت قليلا
 زعموا اني مجنون
 ارى العربي جيلا
 كيف لا اعرى وما أبـ
 صرفي الناس مثيلا
 ان يكن قد ساءكم قر
 بي فخلوا لي السبيلا
 وأتموا يومكم
 سركتم الله طويلا

وهكذا بلغت القسوة ببعض جلاسه ان يستنفدوا
 اطاريفه حتى اذا غاب بهتوه واستغابوه ، وقد كان اذكى
 من ان يفوته معنى نظراتهم ومرامي همساتهم . ثم
 اننا نرى من هذه الابيات انه كان يعيش بالي الاثواب في
 شبه عربي وقد اراد ان يسخر من الناس كما سخروا منه ،
 فلم ينسب عريه الى الفقر ولا الى الجنون ، بل الى
 انه فوق هؤلاء البشر ، فلا يجد مثيلا له يستحق ان يستتر
 منه ويتكلف له اللباس .

مع ابي دلف

واقبل يوما على ابي دلف العجلي ، ومدحه
 بشعر جهيل ، فلما له بكسوة وبالف درهم . فلما جيء
 بالنداهم اخذ منها عشرة وقل : تأمر القهرمان ان يعطيني
 الباقي مفرقا كلما جئت لئلا يضيع مني . فقال للقهرمان

اعطته المال ، وكلما جارك فاعطه ما شاء حتى يفرق الموت
بيننا فبكى جعيفران وقال :

يموت هذا الذي اراه

وكل شيء له نضاد

لو غير ذي العرش دام شيء

لدام ذا المفضل الجواد

وظل ابو دلف على احسانه اليه وصيانته له . حتى

افترقا بالموت . فكان مما انشده لابي دلف :

يا معدي الجود على الاموال

ويا كريم النفس في الضعال

قد صفتني عن ذلة السؤال

بجودك الموفى على الامال

صانك ذو العزة والجلال

من غير الايصال والليالي

وهكذا نرى ان ذاك الجاف المتوحش الذي يرى ان

الناس لا يستحقون ان يوارى سواته عنهم ، يعود هذا انسانا

رقيق الحاشية سهل الجانب ، ان الحاجة قد اوقفته على

الابواب بعقله وكرامته فثار لهما ، حتى اذا وجد من

صانهم له شكر ذلك شكرا عديم النظر .

ولا ندري من سبق صاحبه الى الموت ، ام سلت

جعيفران قبل ابي دلف ، ام مات ابو دلف قبله فلبتذله

السؤال من جديد ؟

صاحب تكتة بارعة

وهذا الشاعر البائس الحزين الشريد كان اذا اراد

النكتة بلغ فيها الغاية ، فقد تقدم من ابي يوسف القاضي بدعوى في شيء كان في يده من وقف ، وكان القاضي اعور ، فقضى القاضي عليه ودفعه عن الوقف . فقال له : اراني الله ايها القاضي عينيك سواء . فأخذه القاضي الى داره واطعمه واعطاه دراهم . ثم سأله : ماذا أردت بدعائك ؟ أردت ان يرد الله علي ما ذهب من بصري ؟

فقال : والله لئن كنت وهبت لي هذه الدراهم لاسخر منك لانك المجنون لا أنا . اخبرني كم من اعور رأيتك عمي؟ قال : كثير ، قال فهل رأيت اعور صح قط ، قال : لا ، قال : فكيف توهمت علي الغلط . فضحك وصرفه .

خاتمة المساة

وصورة موته تختم مأساة حياته خاتمة من جنسها ، فهي ترينا هذا الشاعر عليلا وحيدا في علته ، لا عائد له ولا طبيب ، ولا زائر ولا قريب ، تطحنه الاوجاع طحنا فلا يقر له قرار ، ويأخذ يدور في الدار ، ويظل يدور فيها حيران موجعا حتى يهوي ميتا . وهو في كل ذلك لا يرى غير الشعر متنفسا لكربسه ، فينشده وصفا لحياته وتعبرا عن الامه وغربته وسهاده ووحشته .

حدث عثمان بن محمد عن ابيه قال : كنت اشرف مرة من سطح لي على جعيفران وهو في داره وحده ، وقد اعتل وتحركت عليه السوداء فهو يدور في الدار طول ليلته ويقول :

طاف به طيف من الوسواس
 نمر عنه لذة النعاس
 فما يرى يأنس بالاناسي
 ولا يلذ عشرة الجلاس
 فهو غريب بين هذي الناس

حتى اصبح الصبح وهو يرددها ، ثم سقط كأنه بقلة
 ذابلة .

ومن العجيب ان هذا المتحدث لم تتحرك شفقتة ولم يثر
 حنانه ، فينزل الى هذا المريض فيسأله عما يشكو او يواسيه
 بكلمة طيبة او لمسة حانية ، بل ظل طول الليل ينظر اليه
 ويستمع له حتى هوى امام عينيه .

« فهو غريب بين هذي الناس »

هكذا صرخ جعيفران في آخر ساعة من حياته ، وما كان
 اصدقه صارخا .

ولكن ترى ، اكانت غربته هذه غربة العاقل بين
 المجانين ، ام غربة المجنون بين العقلاء ؟

الأيوان بين شاعرين

— ١ —

وقف البحتري على ايوان كسرى وقفة طويلة
جالت فيها عيناه في جوانب الايوان وتطلعت الى نقوشه
وصوره وترامت في جوانبه واركانه فادهشته فخامة البنيان
وروعة الفن وجلالة الصنعة ، فاستوحى خياله ولستنطق
شاعريته فجاءنا بقصيدته السينية الخالدة التي اشتهرت
كل الاشتهار .

وكما وقف البحتري على الايوان كذلك وقف
عليه بعد البحتري شاعر عربي شهير فارسل بطرفه
الى سواقه الشاهقة وتلفت الى بقاياها الهائلة فهاجت
شاعريته وفاضت قريحته فارفد الادب العربي بقصيدة
لم يكتب لها من الشهرة ما كتب لقصيدة البحتري
فظلت في ديوان الشاعر مغمورة بين قصائده الكثيرة قل ان
يذكرها ذاكر او يشير اليها مشير ، وهكذا تواتي الحظوظ
شعرا فيخلق في الاجواء وينتشر في الافاق . وتعاكس شعرا
فينزوي بين طيات الاوراق لا يرفع رأسا ولا يسمع همسا
فيضيع اي ضياع ! ويا لله وللحظوظ في الحياة كم رفعت
وكم وضعت وكم دفنت وكم نشرت ! ..

هذا الشاعر الذي عينته هو الشريف الرضي فقد

تقازفته النوى حتى حطت به على ايوان كسرى فنظم
 قصيدة من اجمل فصائد الشعر العربي ولكنها - ويا للأسف -
 ظلت مهملة اهمالا شائنا عظم تجد بين كتاب العربية
 ونقادها من لولاها عناية او اثار اليها اشارة مع ما فيها
 من الاحساس العميق والشعور السامي الذي يرفع
 صاحبها الى اسماى المراتب بين شعراء الامجاد العربية .
 وقف الشاعران على الايوان وتطلع كل منهما اليه
 بعينين تختلفان عن عيني الاخر ونظر اليه كل
 منهما بفكر بيانين فكر الاخر ، واثار الايوان في
 نفس احد الشعاعرين غير ما اثار في نفس الشاعر الاخر
 فجاءت قصيدتاها متباينتي الروح والعاطفة والغاية .
 فالبحتري كان وقوفه على الايوان شاعرا فحسب لم
 يهج فيه الايوان الا عاطفة الشعر فوصف ما شاهد وصف
 الشاعر المجيد الفنان فابعد في الوصف ما شاء الابداع
 واوحى له خلو الايوان من بنائه وانقراض حمايته
 عاطفة الاسى العميق فقال :

اتسلى عن الحظوظ وآسى
 لحل من آل ساسان درس
 ذكرتهم الخطوب التوالي
 ولقد تذكر الخطوب وتنسى
 وهم خافضون في ظل عاتل
 مشرف يحسر العيون ويخسى
 مفلق بابه على جبل الق
 بقى الى دارتي خلاط ومكس

فهو في هذه الابيات متذكر معتبر يتأسى عن
الجدود العائرة بالطول الداثرة فيذكر آل ساسان
وحياتهم الهنيئة في ظل الايوان وعيشتهم الرغيدة في ابهائه
وما كان لهم من سلطان اي سلطان . ثم هو يقارن بين هذه
الاطلال الساسانية الضخمة وبين الاطلال البدوية
التي شغلت شعراء الجاهلية فوقفوا عليها وبكوها
وفاض شعرهم بالتغني بها وترديد ذكرها فكانها يريد ان
يقول ان مثل هذه الاطلال هي التي يجب ان تشغل الشاعر
فيعوج عليها ويستنطقها اخبار الطاعنين لا اطلال
القفار البسابس التي لم يكن لها ان تشغل الشعراء
ذاك الاشغال :

حلل لم تكن كاطلال سعدي

في قفار من البسابس ملس

ثم يندفع الشاعر بوصف خلو الدار واقفارها حتى
كأنها ارماس او ماتم بعد اعراس .
ثم يشير الى ما تدل عليه هذه الاثار من عجائب
مشيديها وابداع موجدتها ثم يسهب بوصف ما فيها من النقوش
والصور الماثلة مجيدا في ذلك كل الاجادة :

وهو ينبيك عن عجائب قوم

لا يشاب الببان فيهم بلبس

فاذا ما رأيت صورة انطا

كية ارتعت بين روم وفرس

والنبا موائل وانو شر

وان يزجي الصفوف تحت الدرفس

في اخضرار من اللباس على اص
 غر يختال في صبيغة ورس
 وعراك الرجال بين يديه
 في خفوت منهم واغماض جرس
 من مشيح يهوي بعامل رمح
 ومليح من السنان بترس

وفي هذه الابيات تستدل على ما كان عليه
 الايوان من فن رائع كانت تتجلى فيه صور المعارك
 الحربية بين الروم والفرس وصور المدن التي وقعت
 فيها المعارك وصور ملوك الفرس بالبستهم الزاهية يقودون
 جيوشهم المنتصرة وصور المتقاتلين هذا يهوي برمحه
 وذاك يتقي بترسه الى غير ذلك من المشاهد المتنوعة .
 ويبلغ اعجاب البحتري بهذه الصور والنقوش اقصى
 الحدود حتى ليحسبها اشخاصا حية وحتى انه ليمعن في
 هذا الحساب فيغالط نفسه فيتقدم اليها ويلبسها ليتأكد من
 خمود الحياة فيها :

تصف العين انهم جد احيا
 ء لهم بينهم اشارة خرس
 يفتلي فيهم ارتيابي حتى
 تقراهم يداي بلميس

ثم يمضي البحتري على هذا النسق في الوصف
 والشعور والتوجع في تسعة ابيات ينتقل بعدها الى ما
 اصاب الايوان من كوارث وارزاء ثم لا ينسى ان يعزيه
 عما نزل به مشيرا الى ان ذلك لا يعيب عظمتة الخالدة
 ما دام لا يزال مشمخرا عالي الشرفات .

عكست حظه الليالي وبيات الـ
 مشترى فيه وهو كوكب نحس
 فهو يبدي تجلدا وعليه
 كل كل من كلاكيل الدهر مرس
 لم يعبه ان بز من بسط الـ
 باج واستل من سقور الدمقس
 مشمخرا تغلوا له ثمرات
 رفعت في رؤوس رضوى وقديس
 لابسات من البياض فما تب
 صر منها الا غلائل برس

وبعد ذلك يظهر البحتري دهشته فيسائل نفسه
 يستطيع الانسان ان يبدع هذا الابداع ام هي بدائع
 الجن للانس :

ليس يدري اصنع انس لجن
 سكنوه ام صنع جن لانس

ومهما يكن من امر فهو يؤمن ان اللبناني لم يكن
 ملكا خاملا ولا انسانا حقيرا بل هو بان كانت تغص نواديه
 بالوافدين وتعج مقاصيرهم بالقيان والمضين وهو من هؤلاء
 الملوك الذين سادوا الزمن فعنالهم ولتقاد اليهم فعاشوا
 حياة كلها رغد وهناء ورفاه وصفاء :

فكأنني ارى المراتب والقوم
 اذا ما بلغت اخر حسي
 وكان الوفود ضاحين حسرى
 من وقوف خلف الرخام وجلس

وكان القيمان وسط المقام

صير يرجحن بين حو ولعس

وكان اللقى اول من ام

س ووشك الفراق اول امس

وبعد كل هذا يبرز البحتري شاعرا فحسب لا يهه
من كل ما رأى الا انه مظهر حي يهز النفوس الشاعرة
الحساسة فتبكي العز الزائل والملك الهاوي وتشيد
بذكر الامجاد ايا كانوا :

عمرت للسرور دهرها فصارت

للتعزي رباعهم والتاسي

فلها ان اعينها بدموع

موقوفات على الصباية حبس

ذاك عندي وليست الدار داري

باقتراب منها ولا الجنس جنسي

ثم يعقب على ذلك بيته الختامي الذي يظهر فيه

مذهبه الشعري الانساني :

واراني من بعد اكلف بالاث

راف طرا من كل سنخ واس

— ٢ —

يستهل الشريف الرضي قصيدته استهلالا فروسيا
جميلا تتجلى فيه روحه الوثابة وتبرز سجاياه السماء
بل تبدو احساساته المكتوبة وعواطفه المقهورة . فالرضي
فتى ملء برديه الرجولة التواقفة الى العلياء الطماحة
الى المجد وقد اجتمع له من كريم نمبه ونبل خلالته
وسمو مكائنه ما جعله يأنف حياة الدعة والخمول وعيش

الصفار والهوان . وتحكم في عصره بالناس من هم دونه
كفاءة وشهامة وحسبا ونسبا فحاول ان يشق طريقه فاقعده
الزمن وردته ظروفه فظل مهضوما مغيظا يفرج كرباتـه
بالشعر :

قربوهن ليعدن المغارا
ويبدلن بدار الهون دارا
واصطفوهن لينتجن العلى
بالعوالي لا لينتجن المهارا

انه يترنم بالخيـل ويهتف باسمها ويصرخ برهطـه
ليقربوها اليه !... وماذا في الخيل ؟... ان فيها
مظاهر القوة والعظمة ، مظاهر النضال والكفاح مظاهر
الفروسية الباسلة . والشريف يرى نفسه رجل الخيل
المفريات وقد حيل بينه وبين اعنتها فهو يزغر من اعماق
صدره هذه الزفرة الحماسية جامعا فيها ما يتأكل نفسه
من الحرمان المرير ومضمنا لها ما يجول في خاطره من التوثب
الى معالي الامور فهو وقد وقف على ايوان كسرى لا
يتغزل بالحسان الساحرات ولا يستبكي للاطلال الدائرات
بل يفتتح قصيدته بدعوة الخيل لا للتسلي باعنتها ولا للتلهي
بصهواتها بل للغارات البعيدة ولتبدل له بدار الهون
التي تأويه دار العز التي يطمح لها فهو يرى انه
انما يحيى في دار الذل ومنزل الضيم بالرغم مما كان
يحاط به من تكريم واعظام . وماذا يغنيه هذا التكريم
والاعظام اذا كان لا يزال بعيدا عن مطامحه العليا . واذا
كان غيره يسموه مرتبة وسلطانا ..

وتراه في البيت الثاني يعلن زهده بالمادة فهو لا يريد

الخيال لتنتج المهار بل لتنتج له العلى .

وبعد ان يمضي الرضي في واحد وعشرين بيتا
يضمنها نوازعه وخواطره يصل بنا الى ذكر الايوان .
فيخبرنا انه نزل فيه دارا لم تكن دار ذل وان بناته كانوا
ذوي مجد رفيع استقلوا فيه عن الناس وشغلوه
عن ان يعار لغيرهم :

قد نزلنا دار كسرى بعده

اربعما ما كن للذل ظوارا

اسفرت اعطائها عن معشر

شغلوا المجد بهم عن ان يعارا

تصف الدار لنا قطانا

المعالي والمساعي والنجارا

وهنا يتجلى انصافه واعترافه بالحق فهو بالرغم من
نزعتة القومية المتحمسة لا يبخس الناس اشيائهم ولا
يغض من ذوي المواهب بل يتكلم عن الناس بما كانوا عليه
فقد وصفت له الدار قطانها فهي باذخة البناء رحيبة الغناء
وهي محكمة الصنعة متقنة العمل وهي في كل ذلك ناطقة
بوصف من ابدعوها وحلوها تخبر عنهم بلسان فصيح
ولغة واضحة .

ثم نراه يلم بما اصاب هؤلاء القطان من نزول عن
مجدهم واضمحلال لامرهم فهو يرى ان الدهر استرد منهم
ما اعارهم ليعيره الى غيرهم فكأنما نعم الحياة عاريات
يجود بها الدهر على ناس ثم يبدو له فيستردها ليجود بها
على آخرين وهكذا تتداول الامم المجد فيما بينها .

آل ساسان حدا الخطيب بهم

واسترد الدهر منهم ما اعسارا

بعدهما شادوا البنى ترفعها

عمد المجد قبابا ومنارا

كل ملموم القرى صعب الذرى

يزلق العقبان عنه والنسارا

ثم ينتقل الى وصف الايوان كما رآه في عهده ولكنه لا يصف لنا صورته ونقوشه ولا يتحدث عن عجائب صنعه وبدائع فنه بل ان ذلك لا يشغل ذهنه ولا يثير اهتمامه فلا يسترسل كالبحتري في وصف دقائقه بل يعطينا صورة اجمالية عنه تماثل النفس رهبة ووحشة :

حمل الدهر النى ان زده

ضاغط العيب ضلوعا وفقارا

مطرقا اطراق مأمون الشذا

غمر السنادي حلما ووقارا

او مليك وقع الدهر به

فاملط الطويق عنه والسوارا

أوهنت منه الليلالي فقورة

لا يلاقى وهنهما اليوم جبارا :

اذن فلم يكن يهم الرضى ان يستوفى وصف الايوان فنحن لا نستطيع ان نتعرف من قصيدته الى حال الايوان يومذاك ولا الى ما كان لا يزال مطلقا ممن زخارفه فكلن الرضى لا يعنيه ان يسهب في ذلك بل هو يريد ان يسمخج العبرة من موقفه هذا فيتعهد عن حملة الدهر على الايوان حتى تركه « ضاغط العيب

ضلوعا وفقارا .

ثم يصوره تصويرا فنيا رائعا يتخيله مطرقا برأسه
اطراق الذي كان له صولة فزالت وامن الناس نفعه وصره
فهو مطأطء الهامة اسفا على ماضيه وتفكرا بحاضره ،
ولكن هذا الاطراق المحزن لا يذهب بوقاره وحلمه فهو
— على شجاه — يملأ النادي حلما ووقارا . وهو على
ما نزل به لا يزال محتفظا بجلاله وهيبته . ثم يشبهه بملك
وقع الدهر به وحلت كوارثه في ساحته فسلبته ملكه
واماطت عنه تاجه وزهبت بطوقه وسواره فهو لا يزال كما كان
رجلا كامل الهيئة ولكنه عاطل من حلل الملك وحليه وكذلك
الايوان فهو لا يزال قصرا شامخا ولكنه خال من كل ما كان
له من شأن .

وهذه الابيات هي كل ما يظفر به الايوان من الشريف
الرضي من الوصف ثم ينتقل بعدها الى ما يريده من
اغراض قومية فيسائل اين معالي الايوان الجمة واين
حماه الافيح واين رجاله الذين غلبوا الناس :

اين لا اين المعالي جمة

والحمى افيح والراي مغارا

ورجال شدخت اوضاحهم

غلبوا الاعناق منا واسارا

فيجيب عن ذلك بجواب تتجلى فيه نزعة القومية

وروحه الاملاية واضحة جليلة :

عمروا لم يعلموا ان لنا

جائز الامر عليهم والامرا

ثم هو يشير الى ما كانت عليه الامم المجاورة للعرب
من النظر اليهم بنظر الاستهانة وقلة الاكتراث غير
عالة بما وراء هذا الهمود من الاندفاع العجيب ولا حاسبه
بان تلك الامة الممزقة الراي المقطعة الاوصال ستهب
هبة تدهش الدنيا :

قدروا جد نزار واقفا

ومشى الجد فما عزوا نزارا

ثم يصف الوثبة العربية العظيمة وما رافقها من
بطولات وتضحيات وكيف اذهلت الناس فنعوا لها مستسلمين .

لاؤذوا لما راوا من دونهم

واذا يلقي به السيل غمارا

عابوا الضرب دراكا في الطلى

يعجل الناس والطعن بدارا

ثم يشبه العرب بالاسد يهب مصحرا بعد طول الحذر :

اصحر الليث العفرنى فانثنى

يطلب اليربوع في الارض وجارا

وبعد هذا الاعتزاز بقومه والتفاخر بامته يتحدث عما
افضت اليه نهضة العرب وعن رسالتهم الاسلامية التي
حملوها الى الافاق تجلو دياجير الشرك وتمحو معالم
الوثنية وتشر التوحيد حيث حلت :

قهروا الشرك على اعقابيه
 بعدما استقدم غيا وضرارا
 واثاروا الدين من مريضه
 واطاروا عن مجاليه الخمارا
 دايخوا المجد باطراف القنا
 فغدا عينا وقد كان ضمارا

المرأة في حياة المتنبي وشعره

هل كان للمرأة في حياة المتنبي اثر من بعيد او قريب
 وهل كان لها في شعره توجيه خاص ، وهل بدت على هذا
 الشعر صبغة لها مساس او بعض مساس بها ؟
 لا بد لنا قبل التوغل في الجواب من ان نفرق في موضوعنا
 بين المرأة اما وبينها زوجة او حبيبة ، اذ لكل اثره الخاص
 وناحيته التي لا تشبه ناحية الاخر . فماذا كان تأثير الام
 على المتنبي ؟ كل ما عرفناه عن ام المتنبي انها كانت
 همدانية صحيحة النسب من صلحاء النساء الكوفيات (١)
 ومهما اراد الدكتور طه حسين ان يحيط بمولد المتنبي
 من الشذوذ (٢) ومهما اردنا ان ندفع هذا الشذوذ فلا ريب
 انه لم يكن لام المتنبي اي اثر لا في حياته ولا في شعره ،
 بل ان المتنبي الذي تغنى بجدته لم يشر الى امه اشارة
 ولم يولها ذكرا . والدكتور طه حسين محق حين يقف طويلا
 امام هذه الظاهرة فيتساءل عن السر فيها . ولكننا لا يمكن
 ان نذهب معه الى النتيجة التي وصل اليها من ان ذلك
 انما كان لان مولد المتنبي كان شادا ! ولماذا كان شذوذ
 مولد المتنبي هو السر في ذلك ، ولا يكون السر فيه هو ان

١ - انساب السمعاني وتاريخ بغداد .

٢ - مع المتنبي .

المتنبي لم ينعم بتلك الام ففقدتها قبل ان يعرف المجتمع وينغمس في الحياة ؟ اكبر الظن ان ام المتنبي قد غارقت الدنيا قبل ان يقدر لابنها التعرف عليها والتمتع بعطفها وحنانها ففركته لامها ، فكانت امها له اما ، وكلمتنا عاطفة البنوة ملتهبة فيه لجدته ، لانه لم يعرف غيرها اما ، واذا لم يكن الامر كذلك فلماذا يذكر المؤرخون شوق جده اليه ولا يذكرون شوق امه ، ولماذا يعنى برثاء جدته ولا يعنى برثاء امه ؟

ومهما كان مولد المتنبي شاذاً — على رأي الدكتور طه حسين — فان هذا الشذوذ لن يحول دون شوق الوالدة الى ولدها ولن يحول بين رثاء المتنبي لامه لو كانت هذه الام حية عندما كان ابنها شاعر العرب ومهما يكن من امر فالذي لا ريب فيه هو ان ام المتنبي بعيدة عن كل اثر في حياته وشعره ، وقد حلت محلها في هذا الاثر امها فكان من تأثيرها في شعره تلك القصيدة الرثائية الخالدة التي قيل عنها : (انه ورد عليه كتاب من جدته تشكو شوقها اليه وطول غيبته عنها فتوجه نحو العراق ولم يمكنه وصول الكوفة فانحدر الى بغداد ، وكانت جدته قد يئست منه فكتب اليها كتابا يسألها المسير اليه فقبلت كتابه وجمت لوقتها سرورا به وغلب الفرح على قلبها فقتلها) (١) .

ونحن لا تهمننا العلة التي ماتت بها الجدة ولا فرق لدينا اذا كانت هذه العلة هي الفرح او الحزن او اية علة اخرى ما دامت قد ماتت قبل ان يراها ابن ابنها وبعد

ان اوشك ان يراها ، وقد كان المتنبى وهو الشاعر الحساس
المتلهب الشعور المتأجج القلب كان حريا به ان يخلد هذا
الموقف الرائع بمثل ما خلده به من الشعر الذي لا يزال نحس
فيه احزان المتنبى وآلامه والذي لا يزال على تطاول
العهد به مضرب المثل في الاسى العميق والشجن
الدامي ، ومن ذا الذي لا يهزه هذا القول :

احن الى الكاس التي شربت بها

واهوى لمثواها التراب وما ضما

واذا كان المتنبى ينادي بانه يحن الى الكأس التي
شربت بها جدته فما كان ذلك لان الجدة قد ماتت وملكه عليها
الحزن فحسب ، بل كان ذلك لان نفس المتنبى كانت في ذلك
الحين قد امتلأت هموما ، ولان الزمن كان قد
جرعه امر الغصص ، ولانه كان قد رأى بعينه انهيار آماله
في الحياة واهل الحياة ، ولانه كان قد وصل الى حال اصبح
يحن معها الى ورودكأس المنية ، ثم فوجيء بموت
القلب الذي كان يرى انه وحده يخفق بحبه ، وانه وحده الذي
يستروح اليه ويعتمد عليه فصاح من اعماق قلبه
في ساعة يائسة (احن الى الكأس التي شربت بها) وها
هو نفسه يزيد هذه الفكرة وضوحا وجلاء فيقول :

عرفت الليالي قبل ما صنعت بنا

فلما دهنتني لم تردني بها علما

فهو قد قاسى من صروف الليالي ما جعله سيء
الظن بها وما جعله لا يترقب منها الا الشر ، فلما اتته هذه
الداهية لم يفاجأ بها ولم تزده علما بما يحمله له الزمن
من خبايا المصائب والمحن . ثم هوذا يمعن في الايضاح والجلاء

فيصور خيبة امانيه وتلاشي احلامه ، فلا ولاية ولا سلطان
ولا حشم ولا اتباع بل حظ عائر ويأس قاتل :
طلبت لها حظا ففاتت وفاتني

وقد رضيت بي لو رضيت بها تقسما

وهكذا بعد ان طوف في البلاد وراء (الحظ) ،
فاته هذا الحظ وفاتته كذلك هذه الجدة الرؤوم ونحن نلمس في
عجز البيت حسا من الندم الخفي على تلك المغامرات
والضرب في الفلوات وراء الحظ المنشود ونلمس روحا من
الاسف المكبوت على ان لا يكون قد قنع فلم يجازف ورضي
فلم يندفع ، وعلى ان لا يكون قد عاش الى جانب تلك
الجدة خلي البال من المطامح بدلا من ان يعيش الى
جانب اولئك الذين لم يعرفوا حقه ولم يجيبوا سؤاله ، ولا
ادل على هذا الندم والاسف من البيت الذي يليه :

فاصبحت استسقي الغمام لقبرها

وقد كنت استسقي الوغى والقنا الصبا

ولا نريد ان نسترسل في النظر بهذه القصيدة ، وانما
نكتفي بالقول انها صورة حية لما كانت عليه نفس المتبني
من الحزن والكمد ، وانها مظهر واضح لما كان فيه من التبرم
بالناس والحياة وان وفاة جدته كانت مفجرا لعاطفته ، فارسل
نفسه على سجيتها فبكى فيها بكاء مرا :

حرام على قلبي السرور فانني

اعد الذي ماتت به بعدها سما

وما انسدت الدنيا علي لضيقها

ولكن طرفا لا اراك به اعمى

نوا اسفيا ان لا اكب مقبلا
 لرأسك والصدر المدي مليا حزبا
 وتحدى الناس تحديا صارخا :
 لئن لذ يوم الشامتين بيومها
 فقد ولدت مني لانفهم رغما
 تغرب لا مستعظما غير نفسه
 ولا قابلا الا لخالقه حكما
 يقولون لسي ما انت كل كل بلدة
 وما بتغفي ، ما ابتغي جل ان يسمي
 كأن بنيتهم عالمون بانني
 جلب اليهم من معادتك اليتيم
 واستهتر بالدنيا وما فيها :
 كذا انا يا دنيا اذا شئت فاذهبي
 ويا نفس زيدي في كرائها قدما

هذا هو اثر المرأة الام ، او على الاصح المرأة الجدة ،
 في شعر المتنبي ، فما هو اثر الزوجة والمرأة الحبيبة في
 حياته وشعره ؟

اذا كان قد وجد بين المؤرخين من يذكر ام المتنبي
 فيقول انها همدانية من صلحاء نساء الكوفة ، فانه لم
 يوجد بينهم من يذكر زوجته او يتحدث عنها بشيء ، فنحن
 لا نستطيع ان نعرف في اي زمن تزوج المتنبي ، ولا في
 اي طور من اطوار حياته ، ولا في اي بلد من البلاد التي
 نزلها ، بل ان الغموض ليكتنف هذه النقطة من تاريخه كل
 الاكتناف ، وليس لدينا شيء واضح عنها ، غير انه كان
 له ولد سماه (محسدا) اما من هي ام محسد ، وكيف

اتصل بها المتنبي ، وأين اتصل ، وكيف كانت حياته معها؟ فانا لا نستطيع الاجابة به على شيء من هذا . فهل عاشت معه في بلاط سيف الدولة ؟ وهل انتقلت معه الى مصر ؟ وهل ذهبت الى ارجان وشيراز ؟ وهل امتدت بها الحياة بعده ام ماتت قبله ؟ كل ذلك لا يجيبنا عنه التاريخ بشيء ، ولكن امر واحدا يستوقف النظر ، هو ان الذين ذكروا مقتل المتنبي ذكروا ان محسدا كان يصحب اباه في عوده من فارس الى العراق ، ولكننا لا نعرف السن التي كان فيها محسد ، كما اننا لا نعرف اين كانت ام محسد في ذلك الحين . على اننا نستطيع التأكد من انها لم تكن تصحبه في تلك الرحلة القانية ، لانها لو كانت تصحبه وقتل زوجها وولدها لسمعنا عنها خبرا ، ولروى ابو نصر الجبلي للخالدين عنها شيئا ، فيا ليت شعري هل كانت لا تزال على قيد الحياة تنتظر اوبة زوجها وولدها وتستعد لاستقبالهما بعد الغياب الطويل ؟ هل كانت ام محسد في الكوفة تترقب عودة ابي محسد ومحسد فتبثهما لواعج الوجد والشوق وتفضي اليهما بما في الصدر من هوى وحنين ؟ ام كانت في مكان آخر تستطلع اخبار الغائبين العزيزين متوقعة ما يحملانه لها من مجد ورفاه ومال ؟ اجل هل كانت حية تنتظرهما ام كانت ميتة من عهد بعيد او قريب فلم يفجعا موتها الدامي ؟

كل ذلك سر في ضمير التاريخ لم يكشف عنه لاحد . ولكننا نتساءل : هل يمكن ان تموت في حياة زوجها ، ثم لا يرثها بكلمة ولا يبكيها بقصيدة بعد ان رأينا شدة تفجعه على جدته وطول حرقة لوتها ، و نحن يعيننا في مقالنا هذا ان

نعرف مدى تأثيرها في حياة المتنبي وفي شعره ، وبعد كل
الذي مر ندرك اننا لا يمكن ان نجد لها اي اثر في حياته ولا
في شعره .

اما ما كان من تأثير الحبيبة في المتنبي فذلك ما سنجيب
عليه في مقال تال .

الحب عند المتنبى

هل احب المتنبى وهل احس بلواعج الوجد وتباريح
الغرام ؟ هل استطاعت امرأة ان تخلق لبه وتفتن قلبه ، فيشيد
بها ويتغنى بجمالها ومحاسنها ؟

اذا اردنا ان نتخذ شعر المتنبى دليلا على ترجيح
السلب او الايجاب ، واذا اردنا ان نرجع الى ديوانه لنفدلي
بالجواب ، فاننا نستطيع ان نقول بدون تردد ان المتنبى
لم يعرف الحب ولم يعانه ، فالذي يقول :
وما العشق الا غرة وطماعة

يعرض قلب نفسه فيصاب

وغير فؤادي للغرام رمية

وغير بناني للزجاج ركاب

ان الذي يقول هذا القول لا يمكن ان يكون من اهل الحب
بل هو من الهازئين بالحب واهله المشنعين عليهم الرامين
لهم بالضعف ، فالحب عنده غرة وطماعة ، وليس من
رايه ان القلب يرمى من حيث لا يحتسب ، بل من رايه ان
القلب هو الذي يعرض نفسه لهذه الغرة والطماعة فيصاب .
ولو شاء هذا القلب الا يصاب لما اصاب وهذا قلبه فانه لم
يشأ ان يصاب فلم يصب . ولم يسكت المتنبى عند هذا
القول ، بل رده في مواضع شتى فقال :

مما اضر باهل العشق انهم
هووا وما عرفوا الدنيا وما فطنوا

تفنى عيونهم دمعاً وانفسهم
في اثر كل قبيح وجهه حسن

فالذي يراه المحبون حسناً فتفنى عيونهم به وتذوب
نفوسهم ليس الا الوجوه فقط ، واما النفوس فانها قبيحة
لا خير فيها ، ولو انهم اطلعوا على ما وراء هذا الحسن
الخادع لما اضر بهم عشقهم ، ولكنهم احبوا وعشقوا ، دون
ان يمعنوا في التأمل بحقائق الدنيا ، فلم يعرفوا دخائل من
احبوا ، ولم يفطنوا الى ما ينطوي عليه من غدر ومخاتلة وخداع .
وهذا الرأي القاتم متأث ولا شك عن نظرة المتنبي للناس
عامة ذكورا واناثا ، فلا تحسب المرأة ان المتنبي من اعدائها
وحدها ، فهو ثائر على الكون ناقم على البشر جميعا ،
لانه يرى نفسه مهتضما مغيظا لا يبيل له اوام ولا يجلب نداء ،
وهذا الرأي هو صدى لرأيه القائل :

ومن عرف الايام معرفتي بها

وبالناس روي رحمة غير راحم

وبعد ان يعلن المتنبي رأيه في العشق واهل العشق
يلتفت الى المغانيات المغريات فيجبههن باعنف القول وامر
الكلام ويخاطبهن بقسوة وتحكم صارخا بهن :

تحملوا حملتكم كسل فاجية

فكل بين علي اليوم مؤتمن

فلا التهديد بالرحيل ولا الوعيد بالهجر ، استطاع
ان يلين قلبه ويميل به الى الهوى بل اعلن بان البين لن يضيره ،
وان النأي لن يزعجه . ولماذا يهتم ببعدهن ويشغل نفسه

بهن ، ولماذا يحزن لفراقهن ويأسى على رحيلهن ما
 دامت مهجته وحدها التي مستحبل عبء ذلك كله ، وما
 دام لن يجد لهذه المهجة اذا ذابت شوقا وتلاشت حيننا —
 لن يجد عوضا عنها في الطعائن وثمنا لها في الهوادج
 ما في هوادجكم عن مهجتي عوض
 ان مت شوقا ولا فيها لها ثمن

وان الذي يقول :

وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق
 محتقري همتي كشعرة في مفرقي
 والذي يقول عن نفسه وعن الناس :
 ودهر ناسه ناس صفار

وان كانت لهم جثث ضخام

وما انا منهم بالعيش فيهم

ولكن معدن الذهب الرغام

ان الذي يقول هذا القول لا يكون عليه غريبا ان يرى
 مهجته اسمى من ان يذيبها شوق لمخلوق ، ونفسه اعظم
 من ان يقتلها حب لانسان .

واذا كنا قلنا آنفا ان المتنبي ناغم على الناس جميعا
 وان ثورته ليست على المرأة وحدها ، فهذا لا يعني ان
 ليس له فيها نظرة خاصة فقوله :

اذا غدرت حسنساء وقت بعهدها

فمن عهدها ان لا يدوم لها عهد

وقبوله :

ومن خبر الخواني فالخواني

ضياء في بواطنه ظلام

ان هذا القول صراحة في تخصيصه اياها بالشطر الوافي
من حملاته على بني الانسان وصراحة برأيه السيء
بها ، بل ان هذا القول يضعه في صف خصومها الالـداء
واعداؤها الاشداء . على انه ربما كان احسن وصفها
كل الاحسان وانصفها كل الانصاف حين قال :

وان عشقت كانت اشد صباية

وان فركت فاذهب فما في فركها قصد

وان حقدت لم يبق في قلبها رضى

وان رضيت لم يبق في قلبها حقد

ولكن المتنبى صاحب هذه الراء القاسية في المرأة
والغرام لم يستطع ان يجرد شعره من الغزل فقد اغتتـح
كثيرا من قصائده بالغزل وتحدث عن الحبو النساء وتظاهر
بالهوى وشكوى النوى ، وشارك العاشقين في بث الوجد
وذكر الوصل والصد ، حتى انه اغرق في ذلك احيانا
اغراقا حاول فيه ان يتسمى بالعاشق كل العاشق :

وما انا الا عاشق كل عاشق

اعق خليليه الصفيين لائمـه

وان يجعل عشقه فوق كل عشق :

وطرف ان سقى لعشاق كاسا

بها نقص سقانيها دهاتا

وان يكون شاعرا غزلا :

احيا وايسر ما عانيت ما قتلا

والبين جار على ضعفي وما عدلا

فهو يتحدث عن حب قاتل يعجب معه كيف يبقى
حيا ، ويتحدث عن بين جار عليه فلم ينصف ضعفه . ولا

يقتصر على هذا الحديث الاجمالي عن الحب بل يعود
فيخاطب حبيبة بعينها فيتضرع لها تضرع الولهان :

بما بجفنيك من سحر صلي دنفا

يهوى الحياة واما ان صددت فلا

ثم يسهب بوصف عواطفه الغامضة في عدة ابیات
يصل بعدها الى ما اراده من مدح احد الناس وينتهي
الامر . وهكذا يبدو غزله بوجه عام ، فهو اما ان يرتفع
قليلا او كثيرا ، ومهما ارتفع او انحط فهو غزل لا طائل تحته ،
ولا عاطفة تذكیه ولا شعور يوریه ويسف احيانا كل
الاسفاف فيقول :

اوه بديل من قولتي واها

لمن نات والبديل نكراها

اوه لمن لا ارى محاسنها

واصل واها واوه مرآها

والمتنبي نفسه يعلن رايه في هذا الغزل الفاشي
في بعض قصائده ولا يحجم عن ان يقول انه سير على سنن
غيره من الشعراء ، وان طريقة الشعر قد اقتضت هذا ، وان
افتتاح القصائد بالغزل ليس دليلا على الحب والغرام :

اذا كان مدح فالنسيب المقدم

اكل نصيح قال شعرا مقيم

وكان المتنبي صاحب الدعوة ضد الحب والمرأة قد
خشى ان يؤخذ عليه غزله وان يعتبر تناقضا مع ارائه
الصريحة فاعتذر عن هذا الغزل واعلن حقيقته ، وانه ليس
في الواقع الغزل الذي عرفه الناس ونظمه الشعراء ، بل
هو غزل رمزي يخفي تحته شعورا غير شعور الغرام ،

فوحبنا لغير المرأة ، وشعفا بغير ثنائياها الفرس واحداقها
 لنجل ، فبعد ان امتتح قصيدة بالفزل المألوف عاد يقول

حبيب كنى بالبيض عن مرهفاته
 وبالحسن في اجسامهن عن الصقل
 وبالسمر عن سمر القنا غير انني
 جناها احبائي واطرافها رسني
 عدمت فؤادا لم تبت فيه فضيلة
 لغير الثنايا الفرس والحدق النجيل
 فما حرمت حسناء بالهجر غبطة
 ولا بلغت من شكا الهجر بالوصل

وهو في بيته الثالث عفيف مشدد وفي بيته الاخير
 مستهزىء بلذائد الرهال مبهتتهر بالهجر لا يرى ان غضب
 الحسناء وهجرها يمكن ان يحرم المرء اية غبطة ولا ان
 وصلها يمكن ان يجلب اية سعادة وهذا قسى مظهر
 من مظاهر ارائه الصلبة . على اننا لا نستطيع ان نجرد
 جميع غزله من العاطفة والشعور فلا شك ان في القليل
 من بعضه عاطفة جياشة وحسنا نابضا ولكن ليس الحب
 وليست المرأة هي مصدر ذلك ، بل هي ذكريات ايام
 سواف واثمواق التي منازل نائية واهل بعيدين كسان
 يقول :

ما لاح برق او ترئم طائر
 الا لتثنت ولي فؤاد شينق

او يقول :

وكيف التذاذي بالاصائل والضحي
 اذا لم يعد ذاك النسيم الذي هبها
 فيا شوق ما ابقى ويا لي من النوى
 ويا دمع ما اجرى ويا قلب ما اصبى
 او يقول :

ليالي بعد الظاعنن شكول
 طوال وليل العاشقين طويل
 بين لي البدر الذي لا اريده
 ويخفين بدرا ما اليه سبيل
 وما عشت من بعد الاحبة سلوة
 ولكنني للنائبات حمول
 اذا كان شم الروح ادنى اليكم
 فلا برحتني روضتو قبـول
 وما شرقي بالماء الا تذكر
 لماء به اهل الحبيب نزول

وما ادرانا ان لا يكون وهو يرسل هذا الشعر وامثاله
 انما يذكر تلك العجوز الذي راينا اشفاقه عليها
 وشغفه بها في رثائه لها ، وانه يذكر ايام صباه الماضية
 في بلده وبين اهله وقومه :
 اما الاحبة فالبيداء دونهم

فليت دونك بيد دونها بيد
 ولا بد لنا ونحن في الحديث عن غزله من ان نلم
 بالابيات الجميلة التي تغزل فيها بالاعرابيات
 وعرض بالحضريات :

ما اوجه الحضر المستحسنات بها
 كأوجه البدويات الرعايب
 حسن الحضارة مجلوب بتطرية
 وفي البداوة حسن غير مجلوب
 اين المعيز من الأرام ناظرة
 وغير ناظرة في الحسن والطيب
 افدى ظباء فلاة ما عرفن بها
 مضع الكلام ولا صبغ الحواجيب
 ومن هوى كل من ليست موهة
 تركت لون مثنوي غير مخضوب

ولا شك ان هذا الغزل البدوي ، والتظاهر بالشغف
 بالاعرابيات انما هو اثر من آثار النعمة على المرأة فقد
 اتخذ من بساطة البدويات وسيلة للحملة على غادات
 المدن وانشغالهن بالزينة والتطرية والتجمل فتهم على
 اصباغهن ومساحيقهن ، و هذا بمضغهن الكلام وشبههن
 بالمعزى ، وعاب عليهن تمويه الحقائق وجردهن من كل
 محمودة وحسن ، ومع ذلك ومع انه اتخذ الاعرابيات ترسا
 يتوارى وراءه في الهجوم على الحضريات فان سجيته ابت
 الا ان تتغلب عليه فلم يستطع ان يترك ثناءه على نساء
 البدو خالصا لا شائبة فيه ، بل عاوده داؤه المزمع في الغضب
 على الجنس البشري والنعمة على بني الانسان فغمز
 من البادية واهل البادية غمزة قاسية :

فؤاد كل محب في بيوتهم
 ومال كل اخذ المال محروب

عندما كان المتنبى طالب وظيفة

يروى انه لما عوتب كافور الاخشيدي على عدم تلبية طلب المتنبى قال : (يا قوم من ادعى النبوة بعد محمد اما يدعي الملكة مع كافور ؟) .

اما ان ابا الطيب ادعى النبوة بعد محمد فذلك امر لم يثبت ، ودعوى لم يقيم عليها برهان . واما ان يدعي الملكة مع كافور فلا ندري ما الذي ينكره كافور في المتنبى مما يحول بينه وبين مشاركته له الولاية في زمن هانت فيه الولايات حتى وليها مثل كافور ، ولا ندري ما الذي كان يريده كافور في الرجل لكي يصبح اهلا للولاية ، واذا كان احمد بن الحسين وهو العربي الكريم والعبقري العظيم لا يحسن للولاية فلا ندري من هو في نظر كافور كان يحسن لها ! .. وقد كان عيب المتنبى عند كافور انه : (راي تعاليه في شعره وسموه في نفسه) (١) ولو انصف كافور لوجد في هذه الصفات ما يحمله على احترام المتنبى واجابة رغباته ، و لكن الدهر الذي اوصل كافور للحكم وترك ابا الطيب طريدا من بلد الى بلد يفتش عن الرزق ويسعى للكرامة هو دهر يصبح منه تعالي الشعر وسمو النفس ذنبا

يعاقب صاحبه بالحرمان وهو دهر فهمه ابو الطيب
حق الفهم عندما قال :

ودهر ناسه ناس صغار
وان كانت لهم جثث ضخام
ولم ار مثل جيرانى ومثلى
لمثلى عند مثلهم مقام
بارض ما اشتهيت رايت فيها
فليس يفوتها الا الكرام

ومن المؤسف ان فريقا من مؤرخى الادب القدماء
والمعاصرين قد تابعوا كافورا في رأيه وانكروا على ابي
الطيب تمسكه بطلب الولاية وعدوا ذلك منه اشتطاطا وغرورا
لحسبانهم انه طلب الولاية للولاية والحف في السعي لها
حبا بالسيطرة والسلطان والواقع ان ابا الطيبو قد رأى
من لؤم الزمان ما رأى وعانى من نذالة الايام ما عانى
انما كان يطلب (وظيفة) تغنيه عن الوقوف على
الابواب وتكفيه مداراة من لا يستحق المداراة وتمنع عنه
اذى الطامعين في مدحه ممن لا يستحقون المدح والواقع
انه وقد لوحق سيف عند سيف الدولة تلك الملاحقة القاسية وكابد
من شغب الشاغبيين كل صعب مرير راح يفتش عن منجى
يحفظ عليه رزقه موفور الكرامة عزيز الجانب ولم يجد
ذلك الا في عمل يليه فيتخلص به من متاعب الحياة وكوارثها .
فهو قبل ان يصل الى سيف الدولة كان قد ذاق من
الحياة الامرين فطورد وسجن وكان من تقدير بعض
حكام عصره لشعره ان جاد عليه بدينار جزاء انشاده قصيدة
في مدحه فلما وصل الى سيف الدولة عرف انه وصل الى

حمى الملك العربي الذي يفهمه ويقدره وعرف انه وصل الى السيد الذي يلذ فيه القول ويطيب لسجاياه المودح وعرف انه وصل الى الرجل الذي كان ينشده ويسعى اليه . . . ومن يكون هذا الرجل اذا لم يكن سيف الدولة بطل العرب ورمز سيادتهم وعنوان عزهم في عصره ، فاذا ما مدحه المتنبى واثى عليه فانها يمدحه ويثني عليه لا متكلفا ولا متصنعا ولكنه يفعل ذلك متأثرا بمنافق هذا الممدوح الذي زاد عن حمى العروبة والاسلام اي زياد . والذي استطاع ان ينشئ الدولة العربية الفتية في ذاك الخضم الاعجمي الزاخر : لقد كانت بطولة سيف الدولة وشخصيته الفذة خير مثير لقريحة المتنبى الفياضة وكانت معارك علي بن حمدان افضل ما يهيج شاعرية احمد ابن الحسين فحمد المتنبى مقامه وثار لادبه الفذ بهذا الحاكم الالمعي مما ناله من ذلك الدناكم الغبسي وحسب ان الامر سيطول به قرير العين رضي النفس ولكنه احيط بالدسائس من كل مكان ووجد المتشاعرون فيه منافسا خطيرا غطى عليهم فاجمعوا امرهم على الكيد له فتحمل ذلك صابرا يعزبه عما يناله انه في جوار الرجل الحبيب الذي نفسه القريب الى قلبه ولكنه ضاق آخر الامر ذرعا بما فيه فعول على المجازفة والتخلص من حياة الاتكال .

وقد افصح عن محنته تلك في القصيدة التي ارسلها الى سيف الدولة حينما كتب اليه مع ولده يطلب منه العودة اليه بعد تركه كافور فقال معتذرا عن ذلك :

فهمت الكتاب ابر الكتب

فسمعا لامر امير العرب

اريك الرضا لو اخفت النفس خافيا
 ولا انا عن نفسي ولا عنك راضيا
 وطوعا له وابتهاجا به
 وان قصر الفعل عما وجب
 وما عاقني غير خوف الوشاة
 وان الوشائيات طرق الكذب
 وتكثر قوم وتقليلهم
 وتقريبهم بيننا والخبب
 وقد كان ينصرهم سمعه
 وينصرني قلبه والحسب

فهو لا يرى في جوار سيف الدولة غضاضة ولا في مدحه
 مهانة وهو لذلك لا يشكوه ولا يتضجر منه بل يحن اليه
 ويهواه وانما يخاف الدسائس في البلاط ويخشى وشائيات
 الوشاة ، والعيش بين الدسائس والوشائيات عيش اليم
 والحياة فيها جحيم ولا سيما للاديب الفذ والشاعر
 المجيد الذي يريد جوا هادئا ينصرف فيه الى شعره وادبه
 لا الى محاربة الكائدين ومصاولة الشائنين ، وقد
 حسب المتنبي انه ملاق عند كافور ما يرنو اليه وقد كان
 كافور هو الخاسر حين خيب به الرجاء واضاع الامل ! .
 ولم يكن قصد المتنبي لكافور بالامر الهين على نفسه
 فقد كان يشعر في قرارة ضميره اي مركب خشن اركبته
 الدهر واي هوان اوصله اليه حين الجاه الى كافور
 وقد كان يأسى على نفسه اشد الاسى حين اضطر
 لدح هذا الرجل الذي شاء الدهر الاعمى ان يوصله الى
 كرسي الحكم . وحسبك في ذلك ان اول بيت انشده المتنبي
 بكافور كان هذا البيت الذي يفيض حزنا والما والذذي

اعلن فيه صراحة انه كان يتمنى الموت قبل ان يقف هذا
الموقف المر :

كفا بك داء ان ترى الموت شافيا
وحسب المنايا ان يكن امانيا
تمنيها لما تمنيت ان ترى
صديقا فاعيا او عدوا مداجيا

ولا اعرف في الالفاظ لفظا يمكن ان يعبر عن شغور
الرجل الكريم الذي لم يجد بدا من الوقوف على ابواب
اشباه كافور تعبير هذين البيتين الخالدين ويدل دلالتها
ويكفي في مصاب المتنبي ان يكون الداء قد بلغ بالشاعر
الى ان لا يرى شافيا منه الا الموت ، وحسبه ان تكون المنايا
قدا صبحت امانيه ، لقد تمنها كما تمنى الصديق الوفي
المخلص الذي لا يخونه عند الشدائد ولا ينساه اذا فرقت
بينهما المناصب ، لقد تمنى ذلك فاعياه فتمنى - على
الاقل - عدوا ينسى عداوته احيانا فيداجيه ويكف عن
اساعته فاعياه ايضا فصاح من اعماق قلبه (تمنيتها) ..
ولقد استطاع ان يخرج اروع صورة للحزن العميق بهذه الكلمة
الواحدة (تمنيتها) .

واذكر ان احد النقاد عاب على المتنبي ان يفتح قصيدة
المدح بهذا المطلع لا سيما وهي اول قصيدة ينشدها لهذا
المدوح ، ولكن المتنبي كان في ذلك سائرا على سجيته
معبرا عن حقيقته معلنا لشكايته غير مبال بحسن المطلع
او قبحه ، ولم يلبث بعد انشاد هذه القصيدة ان همس بينه
وبين نفسه :

تنبأ بالندم فكأن الندام

قلت ان أول شعر انشده المتنبى لكافور كان شعرا
 تمنى به الموت قبل ان يقف هذا الموقف المر ، وانه شعر ان
 دل على شيء فانما يدل على ان المتنبى كان في
 حال من الاسى واليأس لا يأسف فيها على ترك الحياة بل
 يود لو ان هذه الحياة تركته وراحته من هذا الهوان الذي
 صار اليه ، فهو اليوم يقف على باب كافور ويتقرب اليه
 بالاماديج ويصوغ له قلائد الشعر ، وينشده فرائد القصائد
 ليتفضل كافور فيغنيه عن الناس ، ويسد خلته بعمل مستقر
 يطمئن اليه في مستقبل ايامه . واي حياة هي هذه الحياة
 التي تسوقه الى هذه الوقفة المزرية على باب هذا
 الرجل المتغلب . ولكن ابا الطيب اعتقد انه لم يكن له بد
 من هذه الوقفة على هذا الرجل فقد ضاق صدره بما لقي
 من الدسائسين عند سيف الدولة فظن انه سيستطيع ان
 يغيظ سيف الدولة وحاشيته بما سيلقى عند كافور .
 واحسب انه قد تعمد ان يقصد الى كافور بالذات بعد
 تركه سيف الدولة وتعمد ان لا يقصد غيره وان يخصه
 بمدحه دون الاخرين من امراء عصره ليكون ذلك ابلغ في
 نكايه سيف الدولة واغاظته :

لئن تركن ضميرا عن ميامننا

ليحدثن لمن فارقتهم ندم

وقد كان موقنا ان كافورا سيقدره قدره وانه سيرى ان من نعم الله عليه ان يأتيه ابو الطيب فهو لذلك سيجزل له العطاء وسيجيب الرغبات ويحقق الاماني وقد كانت امنيته الوحيدة (ضيعة او ولاية) يتيه بها على الحاسدين ، وما قدر الولاية او الضيعة بجانب قصائده العصماء التي لم كن يحلم بمثلها هذا الامر الجديد المستحدث النعمة!؟ ...

ولكن كافور لم يكن عند ظن المتبني ولم تأت النتيجة كما قدر ابو الطيب بل اصم (ابو المسك) اذنيه عن الولاية وحسب انه يستطيع ان يكسب قلب المتبني بالمال فاغدقه عليه ، ولكن لم يكن المال هو الذي يطلبه المتبني فلقد كان يملك منه ما يغنيه في حاضرة عن كافور ، واذا لم يكن يملك منه الكثير الفائض فانه لم يكن يريده بهذه الامسايب التي سئمها وعافتها نفسه ، ولم يكن يريده بنفس الطرق التي كان يناله بها في الماضي . لقد كان ابو الطيب يطلب عند كافور المجد والكرامة وكان كافور ابعد الناس عن ان ينيل ابا الطيب المجد والكرامة :

وما رغبتني في عسجد استفيده

ولكنها في مفخر استجده

وظل المتبني يعرض بامنيته تارة فيقول :

وهبت على مقدار كفي زماننا

ونفسي على مقدار كفيك تطلب

ويصرخ بها تارة اخرى فيقول :

اذا لم تهب لي ضيعة او ولاية

فجودك يكسوني وشغلك يسلب

ولكن لا التعريض ولا التصريح كان يمكن ان يهـز
 كافورا لتحقيق الامنية . وادرك اخيرا ابو الطيب ان كافورا
 ليس بالرجل المنشود وانه لم يكن الامير الذي يستطيع
 ان يغيظ به سيف الدولة ، وان مجلس سيف الدولة على
 ما فيه كان خيرا له من مجلس كافور ، وان اذى الدسلسين
 وهم الحاسدين في البلاط الحمداني هما هنا للنفس الكريمة
 من استجداء امثال كافور وان علي بن حمدان اذا كان
 قد اصفى حينا للوشاة فهو لم يسيء بشخصه للمتنبى
 اساءة تحمله على هذا الرحيل غير الحكيم وان سيف
 الدولة لم يكن يستحق ان ينفك عنه المتنبى بمثل هذه
 السهولة . ادرك ابو الطيب آخر الامر هذه الحقائق فزفر من
 اعماق صدره زفرة ضمنها هذا القول الباكي :

عثرت بسيري نحو مصر فلا لعا
 بها ولعا بالسير عنها ولا عثرا
 وفارقت خير الناس قاصد شرهم
 واكرمهم طرا لا لامهم طرا
 فعاقبني المخصي بالغدر جازيا
 لان رحيلي كان عن حلب غدرا

ولم يكن المتنبى في هذه الابيات ناطقا الا بما كان
 يحسه في اعماق نفسه ولم تكن هذه الابيات ممثلة الا
 الصورة الصحيحة لما يعتلج في ضميره ولا يمكن ان يقال انه
 قد قال هذا القول تقريبا الى سيف الدولة فان الذي لا ريب
 فيه هو ان المتنبى بعد تركه مصر قد عول على ان لا يعود
 الى حلب وعلى ان لا يرجع الى سيف الدولة مهما كلفه

الامر ، ولذلك رأيناه لا يجيب دعوة سيف الدولة ويصر على عدم الاوبة متعللا معتذرا ، لانه كان واثقا بان حديث سفره الى مصر ومدحه كافور وخبثته عنده وما مني به من الهوان والضميم سيكون موضع تنادر لخصومه السابقين وسيجدون في كل ذلك ما يغمزونه به في كل ساعة فقد تركهم مستهترا بهم موقنا بنكايته لهم واذا به يعود على اسوأ حال لذلك كان من غير المعقول ان يعود المتنبى بعد رجوعه من مصر الى حلب . فهو في ابياته السابقة لم يكن يقصد التقرب الى سيف الدولة بل كان يعبر عن احساسه العميق الصحيح ، لا سيما اذا عرفنا انه لم يظهر هذه الابيات وانها وجدت في رحله بعد قتله .

تركزت الركائب ضميرا عن ميامنها وفارق المتنبى سيف الدولة وكان الندم الذي تنبأ به ابو الطيب ولكنه لم يكن ندم سيف الدولة بل كان ندمه على ما فوت من ذاك الجوار العزيز . فمنذ الساعة الاولى التي نزل فيها ديار كافور ادرك في قرارة نفسه ان هذه الديار ليست بالديار التي تستطيع ان تغض من ديار سيف الدولة وانه يوم تعمد ان يأتيها مراغما كان غير موفق في اختياره فتمنى الموت في اول قصيدة ثم قتالت مدائحه فما خلت واحدة منها من التوجع والتألم بل كانت جلها صورا زاخرة بالاسى مفعمة بالهم :

اما تغلط الايام في بان ارى

بغيبضا تنائسى او حبيبا تقرب

فها هو يذيع بان الايام قد ناعت الحبيب وتقربت

البغيبض ثم يسترسل في ذلك ويزيد مقصده ايضا ، ويعلن

عن ذاك الحبيب الباني . ويشير اليه اشارة صريحة :
ولله سيري ما اقل تهيئة

عشية شرقي الحدالي وغرب
عشية احفى الناس بي من جفوته
واهدى الطريقين التي اتجنب

ويعترف ان من جفاه كان حفيا به ، معنيا بلهره وانه قد
ضل الطريق يوم هجره وتخلي عنه . وكأنه اراد ان يعتذر
عن ذلك وان يذكر ان طموح نفسه وبعد همته قد حملاه
على النفرة منه وركوب هذا المركب الوعر فقال :
لحى الله ذي الدنيا مناخا لراكب

فكل بعيد الهم فيها معذب
ثم يعود الى اشجانه ومتاعبه :
الا ليت شعري هل اقول قصيدة

فلا اشتكي فيها ولا اتعيب
وبني ما يذود الشعر عني اقله
ولكن قلبي يا ابنة القوم قلب
يضاحك في ذا العيد كل حبيبه

حذائي واشكو من احب وانذب
احن الى اهلي واهوى لقاءهم
واين من المشتاق عنقاء مغرب

فنكاد نلمس هذه الاشجان بانفسنا ونكاد نحسها بقلوبنا
فما نستطيع الا ان نأسى على هذا الرجل العظيم الذي
شاء له الدهر هذا العذاب المرير وما نستطيع الا ان نشاركه
النقمة على الزمان واهل الزمان .

وبعد ان يفرغ صبر المتنبي ويوقن ان كافورا انما
 يخادعه تتور نفسه ثورتها العنيفة ، وتهيج كرامته هيجانها
 العاصف فيهبو كافورا ذاك الهجاء الخالد الذي امتزج
 فيه الحزن بالغضب والالم بالاسف والحسرة بالندامة والذي
 كان فنا فريدا في الادب العربي لا يدانيه فن . وكان
 المتنبي بعد هذا الهجاء قد خشي اعتراض المعترضين
 وتحذلق المتحذلقين وغمز الغامزين فرد عليهم سلفا وقال
 وما ابلغ ما قال :

وشعر مدحت به الكركدن

بين القريض وبين الرقى

فما كان ذاك محال له

ولكنه كان هجو الورى

ولعمري انه لم يكن اعظم في هجو الورى من ان
 يقول المتنبي في كافور :

فدى لابي المسك الكرام فانها

سوابق خيل يهتدين بأدهم

وبعد ان امن في الهجاء واقام الدنيا واقعدا على
 كافور قال مخاطبا الناس اجمعين :

اخذت بمدحه فرأيت لهوا

مقالى للاخيق يا حلیم

ولما ان هجوت رأيت عيثار

مقالى لابن آوى يا لثيم

فهل من عاذر في ذا وفي ذا

فمدفوع الى السقم السقيم

اللهم اننا لعاذرون . . .

ابن زيدون بين الحياة والشعر

لقد اعتورت حياة ابن زيدون مشاكل سياسية وگرامية كابد فيها عناء جما فكان ينجح حيناً ثم يفشل حيناً آخر وقد تعاقب عليه هذا النجاح والفشل مراراً عديدة خرج من بينها ابن زيدون الشاعر الفريد .

وإذا كان ابن زيدون الرجل لم يفز من دهره بكل ما كان يرجوه وإذا كان هذا الدهر قد نغص عليه ساعات الفوز فبينما هو على أريكة الوزارة إذا به في غياهب السجن ، وبينما هو على متع الوصال إذا به على غصص الهجر . إذا كان ابن زيدون الرجل قد لقى في حياته كل هذا فلا ريب أن ابن زيدون الشاعر كان على النقيض من ذلك فقد كان ناجحاً جد وموفقاً جد موفق فبمقدار ما كان يصيب ابن زيدون الرجل من هزيمة في الحياة ، كان ابن زيدون الشاعر يسجل نصراً باهراً وفتحاً مبيناً في الشعر ، وبمقدار ما كان يخبو من ابن زيدون الرجل كان يلعب من ابن زيدون الشاعر .

فهذا السجن الظالم الذي رسف فيه ابن زيدون الرجل بالهوان واحنى من هامته ضراعة وذلا هذا السجن الموحش الذي دفن فيه ابن زيدون حيا فمات قبل الموت وفنى قبل الفناء ، هذا السجن نفسه خلق فيه ابن زيدون الشاعر

الى الجوزاء ورفع من رأسه الى العلاء ، وهذا السجين
نفسه خلد فيه ابن زيدون الشاعر بعد الموت وحيي بعد
الفناء .

ولعمري ان ما ظفر به ابن زيدون الشاعر من
الدهر ليغفر لهذا الدهر ما جرعه لابن زيدون الرجل
غصا وما البسه هوانا ، وان ما لهذا الدهر من يداي
يد على ابن زيدون الشاعر ليححو ما له من سيئات اي
سيئات عند ابن زيدون الرجل وماذا يريد ابن زيدون بعد
من دهره الذي ظل يشكوه ويهجوه ناقما منه شماسة منكرا
عليه ظلله :

فتأمل كيف يغشى
مقلّة الجد النعاس
ويفت المسك في التمر
ب فيوطى ويداس
فعمسى ان يسمح الدهر فقد طال الشماس

ماذا يريد منه وقد سمح ولان بعد الشماس فخلق للشعر
العربي ابن زيدون الشاعر صاحب النونية العصماء
وحسبه في ذلك منة وفضلا .

ولم يكن ابن زيدون في الواقع ليذهب في سوء ظنه
بدهره الى ابعد الحدود بل كان يرتجي من خلال
الدياجي الحالكة بصيمص نور يكشف عنه الضر وكان في كل
شكاويه يترقب من الدهر احسانا بعد الاساءة :

ان قسا الدهر فللها
ء من الصخر انجاس

وهذا الاحسان انما كان يترقبه ويرجوه كرجل ولكن
يشاء الدهر ان يهبه له كشاعر فيكون ارفع قدرا واعظم
قيمة .

ولقد كان معظم شعر ابن زيدون وليد ظروفه السياسية
او الفرامية التي تلاعبت به حيناً من الدهر ووجهته في
وجهات شعرية رائعة كانت غناء طورا وبكاء طورا آخر .

فهو باتصاله ببني جهور واشتراكه معهم في ثورة
قرطبة حظي لديهم اي حظوة ووزر لهم ولقب بذي الوزارتين
فكان طبيعياً وهو الشاعر المجيد ان يمدحهم وهم رؤساؤه
واولياء نعمته ومدح الملوك والامراء كانت سنة طبيعية في
الشعر العربي ، واذا كان الشعراء البعيدون عن مجالس
الملوك والامراء يتسابقون لمدحهم فان الشعراء القريبين
منهم الراتعين في اكنافهم اولى بذلك . وكذلك كان ابن
زيدون فقد مدح امراء بني جهور بمصائد كثيرة ليس فيها ما
يستوقفه النظر بل جرت على المجرى المعروف عند
الشعراء العرب في ذلك الحين من الابتداء بالفيزل ثم
التخلص الى المدح ووصف المدوح بالمبالغات المتداولية
التي تقال لكل ذي سلطة ونفوذ فهو مثلا يقول في ابن
جهور :

متمرس بالدهر يقعد صرفه

ان قام في نادي الخطوب خطيبا

ثم بعد ان يفقد عليه كثيرا من امثال هذه الاوصاف
يشعر بانه قد بالغ على عادة شعراء عصره فيشير الى
ذلك معتفرا :

وإذا تفنن في اللسان ثناؤه
 فافتن لهم يكن المراد غريبا
 غالى بما فيه فغير مواقع
 سرها ولا متوقع تكذيبا

ولكننا نستطيع ان نقول له ان ثناءه هذا اذا كان
 حقيقة غير متوقع في مجلس ابن جهور تكذيبا — ولا شك —
 متوقع اليوم هذا التكذيب وهو في كل يوم مواقع للسرف .

وعلى هذه الانماط تمضي مدائحه كلها :
 ترى الدهر ان يبطل منكم يمينه

وان تضحك الدنيا فانتم لها ثغر

وكما مدح بن جهور رؤساءه الاولين كذلك مدح
 بني عباد رؤساءه التاليين فكانت مدائحه على غرار
 المدائح الاولى فهو يقول للمعتمد :

اعرض عن الخطرات لك ان تشأ

تكن النجوم اسنة لقتاكا

الى غير ذلك من مدائحه في المعتضد والمعتمد ولا
 ريب ان لابن زيدون في رؤسائه سواء منهم بنو جهور
 او بنو عباد مدائح صافية الا يمكن ان تغلس بغيرها فقد كان
 مصدرها شكران لنعيمهم واعتراف بفضلهم فهي تعدد
 لما اولوه من ابناء وتبيان لما غروهم من جميل فهو يقول في بني
 جهور :

ملوك لبسنا الدهر في جنباتهم

رتيق الحواشي مثل ما فوف البرد

بحيث متيل الامن خاف ظلاله

وفي منهبل المعيش المعنوية والبرد

ليس ابو الحزم الذي غب سعيته
تبصر غاويننا فبان له الرشيد
اغر تهمدنا به الخفض بعدما
اقض علينا مضجع ونبا مهد

فهو في هذا القول صادق كل الصدق فان بني
جهور في اول عهدهم به رفعوه الى اعلى المناصب
واغدقوا عليه اعظم الخيرات فكان مقيل امته عندهم
ضافي الظلال ومنهل عيشه عذب بارد ، ونال لديهم
الخفض والدعة .

وكذلك هو ايضا حين يمدح بني عباد يقول للمعتضد :
انى اقوم بشكر طولك بعدما
ملأت يدي من الدنيا يداك
بردت ظلال نراك واحلولى جنى
نعماك لي وصفت جمام نداكا
وامنت عادية العدا الاقتال مذ
اعصمت في اعلى يفاع حماكا

ونمينا عدا امثال هذه الابيات التي نراها مثبتة في
قصائده المدحية الكثيرة لا نجد في مدحه شيئا جديدا يمكن ان
يدل على شخصيات ومدوحيه بل هو مبالغات مبتذلة مكررة
تقال لكل ذي حول وطول ولا يشترط فيها الصدق والاخلاص ،
ومن الطريف ان ابن زيدون نفسه يعترف بكذبه بهدائحه
وانه كان يمدح طمعا ورجاء فاذا انقطع الطمع وذهب الرجاء
لم يبق للمدح موضع اما ان يمدح لان المدوح خليق
بالمدح فذاك لم يكن يعرفه هو ولا معظم الشعراء . فانه

بعد ان وقع بينه وبين بني جهور ما وقع قال مخاطبا ابا الحزم
بن جهور :

قل للوزير وقد تطمت بمدحه

زما فكان السجن منه ثوابي

لا تخش في حقي بما امضيته

من ذاك في ولا توق عتابي

لم تخط في امري الصواب موقفا

هذا جزاء الشاعر الكذاب

وكما كان لابن زيدون مدائح في هؤلاء الرؤساء فقد كانت له مرثي فيمن توفي منهم ومن ينتمي اليهم وهذه المرثي لا تنطوي على شيء من صدق العاطفة فهي مرثي اقتضتها الجاملات والتقاليد بيدوها على عادة الشعراء بالمواعظ والحكم ويتخلص الى المرثي فيصفه بما يقتضي المقام ويناسب الحال ، ثم لا يتردد في ان يضيف نفس هذه الصفات الى مرثي اخر لا نسبة بينه وبين المرثي الاول الا نسبة الموت ومن المدهش ان ابن زيدون قد بز غيره في هذا الباب فشعراء المرثي يكتفون عادة بترديد المعاني الواحدة في كل مرثي لان الهدف مسايرة الظروف لا الاخلاص في العاطفة والقول وهذه المسايرة تقتضي التهويل والمبالغات وسوق المواعظ والحكم عند كل وفاة لا فرق بين شخصيات المتوفين ، وهذا هين في جانب ما اقدم عليه ابن زيدون في هذا الباب فقد ناق في ذلك المنتقمين والمتأخرين فانه لم يكتف باعادة المعاني وتكرارها بل راح يعيد القصيدة نفسها في اشخاص مختلفين متناقضين مع تغيير ما يجب

تغيره من الفاظ يقتضيها الموقف . فهو مثلا عندما كان يرتع
في اكناف بني جهور ويعيش في نعمهم كان لزلما عليه ان
يرثي امواتهم كما يمدح لحييلهم بمفلمات لم لبن جهور
فرثاها ابن زيدون بقصيدة رائية قال في مطلعها :

هو الدهر ضايب للذي احدث الدهر

فمن شيم للابرار في مثلها الصبر

الى اخر التقليد المعروف من دعوة للصبر وتذكير بالموت
ثم تخلص الى المتوفاة التي يقول فيها مثلا :

انفس نفس في الورى اقصد الردى
واخطر علق للهدى اهلك الدهر

فام ابن جهور في هذا البيت هي انفس نفوس الورى
واخطر اعلاق الهدى وهي في الابيات الاخرى ذات صفات
لا تقل عين هذه الصفات وقد كنا نرضى من ابن
زيدون هذا القول لو افه ثبت عليه بالرغم مما فيه من الكذب
المصراح ولكن ابن زيدون بعد ان يغضب عليه الجمهوريون
وينزع الى اشبيلية ويتصل ببني عباد ويصفو له العيش
في ظلالهم يخوت بولهي نعمته الجديد المعتضد ويخلفه ابنه
المعتز . والمجملات هنا تقتضي الرثاء واقتفاد الشعر
في المتوفى . وما دامت القضية قضية ظروف مؤاتية ومناسبات
موافقة فليرجع الشاعر الى اوراقه يستخرج منها دفائن
المراثي التي قيلت في حال كهذه وليس اقرب من القصيدة
التي نظمها في ام ابن جهور والمتوفى الجديد امير والمتوفاة
القديمة لميرة ام امير ، وهكذا اخذ ابن زيدون قصيدته
في رثاء ام ابن جهور وغير وبدل بعض ابياتها مما لا مناص

من تبديله ، وكان المعتضد ايضا كما كانت ام ابن جهور
انفس نفوس الورى واخطر اعلاق الهدى ، ويخصي ابن
زيدون بنقل القصيدة كلها مع تبديل اضطراري لبعض
الابيات فهو يقول في رثاء المرأة الجهورية مثلا :

غنيئد لبطن الارض انفس مجدد
بشاوية حلتته فاستوحش الظهر

بطاهرة الاثواب قانتة الضحى
مسبحة الاناء محرابها الخدر

حصان ان التقوى استبدت بسرها
فمن صالح الاعمال يستوضح الجهر

يطأطأ ستر الصون دون حجابها
فيرفع عن مثنى نوافلها الستر

وهذا القول لا يمكن ان يقال في رجل والمعتضد لا يمكن
ان ينعت بهذه النعوت النسائية البحتة فلا بد من تحوير في
مجرى بعض ابيات القصيدة لتأتي مطابقة للمقام وهكذا
كان فقد قال في قصيدة المعتضد بدل هذه الابيات :

وابيض في طي الصفيح كأنه
صفيحة مأثور طلاقته الاثر

اعباد يا اوفى الملوك لقد عدا
عليك زمان من سجيته الفدر

فمن هذا المثال يتضح ان الرثاء كالمديح في شعر ابن
زيدون لم يكن له اية صلة مع قلبه ونفسه ، وعلى ذلك
فليست شاعرية ابن زيدون الصحيحة بارزة في هذا النوع
من الشعر بل هي بارزة في الناحية الاخرى منه الناحية

التي عذبتة طويلا فعانى احوال الصدود وغوائل السجن
وما الى ذلك من مرارات ولوعات وهي الناحية التي
سنعرض لها في مقال اخر

على ان لابن زيدون قليلا من الشعر الرثائي العاطفي
الذي قاله في رثاء بعض اصدقائه كقصيدته في رثاء القاضي
ابي بكر بن ذكوان التي لا تخلو من عاطفة صادقة وشعور
صحيح .

غرام ابن زيدون

يقول ابن بسام صاحب الذخيرة في معرض حديثه عن ابن زيدون : (اصبح مقيم ذلك الحي وعاشق ولادة لامي ، زاد على مجنون ليلى وقيس لبنى) . الى اخر ما قاله ابن بسام على طريقته السجعية المملة .

فمن هي هذه ولادة التي كان لها هذا الدور في حياة هذا الشاعر وكان لها اثر اى اثر في ادبه وطرارز عيشه وتفكيره بل هي التي وجهت ابن زيدون هذا التوجيه الوجداني الرائع فخلق فيه ما شاء له التحليق .

ان ولادة هذه هي بنت المستكفي من اواخر الخلفاء الامويين في الاندلس والمستكفي هذا يحدثنا عنه مؤرخ الاندلس الشهير (ابو حيان) فيقول : (لقد اجمع اهل التحصيل انه لم يجلس في الامارة اسقط منه ولا انقص اذ لم يزل معروفا بالتخلف والركاكة مشتهرا بالشرب والبطالة سقيم السر والعلانية ، اسير الشهوة عامل الخلوة ، فلم يكن فيه للخلافة ادنى كفاية وانما ارسله الله على الامة محنة وبليية) .

هذه هي النعوت التي اغدقها ابو حيان على المستكفي ، ولعمري انه لبون شاسع بين هذا الخليفة وبين اولئك الذين رفعوا شأن الاندلس الى الفرا .

اما ابنته ولادة فيقول المؤرخون (انها كانت اديبة

شاعرة جزلة القول حسنة الشعر ، تناضل الادباء وتساجل الشعراء ، ولقد عمرت عمرا طويلا ولم تتزوج ، وقد ابتذل حجابها بعد نكبة ابيها وقتله فصارت تجلس للشعراء والكتاب وتعاشرهم وتجادلهم ويتعشقها الكبراء منهم وكانت على خلق جميل وادب غض .

ولقد ائتمن مؤرخو الادب فيها الى راين يقول احدهما بانها كانت مستهتره في حياتها الخاصة كل الاستهتار وانها كانت تكتب على ثوبها ابياتا من الشعر تقول فيها :

انا والله اصلح للمعالي
وامشي مشيتي واتيه تيه
امكن عائقسي من صحن خدي
واعطي قبلتي من يشتهيها

ويقول الراي الاخر على عكس هذا القول ، وانها كانت على الرغم من تبذل مجالسها عفيفة مصونة ، وكانت علاقاتها بريئة لا تتعدى المطارحات الادبية والمساجلات الشعرية .

وقد المح ابن بسام صاحب الذخيرة الى ذلك فقتل في معرض حديثه عنها : (على انها سمح الله لها وتغمد زلها طرحت الفحصيل واوجدت الى القول فيها السبيل لقله مبالاتها ومجاهرتها بلذاتها) .

ويقول احمد زكي باشا ان المؤرخين اجمعوا على عفتها وصونها . ودعوى الاجماع هذه دعوى غريبة فان قول ابن بسام وهو اقرب المؤرخين الى عصرها واكثرهم معرفة بدقائق الامور هناك

يناقض قوله كل المناقضة بل ان ابن بسام يتهمها صراحة
وان كان اراد ان يجيء بالتهمة ناعمة رقيقة ولكنها على
كل حال تهمة !

ونحن لا نستطيع ان نؤمن بهذا الاجماع
على صونها ، ومن العسير علينا ان نذهب
معه الى ذلك الحد بعدما عرفنا عن مجالسها ونواديها ،
وكيف يريدنا على ذلك وابن زيدون محبها المفتون
وعاشقها الموله لا يتردد بالاشارة الى ما كان بينه وبينها
والى ما صار بينها وبين مزاحمه ابن عبدوس بعد هجرها
له :

لقد قالوا ان ولاده اعرضت عن ابن زيدون حينما من
الاحيان ومالت الى مزاحمه ابن عبدوس وكان يلثب
(بالفار) فقال ابن زيدون في ذلك :

اكرم بولادة نخرا لمذخر

لو انها فرقت بين بيطار وعطار

قالوا ابو عامر اضحى يلثم بها

قلت الفرائمة قد تدنو من النار

عيرتمونا بان قد صار يخلفنا

فيمين نحب وما في ذاك من عار

اكل شهى اصبنا من اطاييه

بعضا وبعضا صفحنا عنه للفار

وفي هذا القول ما فيه وما كان ابن زيدون ليقوله

لولا انه يعلم من الامر ما يعلم ، وما كان ابن بسام

ليقول ما قال لولا ان ذلك كان معروفا ومشهورا .

وعلى كل فنحن لا يسعنا الا ان نقول مع ابن
بسام : (سمح الله لها وتغمد زلها) .

اما حب ابن زيدون لها فقد بلغ حده الاقصى وعاد
تدلها وشغفا فقد علقها على اعنف ما يعلق المحبون
فكان ذلك سبيلا لاذكاء عاطفته واشعال قريحته
فجاءنا برائق الشعر وخالد القوافي ، وبرز في ذلك
ما شاء له التبريز . ولقد كان لهذا الحب العميق فضل
اي فضل على ادب ابن زيدون وشعره فقد احب
ونجح ثم فشل ثم نجح وقد تداوله هذا الفشل والنجاح
فكان بينهما القيثارة العامرة تشجي النفس وتهيج القلب
اذا ناحت واذا شدت ، فهو طورا شاد طروب يهتف :
ما للهدام تديرها عينك

فيميل من سكر الصبا عطفاك
هلا مزجت لعاشقيك سلافها

ببرود ظلمك او بعذب لمك
وها هو طورا بك حزين ينشد :

انا قرأنا الاسى يوم النوى صورا
مكتوبة واخذنا الصبر تلقينا

لا اكؤس الراح تبدي من شمائلنا
سيما ارتياح ولا الاوتار تلهينا

او ينشد :

يا نازحا وضمير القلب مثواه
انسك دنياك عبدا انت دنياه

المهتك عنه فكاهات تسر بها
فما تمر ببال منك ذكراه

عل الليلي تبقيني الى امل
الله يعلم والايام معناه
او ينشد :

يا دمع صب ما شئت ان تصوبا
ويا مؤادي آن ان تذوبا
اذ الرزايا اصبحت ضروبا
لم ار لي في اهلها ضريبا
قد ملأ الشوق الحشا ندوبا
في الغرب انرحبت به غريبا
عليل دهر ساهني تعذبا
ادنى الضنا اذ ابعث الطبيبا

احب ابن زيدون ولاذة فبادلته حبا بحب وما ندري هل
صدقت في حبا واخلصت في هواها ؟ ولكننا نعرفه هو محبا
صادقا لا يصدف عنها ولا تزیده الايام الا هوى وصبابة . اما
هي فقد ساهرتة حيناً واعرضت حيناً اخر ، فقد نال في اول
الامر رضاها ووقع من نفسها ووقعت من نفسه وكانت بينهما
مزاورات وجلسات . وقد كتبت اليه يوماً تضرب له موعداً :

ترقب اذا جن الظلام زيارتي
فانني رايت الليل اكرم للسر
وبي منك ما لو كان بالشمس لم تلح
وبالبدر لم يطلع وبالنجم لم يسر

وما ندري مقدار ما هذا القول من صدق العاطفة وهل
كانت حقاً شغوفة به الى هذا الحد ام انه الشعر ونوازع
النفس ، واننا لنشك كل الشك ان يكون بيتها الاخير معبراً

عن حقيقة ما يختلج في قلبها لابن زيدون وان كانت سايرته
الى حد ما فما نظنها كانت مخلصه لانه كان لابن زيدون
شركاء في ذلك القلب الذي ما نحسبه عرف الهوى الصحيح
الخالص ، وقد كانت بينهما مراسلات كثيرة وقد كتبت
اليه ايضا :

الاهل لنا من بحمد هذا التفريق

سبيل فيشكوا كل صب بما لقني

الى ان قاله :-

تمر الليالي لا ارى الجين ينقضني

ولا الصبر من رقب التفتوق معني

سقى الله ارضا قد غدت لك منزلا

بكل سكوب هامل الوبل مفدق

ولا شك ان في هذه الابيات عاطفة جياشة ولكننا نصبها

عاطفة بنت ساعتها اثارها ذكري عفة حطوة ولو كانت

صديقة مخلصه لما رايناها تزقني على خصمه ابن

عبس .

بلى لقد فاز ابن عبس حينما بولادة واقصى عنها

ابن زيدون فوقع ذلك من نفسه امر الوقع لانه كان محبا

مفتونا فعمل جهده على اقصائها عنه وتفنن ما شاء التفنن

وتفتحت قريحته على ضروب من النظم والنثر جد رفيعة

فكتب اليه رسالته الهزلية الشهيرة على لسان ولادة وقد

عبث فيها به اي عبث ، فاشتهرت هذه الرسالة في المشرق

والمغرب وشرحها الكثيرون شروحا مختلفة ، كما انه ارسل

اليه قصيدة قال فيها :

وغرك من عهد ولادة
 مراب ترامي وبرق ومض
 تظن الجفء بها وللظن
 ن غيها تقبول على من فرض
 هي الماء بأبي على قابض
 ويمنع زيدته من مخض
 ونبتتها بعدي استحمدت
 مسيري اليك لعنى غمض
 ابسا علر عشيرة نفاستقل
 لتبرم من ودنا ما انتضى

ولقد جاء قول ابن زيدون مصداقا لما قلناه عين الشك في
 اخلاص ولادة في حبها وببته (تظن الجفء) والذي يليه
 يعبران عن ذلك احسن تعبير . ولقد وقعت رسالة ابن
 زيدون على ابن عبدوس وقعا مرا امسك معه ابن عبدوس
 عن التعرض لولادة الى ان انتقل ابن زيدون من قرطبة
 الى اشبيلية .

ولم يكن ابن عبدوس المزاحم الوحيد لابن زيدون على
 ولادة بل كان له مزاحمون آخرون اشهرهم ابو عبد الله
 البطليموسي وقد كتب اليه ابن زيدون كما كتب الى ابن
 عبدوس .

ومن العجيب ان ابن زيدون بالرغم مما كان يراه
 من تقلب ولادة وبلها الى خصومه كان لا ينفك عن التعلق
 بها بل كان ذلك يزيدده ولها وشغفا . وفي الواقع فان هذا
 الحب قد خلق ابن زيدون خلقا جديدا وكان اثره كبيرا في

مفاحيه الشعرية ورفعته الى تلك المنزلة بين الشعراء .

ولا ريب ان الألم اذا حل بالشاعر الحساس يفكسي قريحته فتفيض بكل نغمات ثمين فلولا ألم المتبسي النفسي مثلا لما جاء بالروائع الخالدات ولولا شجونه لما انشد تلك الميمية العصماء في حضرة سيف الدولة ولا وسم كافورا بداليتة الغراء .

ولولا الاسر لما رأينا روميات ابي فراس الحمداني الرنانة ، وبالتالي لولا هذا الحب العنيف والهجر الطويل ، والفراق المديد لما تمتعنا بروائع ابن زيدون فكانت غداء لارواحنا وسميرا في اشجاننا وعزاء في شدائدنا بل لما كان للادب العربي تلك النونية الساحرة التي لم تستطع حتى اليوم قصيدة عربية ان تزاخمها .

صحافيو الماضي

إذا كانت العصور الماضية لم تعرف الصحافة فإنها عرفت مظهرا من مظاهرها كان يسد الفراغ الذي تملؤه الصحافة اليوم ان من ناحية الخير او ناحية الشر . . وما دامت الدعامة الاولى للصحافة هي (الكلام) وحسن استخدامه في الدفاع والهجوم والترهيب والترغيب ، فان الاقدمين الذي عرفوا من الكلام اغانيين عجيبة استغلوها في التأييد والخذلان والمدح والقدح هم كصحافيينا اليوم سواء بسواء ، فقد كان لكل جماعة لسان يدفع عنها ويدعو لها ، ولكل فكرة فم يشيد بها ويزري بخصومها ، ولكل حكومة مؤيدون ومعارضون ، وبين هؤلاء وهؤلاء من يؤيد او يعارض عن عقيدة ومن يفعل ذلك مأجورا فيؤيد فلانا في الحكم ثم يتجنس عليه بعد الحكم ، وينصر عقيدة منتصرة ثم يخذلها اذا انهزمت ! . اي ان الامر بالامس كان كما هو اليوم تماما . .

لقد كان الشعراء في الماضي مكان الصحفيين في الحاضر ، فلا بد للحاكمين من دعاية ولا بد للطامعين بالحكم من دعاية ولا بد للثائرين من دعاية ولا بد لكل حزب ولكل فرد من دعاية ، وفضل الدعاة هم الشعراء فان لهم من اساليب الكلام ما ليس لغيرهم ولكلامهم من الاثر ما ليس لاحد ، وقد كانوا يعرفون لانفسهم هذه القيبة فيستغلونها

امضى استغلال ، فمن لم يكن له فكرة خاصة او بالاحرى
 من لم تكن تهمة الفكرة الخاصة كان يبيع نفسه غالبا فبقدر
 على القوائد الوقت اللاتنير ويعيش عيشة الاثرياء المنعمين ،
 وهو لا يجد اية غضاضة في ان يذم اليوم من مدحه البارحة
 ولا ان يفعل العكس ما دام في ذلك مورد رزق ومنبع مال !
 ومن كان ذا عقيدة في المدح والذم وهم قليلون . كلنوا يعارضون
 الحكم القائم . معارضة عنيفة ينالهم بسببها انواع الالذى ولكنهم
 يصمدون في الميدان حتى النفس الاخير ، وبعضهم كان
 يعارض يائسا فهو لا يأمل ابدا ان تحكم جماعته . ولكنه مؤمن
 بهذه الجماعة فهو يتحمل كل شيء في سبيلها .

وكما يتعرض الصحافيون اليوم للاعتداء عليهم بالضرب
 والجرح احيانا . فكذلك كان حال الشعراء . ولكن الامر على كل
 حال . لن يصل الى الحد الذي كان يصل فيه مع الشعراء . فان
 اعداءهم لم يكونوا يرضون لهم باعتداء بسيط بل كلنوا يطلبون
 ارواحهم ويفوزون بهذه الارواح ، وكلنا نعلم ان شاعر العرب
 العظيم (المتنبي) قضى بسيف (مفاتك للاسدي) وكذلك
 كان حال ابن الرومي ودعبل الجراعي ، وغيرهم ممن
 شعراء الجاهلية والاسلام .

ولم يكن هؤلاء الشعراء يصطنعون الجذ دائما
 فكما ان في الصحافة اليوم صحافة جديدة وصحافة هزلية
 وصحافة تمزج الجذ بالهزل . فكذلك كلنوا ، . وكما ان في
 الصحفيين . من يرى (الكاريكاتور) افضل الوسائل في التعبير
 عن المقصود . فيصور خصومه صورا . مضحكة . فكذلك كان في
 الشعراء . من يصور الخصوم بلمتغ للصور الكاريكاتورية
 فيخزيهم . ويعود عليهم بسوء القالة . وانني في هذه الكلمة

سأعرض لصورة او لصورتين مما يخطر على البال الان على ان اعرض في كلمة اخرى لشاعر معارض عنيد كانت وسيلته الوحيدة في محاربة (الحكومة) ورجالها الصبور الكاريكاتورية العجيبة التي كان يضحك لها ويعجب بها حتى انصار الحكومة انفسهم .

فمن الصور اللطيفة تلك الصورة التي رسمها احد الشعراء لامير اسود اللون كان يكرهه الشاعر ويحاربه فرآه مرة على منبر الخطابة وقد لبس على جسمه الاسود ثوبا ابيض لم يظهر منه الا يداه ووجهه فتأمله مليا وانشد :

تري منبر العبد اللئيم كأنها

ثلاثة غريبان عليه وقوع

ومنها قول الشاعر فيمن اسمه (عمرو) ويظهر ان حال عمرو هذا كان كحال من تظاهروا في الزمن الاخير بالايمان بالعروبة والوطنية بعد ان كفروا بهما وحاربوها طوال حياتهم :

ارفق بنسبة عمرو حين تنسبه

فانه عربي من قوارير

وكم فينا اليوم من هم عرب من قوارير !...
ولعل مما يلحق بهذا الباب قول ذاك الشاعر الذي هجا محمد بن يزيد الشمالي وقبيلته ثمالة بقوله :

سألنا عن ثمالة كل حي

فقال القائلون ومن ثماله

فقلت محمد بن يزيد منهم

فقالوا زدتنا بهم جهاله

ادباء انتهازيون وآخرون مبعوثون

هذه النقمة العارمة على الظلم الاجتماعي ، وهذه الاقلام الغاضبة لما تعانيه الكثرة الكاثرة من حرمان وعقوق واهتضام .

هذا الغليان الذهني التي تتفجر به اقلام الكتاب بين الحين والحين .

هذه النقمة وهذا الغضب وهذا الغليان له اشباه في ماضينا الادبي في كل عصر ، ومن المؤسف ان تاريخنا هو تاريخ ملوك وجبابرة ومنتسلطين ، لا تاريخ شعب وعباقرة وكادحين ، لذلك ضاعت اصوات الشعب وصرخات المحرومين في غياهب الابهال ، ولم تصلنا منها الا همسات حفظتها صحف التاريخ لا عمدا ولا قصدا ، ولكن صدفة وعرضا !

فالذين كانوا يكتبون ويدونون كانت تند من اقلامهم جمل قد تقصر وقد تطول ، ولكنها في قصرها وفي طولها تشير الى ان الشعب كان يحيى غير حياة البذخ والترف التي كان يحيها الحكام ومن مت اليهم بصلة او سبب . وان السواد الاعظم كان يكابد في سبيل العيش اشق الاهوال وان رجال الفكر والقلم كانوا بين مدلس متزلف وصولي لا يبالي في سبيل الثروة ان يركب كل مركب ، وبين ابي كريم لا ينزل الى دركات الهوان ، فكان حتما عليه ان يعيش

عيش الفقر ، ويحى حياة الضنك ! .

وقد كان لكل ذلك صدى في اقلام الكتاب والشعراء ،
ودوي في آفاق الادب تتصادم فيه الافكار وتتناقض الدعوات
والمتتبع يجد الكثير من هذا القبيل ، ولعل ما حدث
قبل ثمانية قرون بين ابن ابي حصينة المعري وبين
مواطنه ابن الزويدة المعري قريب مما نراه يحدث اليوم .
فقد كان ابن ابي حصينة شاعرا ادبيا ، ولكنه آثر طريق
الوصوليين الانتهازيين فسمى بكل جهده ليكون اميرا
فخريا فكان له ما اراد بعد ان تذلل بالثمر وتضرع وبعد
ان اكثر من مثل قوله :

اثننا عداكم واهوى ان ادين لكم

فللعدي دينهم فيكم ولي ديني

ثم شجعه وصوله الى الامارة الفخرية التي لم
يكن له منها الا اللقب ، شجعه ذلك الى الوصول الى
الامارة الفعلية بعد الامارة الفخرية ، فقال مثل هذا القول:

ابا صالح اشكو اليك نوابا

عرتني كما يشكو النبات الى القطر

فهب هبة يبقى عليك ثناؤها

بقاء النجوم الطالعات التي تسري

فوهبت له الاراضي والاموال ثم ولي الامارة
وشارك في الحكم .

ولم ير الادباء في نجاح زميلهم مغنما بل عبده
منقمة فنقموا عليه طريقته التي سلكها ، وصدف ان توصل
الى الدخول في الجندية رجل يصفه المؤرخون بانه « من

رعاع الناس واسأفلهم»، وكان يلقب بالزقوم ، غصار شيئا
 يذكر في المعرة فقال ابن الرويدة للمعري : فقال له
 اهل المعرة تحت اقبح خطبة
 وبهم اناخ الخطب وهو جسيم
 لم يكفهم تأمير ابن حصينة
 حتى تجند بعده الزقوم
 يا قوم قد سئمت لذاك نفوسنا
 يا قوم اين الترك ؟ اين الروم ؟

ولما شاعت الابيات وانتشرت ذهب الامير ابن ابي
 حصينة الى بيت ابن الزويدة يعاتبه ، فقال له ابن الزويدة:
 الان كان عندي الزقوم ، وقال لي : ان اعظم ما نالني من
 هجوك هو انك قرنتني بابن ابي حصينة ! . فقال
 ابن ابي حصينة : هذه اشد علي من هجوك ! .
 على ان هذا الشاعر الانتهازي الوصولي لم يلبث
 ان وقف مواقف طيبة فرثى ابا العلاء المعري بقصيدة مؤثرة
 مطلعها :

العلم بعد ابي العلاء مضيع
 والارض خالية الجوانب بلقع

ومما يمكن ان يذكر في هذا الموضوع قصة الحسن بن
 صافي الذي لقب نفسه (ملك النحاة) لتخصصه بعلم النحو ،
 فقد كان يرى انه رهو من رجال الفكر ، منكور الفضيل
 محروم النعمة فصدف ان الامير نور الدين محمود خلع عليه
 خلعة سنية ونزل ليمضي الى منزله فرأى في طريقه
 حلقة عظيمة فمال اليها لينظر ما هي ، فوجد رجلا

قد علم تيسا استخراج الخبايا . فلما وقف عليه ملك النحاة ، عرفه الرجل فقال لذلك التيس : ان في حلقتي رجلا عظيم القدر شائع الذكر ، ملك في زي سوقة ، اعلم الناس واكرم الناس واجمل الناس فارني اياه ! ..

فشق ذلك التيس الحلقة ومضى حتى وضع يده على ملك النحاة ! .. فلم يتمالك ملك النحاة ان خلع تلك الحلقة ووهبها لصاحب التيس ، فبلغ ذلك نور الدين فعاتبه ، وقال استخففت بخلعتنا حتى وهبتها لمثل ذلك الرجل .. فقال : يا مولانا عذري في ذلك واضح لان في هذه المدينة زيادة على مائة تيس ، ما فيهم من عرف قدري الا هذا التيس فجازيته على ذلك .

فضحك منه نور الدين وسكت .

هذه ملامح من حياة الادباء والمفكرين في تلك العصور ، ومن يحاول استقصاء ذلك يجد لها كثيرا من النظائر والامثال .

الوزير المهلبى

بعض الوزراء الابداء في عصرنا القديم كانوا كالواحة
الخضراء في صحراء الحكم الجديد ، فالحكم الذي لم يكن
يصله بالشعب الا ما يستطيع ان يستغل به هذا الشعب
والحكم الفردي الاستبدادي الذي هان فيه الناس بدمائهم
وكراماتهم واموالهم ، هذا الحكم المظلم كان يومض حيناً بخيط
من النور تقر به العيون وتطيب النفوس . .

الفقر المدم

فالوزير المهلبى الحسن بن محمد الذي كان ادبياً
شاعراً رقيق الحاشية ، والذي مضى في يوم من الايام
قبل الوزارة في رحلة فاشتبهى اللحم فلم يقدر على نيله
نقرا وفاقه فقال يائسا :

الا موت يباع فاشتريه
فهذا العيش ما لا خير فيه
الا موت لذيد الطعم يأتي
يخلصني من العيش الكريه
اذا ابصرت قبراً من بعيد
وددت لو انني مما يليه

الا رحم المهيم نفس حر

تصدق بالوفاة على اخيه

فهز الشعر اريحية مسافر في الركب فاشترى له
لحما بدرهم وطبخه واطعمه .

هذا الشاعر المعدم حين ولي الوزارة في بغداد ،
كان كالنبته الغضة في الرضاء الوقيدة .

حوار

فاذا جلس في شهر رمضان والزمان صائف والحر لانح
في بلد كالاھواز تنضج حرارته الجلود ، فيلوذ الوزير
ونداماه بما يلفظ هواءهم ويلطف اجسادهم من وسائل ذاك
العصر (١) حتى اذا سمع صوت رجل ينادي على الناطف
يقول الوزير لجليسه القاضي ابي بكر بن عبد
الرحمن بن خزيمة : اما تسمع ايها القاضي صوت هذا
البائس في مثل هذا الوقت والشمس فوق رأسه وحرها
تحت قدميه ونحن نقاسي في مكاننا هذا البارد ما
نقاسيه من الحر ؟

ثم يأمر باحضار المنادي فيرى امامه شيخا ضعيفا عليه
تميص رث وهو بغير سراويل وفي رجله تاسومة مخلقة وعنى
رأسه منزر ومعه نبيخة فيها ناطف لا تساوي خمسة دراهم .
فيكتب الوزير للمشهد الذي كان في الحقيقة صورة الشعب
ولكن الوزير مع اكتبابه وحنائه يحسب ان الناس يملكون
من اوقاتهم مثل ما يملك ، فيختارون الساعة التي فيها

١ - يقول راوي الخبر : ... (ونحن في خيش بارد) والخيش : نسيج
من الكتان كان يعلق في مجاري الهواء ويرش بالماء فيبرد ما وراه .

يعملون والساعة التي فيها يقلون ، يحسب ذلك ويشي
 لطول ما عرفه من النعيم ان البؤساء لا خيار لهم فيقول
 للشيخ :

الم يكن لك ايها الشيخ في طرفي النهار مندوحة
 عن مثل هذا الوقت ؟ فيتنفس الشيخ ويجيب باروع
 جواب واشجاه : ما اهون على الراقد سهر الساهد . ثم
 ينشد :

ما كنت بائع ناطف فيما مضى
 لكن قضت لي ذاك اسباب انقضا
 واذا المعيل تعذرت طلباته
 رام المعاش ولو على جمر الغضا

يهتز للشعر

وهنا يذهل الوزير عن الموقف كله ولا يذكر الا اته
 اديب شاعر ، وان بين يديه من ينطق بالشعر بعد ان
 اجاب باحسن النثر ، فلا يسأل الناطفي عما الجاه الى
 حرفته وساقه الى طيته ، بل يسأله : اراك متأدبا فمن
 اين لك ذلك ؟ فيجيبه الرجل : اني ايها الوزير من اهل
 بيت لم يكن فيهم من صناعته ما ترى . .
 فيهب الوزير للرجل مائة دينار وخمسة اثنان ، ويجعل
 له ذلك رسما في كل عام .

الصاحب القديم

اما صاحبه الذي اعانه على القرم فوهب له درهم

اللحم ، فقد ناله الدهر هو الآخر بسياط الحاجة ولما علم
بما صار اليه حال الرفيق القديم ، مضى الى بابه وجعل
وسيلته اليه الشعر فكتب اليه رقعة فيها :

الا قل للوزير قدته نفسي

مقال مذكر ما قد نسيه

أتذكر اذ تقول لذنك عيش

الا موت يباع فاشتره ؟

لقد تذكر الوزير فدعا بصاحب العسرة ، بعد ان وقع
في رقعته : (مثل الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله كمثل
حبة انبتت سبع سنابل في كل سنبله مائة حبة والله يضاعف
لمن يشاء) ونفذ منطوق الآية فوهبه عوض الدرهم سبعمائة
درهم ، ثم ضاعف له فخلع عليه ، ثم زاده فقلده عملا
يرتفق به .

انني لعلى يقين بان المعية الشعر التي توصل
بها السائل هي التي هزت المسؤول ، فلو لم يكن الوزير
اديبا لاعت السائل الوسائل التي يثير بها في المسؤول ما
همد من ذكرياته ، لقد كان امره
حتما سيكون امر ذاك الآخر الذي نسيه الرفيق القديم
حين اناله الدهر ما كان يروم ، فلم يجد بدا من ان يقول :

قل للوزير ادام الله دولته

اذ كرتنا امننا والخبز خشكار

اذ ليس في الباب بواب لدولتكم

ولا حمار ولا في الشط طمس

تطور حياته

ولد ابو محمد الحسن بن محمد الذي اشتهر باسم الوزير المهلبى سنة ٢٩١ هـ في البصرة وعاش حتى سنة ٣٥٢ . وبدأ حياته فقيراً حتى استطاع بكفايته ان يكون وزير بغداد ومدبر الحكم فيها لمعز الدولة البويهى ولم يطفه الحكم ولم يصرفه في كثير من الحالات عن تحسس حياة الشعب واثار ذوي المواهب وازالة المظالم، فقد كان مشدودا الى ماضيه فاستحق ان يصفه ابن الاثير : « فاحسن السيرة وازال كثيرا من المظالم خصوصا بالبصرة فان البريديين كانوا قد اظهروا فيها كثيرا من المظالم فزالها » .

الفتيش

لم يقف عند هذا الحد بل تجاوزه الى (التفتيش) ليعرف حقيقة ما يجري خارج العاصمة فتجول في البلاد على ما يصف ابن الاثير : « فتنقل في البلاد لكشف ما فيها من المظالم وتخليص الاموال » وهذا شيء فريد يقوم به حاكم في تلك العصور اذ يجعل من نفسه (مفتشا) جوالا يفاجىء الاداريين في مراكزهم ، ويعرض نفسه على الناس ليتقدم اليه ذوو الشكاوى ...

على ان خير ما وصفه به ابن الاثير قوله : « وقرب اهل العلم والادب واحسن اليهم » . وهذا التقريب والاحسان جعل شاعرا كالحسين بن الحجاج ، يرثيه بعد وفاته رثاء لا يدفعه اليه الا الوفاء بل انه رثاه وهو يخشى الانتقام ويتوقع العقاب لان الامر كان قد فسد بينه وبين ولاة الامور

فمات وهم غير راضين عنه . فلما مات قال ابن الحجاج:
يا معشر الشعراء دعوة موجه

لا يرتجى فرج السلو لديه
عزوا القوافي بالوزير فانها
تبكي دما بعد الدموع عليه
مات الذي امسى الفناء وراءه
وجميل عفو الله بين يديه
هدم الزمان بموته الحصن الذي
كنا نفر من الزمان اليه
وتضاءلت همم الكارم والعلی
وانبت حبل المجد من طرفيه

والواقع ان في هذا الرثاء دلالة خاصة فهو
ليس رثاء تقليديا كانذي عرفناه من منظوم الشعراء . ذلك اولاً:
لان الرائي لم يكن يرجو شيئاً بل كان يعرض نفسه لنقمة
السلطان فضلاً عن انه لم يكن للمرئي اهل يتقرب اليهم
الرائي بالرثاء ، بل ان ابنه الصبي كان قد اخذ فور وفاة
والده وصودر هو ووالديه كما اخذ اهله واصحابه وحبسوا .
ثم هذا التفجع المخلص والتوجه بالخطاب الى من يعتبرون
المفجوعين الحقيقيين به وهم الشعراء ، ثم الاقرار بانه كان
ملجأهم الذي يفترون من الزمان . واذا كان غيرهم من
المتسلطين لم يقصروا في اغداق المال على الشعراء المادحين
فالفرق بينه وبينهم كما يعرضه لنا ابن الحجاج ، ان الشعراء
كانوا يبيعون لغير المهلبي كرامتهم حين يقبضون المال ،
اما هو فقد كان يصون لهم تلك الكرامة .

وإذا كان هذا حال الشعراء ، فحديث ابن الأثير يدل على أن حال العلماء كانت الحال نفسها . فلم يكن العلماء بحاجة لشيء كحاجتهم لذي سلطان يقربهم تقريبا لا يبغى منه الا صيانة العلم وحملته . ولذلك رأينا الخليل بن أحمد يرفض دعوة المتسلطين مع فقره وفاقته لانه يدرك ان لها اهدافا لا تطيقها نفسه الكريمة . ورأينا المهلبى يوصف بتقريب اهل العلم والادب .

المسرف

على ان هذا العاطف على الفقراء الحاني على البؤساء المقرب للعلماء والادباء ، كان لا ينسى انه هو الآخر متسلط كالتسلطين فيسرف اسرافا فاحشا كهذا الذي تحدث عنه في معجم الادباء قائلا : وحدث القاضي ابو علي التنوخي قال : شاهدت ابا محمد المهلبى قد ابتيع له في ثلاثة ايام ورد بألف دينار ، فرش به مجالس وطرحه في بركة عظيمة كانت في داره ولها فوارات عجبية يطرح الورد في مائها وينفضه ، وبعد شربه عليه وبلوغه ما اراد منه انهبه .

ولا شك ان هذا السرف واثباهه هو الذي اضطر الشيخ البائس الى الخروج حمارة القيط متاديا على الناظف وان الامر كما قال علي بن ابي طالب عليه السلام : ما رأيت اسرافا الا كان وراءه حق مضيع .

شعره

كان المهلبى اديبا موهوبا وله شعر جيد لا يتجاوز

المقطوعات الى القصائد لا وجله شعر ترف-تتمثل فيه
حياة المجتمع الثري الخفي، وتبدو فيه احيانا روح
عدم المبالاة بالشؤون العامة اذا تحققت الامنيات الخاصة ،
مما كان طبيعة الحكم منذ اليوم الذي استحال فيه حكم الاسلام
الى حكم فردي استبدادي مطلق تسخر فيه كل امكانيات
المجتمع لمصالح الطبقة الحاكمة وحدها . ولعل في شعر
هذا الحاكم افضل صورة لحال الحكام منذ العام ٤١ الهجري
الى عهده وما بعد عهده :

اذا تكامل لي ما قد ظفرت به

من طيب مسمعة او ظرف ندمان

وتهوة لو تراها حلت رقتها

ديني وحافز من ان شئت غناني

فما ابالي بما لاقي الخليفة من

بغى الخصي وعصيان ابن حمدان

ومن الطريف ان سريفة من الجند جهزها معز

الدولة لقتال بعض بني حمدان ، وناط قيادتها بمملوك

تركي جميل . فلم يثر اهتمام الوزير الشاعر

من كل ذلك الاجمال القائد فقال فيه :

طفل يسرق الماء في

وجناته ويرق عوده

ويكاد من شبه العذا

رى فيه ان تبدو نهوده

ناطوا بمعد خصره

سيفا ومنطقة تؤوده

جعلوه قائداً عسكرياً ضاع الرعييل ومن يقوده

وصح ما تنبأ به فكانت الهزيمة نصيب القائد الجميل .
وقد مرت ابياته التي تمنى فيها الموت لما يكابده من
الفقر والخمول ، وهذه ابيات اخرى نظمها في عهده الاول
محروما ضعيفا ، وهي تصف حجرة له كان يسكنها .
ويتحدث هو نفسه عما كان عليه وكانت عليه تلك
الحجرة فيقول : ... فاصبحت يوما وقد جاء المطر
وازدادت الحجرة اظلاما وصدري بها ضيقا فقلت :

انا في حجرة تجل عن الوصف ويعمى البصر فيها بها .
هي في الصبح كالظلام وفي الليل يولي الانام عنها فرارا
انا فيها كأنني جوف بئر
اتقي عقربا واحذر فارا
واذا ما الرياح هبت رخاء
خلت حيطانها تميد انتشارا
رب عجل خرابها وارحمني
من حذاري فقد مللت الحذار

وهذا الذي يقول هذا الشعر اليائس الكئيب في يوم
مطر ، يتول من بعد في يوم مطر آخر جاء لا بالمطر وحده ،
بل بالثلج بعد المطر :

الورد بين مضمخ ومضرج
والزهر بين مكلل ومتوج

والثلج يهبط كالنثار فقم بنا
 نلتذ بابنة كرمة لم تمزج
 طلوع النهار ولاح نور شقائق
 وبدت بسطور الورد تلو بنفسج
 فكان يومك في غلالة فضة
والنبت من ذهب على فيروزج

وهكذا بعد الحديث عن العقارب والفئران يعود
 الحديث عن البنفسج والفضة والفيروزج . وبعد الاكتئاب
 بالغيوم وما تدجي من الحجرات يعود الامر الى
 الانبساط بتلك الغيوم وما توحى من الخيال الطلق
 المرح :

ويوم كان اشمس والغيم دونها
 حجاب بهصينت فما يتهتك
 عروس بدت في زرقة من ثيابها
 يجللها فيها رداء ممسك
 على ان هذا الذي كان قد وصل الى مطامحه
 من الحياة ، وظفر بكل المنى فقال :
 لقد ظفرت والحمد لله منيتي
 بما كنت اهوى في الجهارة والنجوى
 وشارفت جري الشمس فيما ملكته
 من الارض واستقررت في الرتبة العليا
 عاد وهو في قمة ظفره وذروة امانيه يقول :
 اشكو الى الله احداثا من الزمن
 يبرينني مثل بري القدح بالسفن

لم يبق بالعيش لسي الامرارته
 اذا تفوقته والحو منه فني
 يا نفس صبرا والا فاهلكي جزعا
 ان الزمن على ما تكرهيه بني
 لا تحسبي نعمما سرتك صحبتها
 الا مغاتيح ابواب الى الحزن

هكذا يؤكد لنا ان الظفر الحقيقي ليس هو الظفر بالمنى
 المادية التي ليست الا بهارج زائفة لاغناء فيها عند النفوس
 الطامحة الى الرسالات .

ومن العجيب ان هذا الذي تمنى الموت فقرا وخمولا ،
 يتمناه اليوم غنى واشتهارا فقد كتب الى بعض
 الرؤساء (١) بيتين يرى بعضهم انهما له ويرى اخرون انها
 لابي نواس ، وانه ليس له منهما الا التضمين وايا كان الامر
 فهما يمثلان حالة في ساعة من ساعات عهده الجديد
 وما اعتقد هو واعتقد الناس معه انه فيه السعيد كل
 السعيد :

ولو اني استزدتك فوق ما بي
 من البلوى لاعوزك المزيد

ولو عرضت على الموتى حياة
 بعيش مثل عيشي لم يريدوا

صلته بمعاصريه

عدا عن تقريبه للعلماء والادباء كما روى ابن الاثير وقد كان عصره غاصا بهم ، فان ذلك العصر كان حافلا ايضا بفريق من الكبراء ، كان العلم حليتهم التي بها يفاخرون ، والادب زينتهم التي بها يقباهون . فقد كان هناك امثال ابن العميد والصاحب بن عباد الوزيران الاديبان الكاتبان وامثال ابي اسحاق الصابي . وقد كان له بهؤلاء وبغيرهم صلات ادبية ومواصلات شعرية ونثرية .

وكان ابو الفرج الاصبهاني صديقا حميما له يكثر من مجالسته ومحادثته ويحتمل منه ما لا يحتمل من غيره .

من مذكرات سلمان الفارسي

سلمان الفارسي من اشهر اصحاب النبي (ص) ومن اكثرهم نضالا في سبيل الاسلام ومن اقربهم الى محمد (ص) ، حتى لقد قال فيه : (سلمان منا اهل البيت) .

ولما في سيرة هذا الرجل من مغامرات في سبيل الوصول الى الحق ، كان المسلمون الاولون يحبون ان يسمعوها منه فقصها يوما على ابن عباس ، وتداولها الراوون ، حتى نقلها صاحب (اسد الغابة) باسانيدها .

قال سلمان : « كنت رجلا من اهل فارس من اصبهان ، ابن رجل من دهاقينها ، وكنت احب الخلق اليه ، فاجلسني في البيت ، فاجتهدت في المجوسية ، فكنت في النار التي توقد فلا تخبو » .

هكذا بدأت حياة سلمان : ابن رجل مترف يحبه اشد الحب ، ويحرص عليه فلا يجهده بعمل بل يجلسه في البيت ، ويندفع سلمان في المضمار الديني فيكون ركنا في المجوسية وعاملا في نارها التي لا تخبو .

ولكن سلمان هذا الذي لم يشغل باله التفتيش عن الرزق ، ولم يرهقه العمل : سلمان الخلي الثري اشغل باله التفتيش عن شيء آخر وارهقه القلق ! . فهو في اول امره لم يرض حياة الهمود والركود بل سعى

متطلعا الى ما هو فوق الماديات فاجتهد في الدين المجوسي حتى كان من حفدة النار الازلية ! .

ولكن العقل المتفتح والقلب المتألق لم يكونا يرضيانا بالمجوسية مستقرا ونهاية . والفتى الذي لم ييطره النعيم ، ولم يقعده الدلال بل مضى في الافاق الرحبية ينشد الحقيقة الضالة ، هذا الفتى لم يكن ليرضى عبادة النار حقيقة منشودة ! .

ويقول سلمان عن نفسه في هذا الدور من حياته :

كان ابي صاحب ضيعة وكان له بناء يعالجه في داره فقال لي يوما يا بني قد شغلني ما ترى فانطلق الى الضيعة ولا تحتبس فتشغلني عن كل ضيعة بهمي بك .

هكذا انطلق سلمان من البيت ، وكان الذي اطلقه ابوه دون ان يدري انه قد اطلقه لا من البيت الى الضيعة ، بل من البيت الى الدنيا العريضة التي ستضيع اثاره فيها على ابيه . وكانت الخطوة الاولى التي خطاها من بيت ابيه خطوته الاولى الى الخلود الدائم والمستقبل المتألق فقد تابع سلمان حديثه قائلا :

فمررت بكنيسة النصارى وهم يصلون فملت اليهم واعجبني امرهم وقلت والله هذا خير من ديننا ! .

هنا تبدو (تقديمية) سلمان ، وهنا يظهر تحرره تحررا يعز مثيله . فالذين ولدوا ونشأوا على الاديان ابائهم ليس من السهل ان تقنعهم بتغيير هذه الاديان ، مهما كان شأنها ، فالوثنيون والصنميون وعباد النار والكواكب

ليسوا باقل استمساكا وايماننا باديانهم من الموحدين . ولكن سلمان طالب حقيقة اينما كانت هذه الحقيقة ، فهو يدرك لأول وهلة ان هذا الذي يراه في الكنيسة هو خير مما كان فيه ، وهو في هذا الادراك لم يحتج الى مبشر وهاد بل نفذت الحقيقة الى قلبه وعقله لانه لم يسدل دونها حجابا من التعصب والتقليد !

وفي يقيني ان سلمان في هذا فذ من افذاذ الانسانية وان حياته وتطور حياته جديران بكل درس وتحقيق .
ثم يكمل سلمان حديثه :

فاقمت عندهم حتى غابت الشمس ، لا انا اتيت الضيعة ولا رجعت الى ابي فاستبطنني وبعث رسلا في طلبي ، وقد قلت للنصارى حين اعجبني امرهم اين اصل هذا الدين ؟ قالوا بالشام . فرجعت الى والدي فقال يا بني قد بعثت اليك رسلا ، فقلت قد مررت بقوم يصلون في كنيسة فأعجبني ما رأيت من امرهم وعلمت ان دينهم خير من ديننا .

وكانت الصدمة على الاب صدمة عنيفة فان الابن المدلل الرموق الذي كان يخشى عليه ابوه حتى من وهج الشمس وهبوب الهواء ، قد القى بنفسه في اتون متقد ، وخاض في عاصفة عاتية ! . وكان الامر اقوى من ان يصبر عليه هذا الاب المسكين ، فحاول اولا ان يقابله باللين ، ويتم سلمان حديثه فيقول :

فقال يا بني دينك ودين اباك خير من دينهم فقلت كلا

والله !.. وهنا رأى الاب ان اللين لا يجدي فمال الى
الشدة ، يقول سلمان :
فخافني وقيدني !.

ولكن سلمان لم يكن ممن يثني عزمه مثل هذا
التحويل والترويع ، فقد استطاع ان يتصل بجماعة
الكنيسة ، وكان قد سألهم من قبل عن اصل هذا الدين فقالوا
له انه الشام ، والتقى الان في نفسه عاملان فهو عندما
سأل عن اصل هذا الدين كان يريد ان يأخذه من منابعه ،
ثم جاء العامل الاخر عامل الفرار من وجه الاب الغاضب !
يقول سلمان :

فبعثت الى النصارى واعلمتهم ما وافقني من امرهم
وسألتهم اعلامي من يريد الشام ففعلوا وألقيت الحديد من
رجلي وخرجت معهم حتى اتيت الشام فسألتهم عن عالمهم
فقالوا الاسقف ، فأتيته فاخبرته وقلت : اكون معك اخذك
واصلي معك ، قال : اقم فمكثت مع رجل سوء في دينه ،
كان يأمرهم بالصدقة فاذا اعطوه امسكه لنفسه حتى
جمع سبع قلال مملوءة ذهباً وورقا فتوفي فاخبرتهم بخبره
فجزروني فدللتهم على ماله فصلبوه ولم يغيبوه ورجموه
واجلسوا مكانه رجلاً فاضلاً في دينه زهداً ورغبة في الآخرة
وصلاحاً فالتقى الله حبه في قلبي حتى حضرته الوفاة .

هكذا انفصل سلمان عن ابيه واهله سعياً وراء
الحقيقة وآثر العيش غريباً ، متخلياً عن الثراء والقرف ليخدم
رجال الدين ويعيش معهم حياة التقشف والزهد ، ولكنه
وقد استقرت به الارض هل يستقر هو فيها ام سيظل يطوف

مستزيدا من المعرفة مستكثرا من الايمان ؟.

انه هو نفسه يجيبنا عن هذا السؤال ويتم سرد (مذكراته) فقبل ان يموت ذاك الاسقف الفاضل الذي احبه سلمان واخلص له لما رأى من تقواه وصلاحه ، كان حسب الرحلة يعتلج في قلب سلمان ولكنه خشي ان يرحل فلا يهتدي الى الصالحين بل يبتلى بمثل ما ابتلي به مع الاسقف الاول كانز الذهب فسأل معلمه الصالح عن يثق به ليرحل اليه . يقول سلمان :

فذكر رجلا بالموصل وكنا على امر واحد حتى مات فأتيت الموصل فلقيت الرجل فاخبرته بخبري وان فلانا امرني باتيانك فقال اقم فوجدته على سبيله وامره .

وهكذا لم يخيب اسقف الموصل ظنه بل كان على ما اعتقد به اسقف الشام فاطمان قلب سلمان واستراح الى هذا المعلم الجدهد .

على ان الذي لم يفصله سلمان في ذكره رحلته الى الشام هو امر البلد الذي قصده في الشام ، فالشام اسم قطر لا اسم بلد فهل اقام في القدس ام في دمشق ام في غيرها ؟.

ويبدو ان سلمان كان لا يصل الى هؤلاء الصالحين الا وهم في سن عالية ، فكانوا يموتون الواحد بعد الاخر وهو لا يزال في عنفوان شبابه فمات صاحب الموصل واوصاه قبل موته ان يلحق باسقف نصيبين فكان كصاحبيه تقي وصلاحا .

ويروي الذين نقلوا حديث سلمان — كما جاء في اسد الغابة — : ان الصومعة التي تعبد فيها سلمان بنصيبين كانت باقيا الى يومهم .

ويقول سلمان : ثم احتضر صاحب نصيبين فقلت له
 اوصني ، فاوصاه باللحاق بصاحب عمورية من ارض الروم :
 فاتيته بعمورية فاخبرته بخبري فأمرني بالمقام .
 وفي هذه المرحلة من تطواف سلمان يظهر انه كان قد
 تقدمت به السن فشعر بانه محتاج الى شيء من
 الاستقرار ، وان هذا الاستقرار لا يمكن ان يتم اذا لم يستعن
 عليه بمورد مالي يطمئن اليه اذ يقول :

فتاب لي شيء واتخذت غنيمة وبقرات ..

ثم حضرت الوفاة صاحب عمورية دون ان يكون قد دله
 على صاحب آخر ، ثم توفي وسلمان لم يقرر الرحيل الى
 بلد بعد عمورية ، ويبدو من شرائه الغنم والبقر انه كان قد
 وطد العزم على الاقامة بعمورية على ان هذه الاقامة
 لم تطل فقد عاوده الحنين الى البحث والتطلع ، اذ انه
 يحدثنا فيقول :

فمر ركب من العرب من كلب فقلت اصحبكم واعطيكم
 بقراتي وغنمي هذه وتحملوني الى بلادكم .

لم يكن سلمان يعرف ما قد خبأ له القدر في هذه الرحلة
 الجديدة ، ولم يكن يدري ان الحياة ستتعاوره بين اقصى
 الثمقاء واقصى السعادة ، وانه سيعود بعد السيادة
 والعز عبدا رقيقا يباع ويشترى . وهذا ولا ريب اقصى دور
 في حياة سلمان . ونستطيع ان نحس المرارة التي احسها
 هذا الرجل طالب الحقيقة وناشد الخير حين يصطدم بواقع
 الناس الشرير المبطل !

لقد عرض على الكلبين ان يهبهم ثروته على ان

يحملوه الى بلادهم ، وكان العرض سخيا كريما فما نحسب ان (اجور النقل) قافلة الكلبين كان يمكن ان تكون مرتفعة الى الحد الذي يمكن ان يستغرق مثل هذه الثروة التي مهما ضوّلت فهي على كل حال ثروة . ولم يكن يهم سلمان المساومة على المادة فقد هجر الثراء العريض ، ورضي واقعه الفقير لان ما ينشده كان اسمى من الثروات المادية ، لذلك فقد عرض التخلي من كل ما يملك مقابل ان تنقله هذه القافلة الى عالم جديد يجد فيه المزيد من المعرفة !.

استولى الكلبون على الغنمات والبقرات وحملوا هذا الغريب على دابة من دوابهم معينين في السير .
ويظهر ان ما راوه من تفريط سلمان بثروته اغراههم به ، وحملهم على الاستخفاف بحاله معتقدين ان من يعرض هذا العرض انما هو اكلة هينة ..
يقول سلمان :

« فحملوني الى وادي القري فلما بلغناها ظلموني وباعوني من رجل من اليهود » هكذا لقي رجل الحق أفجع مصير يلقاه انسان : اصبح عبدا لليهود !
ولم يكن سلمان يعلم حتى تلك الساعة الى اي ارض وصل به السير ، وهل بلغ بلاد العرب ام لا فهو يقول :

فكنت اعمل له (اي لليهودي الذي اشتراه) في نخله وزرعه ، ورايت النخل فعلمت انه البلد الذي وصف لي .

واقمت عند الذي اشتراني وقدم عليه رجل من بني قريضة (وهي قبيلة يهودية تسكن المدينة) فاشتراني منه وقدم في المدينة فعرفتها بصفتها فاقمت معه اعمل في نخله» .

بهذا ينتهي هذا الدور من ادوار حياة سلمان الذي خطا فيه الخطوة الاولى للقاء النبي محمد (ص) .
والادوار التالية لا تقل عن هذا اثاره فلعلنا نوفق لتسجيلها .

شعراء شعبيون

ثلاثة شعراء مصريين كانوا في عصرهم صورة الشعب المصري ظرفا وادبا وثورة ، وهم كغيرهم ممن عاشوا للشعب وفي الشعب فضاغت اخبارهم وطمست اثارهم ولم يصلنا منها الا النزر القليل ، وهذا الذي وصلنا على ضآلته يرينا جانبامن حياة الجماهير في هاتيك العصور وما انطوت عليه معاشهم ، وما كانوا يعالجون به امورهم من تمازح وتندر ، ومن هزل هو في جوهره الجدل كل الجد .

ورّاق وحمّامي وجزار

هؤلاء الشعراء الثلاثة هم : سراج الدين عمر بن محمد بن حسن الوراق الذي عرفه ابناء جيله باسم السراج الوراق ، ونصير الدين الحمّامي الذي عرفوه باسم النصير الحمّامي ويحيى بن عبد العظيم الجزار ، الذي عرفوه باسم ابو الحسين الجزار .

ولقب كل واحد من هؤلاء مأخوذ من مهنته فقد قالوا عن الوراق انه كان يكتب الدرج لوالي مصر ، فاساس مهنته الوراق ، ونصير الدين كان يشتغل في حمّام عام ، ويحيى كان جزارا يبيع اللحوم .

وهكذا نرى ان الثلاثة كانوا يمتنون مهنا بسيطة ، تجعلهم من هموم الشعب في الصميم .

وإذا كنت قد خصصت هذا المقال بالجزار فلا بد من
الامام اولا بكل واحد منهم ثم بما كان يربط بينهم من روابط
الادب وعلائق الشعر وبما كانوا يتشاكون به من نوائب
الزمن ومتاعب الحياة . فان اجتماع مثل هؤلاء الثلاثة في
وقت واحد وتوثق الصداقة بينهم شيء فريد كان لا بد له
ان ينتج ما انتج .

مساجلات بينهم

فمن ذلك ان السراج كان يقيم في « الروضة » في
القاهرة ، فكتب اليه النصر الحمامي :

كم قد ترددت للباب الكريم لكي

ابل شوقي واحيي ميت اشعاري

وانثني خائبا مما أوّلمه

وانت في « روضة » والقلب في نار

فأجابه السراج :

الآن نزهتني في روضة عبقت

انفاسها بين ازهار واثمار

اسكرتني بشذاها فانتيت بها

وكل بيت اراه بيت خمار

فلا تغالط فمن فينا السراج ومن

اولى بان قال : ان القلب في نار

وكتب الوراق الى الجزار في عيد الاضحى :

اجبت بعيد النحر من كان سائلي

عن الحال في عيدي وقد مر ذكره

إذا بطل الجزار والعيد عيده
 فلا تسأل الوراق فالعذر عذره
 ويبدو انهم كانوا اذا لم يداعب بعضهم بعضا داعب
 كل منهم نفسه بنفسه ، فان السراج كان اشقر ، ازرق
 العينين فقال :

من رأني والحمار مركبي
 وزرقتي للروم عرق قد ضرب
 قال وقد ابصر وجهي مقبلا
 لا فارس الخيل ولا وجه العرب
 وقات السراج ايضا :

بني اقتدى بالكتاب العزيز
 وراح لبري سعيًا وراجا
 فما قال لي اف مذ كان لي
 لكوني ابا ولكوني سراجا
 ومن شكاوى الوراق :

اصون اديم وجهي عن اناس
 لقاء الموت عندهم الاذيب
 ورب الشعر عندهم بغيض
 ولو وامى به لهم حبيب
 وقال بعد ان شابه :

وكنت حبيبا الى الغانيات
 فالبسني الشيب بغض الحبيب
 وكنت سراجا بليل الشهاب
 فأطفأ نوري نهار المشيب

وقال وهي تصف لونا من حياته :
 كم قطع الجود من لسان
 قلد من نظمه النحورا
 وها انا شاعر سراج
 فاقطع لساني ازدك نورا

السراج والضياء

ومن طرائفهم ان السراج خاطب من اسمه ضياء
 الدين :

امولانا ضياء الدين دم لي
 وعش فبقاء مولانا بقائي
 فلولا انت ما اغنيت شيئا

وما يغني السراج بلا ضياء

ويبدو ان ضياء الذين هذا كان ممن تستقضي به
 الحاجات ويقصد للعطايا والملمات ، فقصده السراج بهذا
 القول مستغلا تناسب الاسمين ليهزه بهذا التناسب ، ولكن
 ضياء الدين لم يكن ليهتز للادب ويستثار بالشعر فخاب
 رجاء السراج فيه فعاد يقول :

وها انا سائر في ليل خطب

تساوى الصبح فيه والمساء

فلا انا مثلما ادعى سراج

ولا هو مثلما يدعى ضياء

وهكذا دلنا الشاعر بهذا القول المرير على ما

كان يكابده في حياته وهل اوجع من السير في ليالي

الخطوب التي لا يضيء فيها السراج ولا يشرق الضياء

السراج والشمس والبدر

والتقى السراج من اسمه شمس الدين ومن اسمه
بدر الدين فقال :

لما رأيت الشمس والبدر معا

قد انجلت دونهما الدياجي

حقرت نفسي ومضيت هاربا

وقلت ماذا موضع السراج

وقال السراج ايضا موريا بصناعة الوراق :

يا خجلتي وصحائفي سودا غدت

وصحائف الإبرار في اشراق

وموبخ لي في القيامة قال لي :

اكذا تكون صحائف الوراق

ويظهر ان آمال السراج كثيرا ما خابت في الرجال

فكان يعود للذم بعد المدح متذمرا شاكيا :

مدحته جهدي فما اهتز من

قولي وقال الناس كم تتعب

فقلت ارجو زيادة قال لي

فاتك ، اين اللبـن الطيب

ثم يوغل في ذلك :

ومبخل بالمال قلت لعله

يندى وظني فيه ظن مخلف

جمع الدراهم ليس جمع سلامة

فاجابني لكنه لا يصرف

الشعب الطيب

على انه حين يرى البادرة الطيبة والفعل الجميل ،
و حين يواسيه الناس ويعطفون عليه يعود معترفا بالفضل
مثنيا على الاحسان :

مرضت في حي قوم
ما منهم من جفاني
عادوا و عادوا و عادوا
على اختلاف المعاني

وكلمة « عادوا » الاولى من العيادة والثانية من العود
بمعنى العطاء والثالثة بمعنى الرجوع . وهو في هذا
القول لم يخص شخصا بعينه ، ولا اثنى على كبير قوم ،
بل شمل سكان حي بأكمله قدر له ان يقيم بينهم وان
يمرض عندهم ، فعرفوا حقه فقال ما قال ، ولنا هنا
ان نستدل على طيبة الشعب وكرم جماهيره ، وعلى
ما كان يتحلى به ذلك الشعب من تقدير للادب وتعاطف مع
الشعراء حتى اذا مرض واحد منهم فقير لم يهملوه بل
عاملوه بما انطقه بالذي نطق ، على العكس من الكبراء
الذي شكى منهم الشاعر واضطر الى ذمهم افرادا احيانا
بماعات احيانا :

يا بني الامال قد خاب الرجا
وقد اشدت وقد عز العزاء
سفن الامال في بحر المنى
وحلت منا فايمن الرؤساء

هموم الحمامي

اما النصر الحمامي فقد ضمن همومه بيتين من الشعر
 ارسلهما الى صديقه الجزار :
 مذلمت الحمام صرت به
 خلا يداري من لا يداريه
 اعرف حر الاسى وبأراده
 وآخذ الماء من مجاريه

ولا اعرف صورة للكرب ابلغ من هذه الصورة ، فهذا
 شاعر مرهف الحس رفيع النفس يفد اليه الثقيل
 السمج ، والفظ الغليظ ، فيهب مرحبا ويندفع مؤهلا بمن
 لو كان الامر اليه لتناولهم باللطم وعاملهم بالصفع ، او على
 الاقل : لقعد عن استقبالهم وابتعد عن احوالهم ، ولكنه
 وهو : « الحمامي » ذو المهنة العامة مرغم لا على مداراة من
 لا يستحق المدرارة فحسب ، بل على مدرارة من
 يتناولونه بزرايتهم فلا يدارونه بل يشتطون عليه .

خل يداري من لا يداريه ، هكذا كان امر هذا الشاعر ،
 فلا بدع ان يكون اساه فوق اسى الناس ، فاذا عرف الناس
 الاسى الحار وحده فهو قد عرف اسى لم يعرفه احد من
 الناس الى جانب الاسى الحار الذي عرفوه : عرف
 الاسى البارد ! .. وهو اذا كان في مهنته « يأخذ الماء من
 مجاريه » فلم يكن يأخذه ليروي ظمأ ويبل اواما ، بل
 ليزيد هذا الماء من لوعته فيثير ببرودته طورا وحرارته طورا
 الاسى باردا طورا وحارا طورا آخر ...

وهموم الجزار

وقد تأثر صديقه الجزار بهذا القول فاجابه مواسيا ،
 داعيا اياه الى الصبر :
 حسن التآني مما يعين على
 رزق الفتى والحظوظ تختلف
 والعبء مذ صار في جزارته
 يعرف من اين تؤكل الكتف

ولكن صاحبنا الجزار هذا اذا كان عرف بتجاربه
 ولطول ما مارس وعانى ، اذا كان قد عرف من اين تؤكل
 الكتف ، فقد كانت معرفته نظرية بحتة لم تصل به الى حد
 التطبيق والعمل ، فهو حقا يعرف من اين تؤكل الكتف ،
 ولكنه لا يأكلها ، بل يدعها للمستطيعين الذين يقدر
 على دفع الثمن مهما غلا ، اما هو فله منها المعرفة
 وله منها النظر والتأمل ، وليس منها وحدها بل من كل ما كان
 يوجد في يديه من لحوم ، فلم يكن مستطيعا ان يتخير شيئا
 من اطابها لنفسه :

اصبحت لحاما وفي البيت لا
 اعرف ما رائحة اللحم
 واعتضت من فقري ومن فاقتي
 عن التذاذ الطعم بالشحم
 جهلته فقرا فكنت الذي
 « اضله الله على علم »
 ويكرر هذا المعنى قائلا :

حسبي ضياعا بحرفتي حسبي
اصبحت منها معذب القلب
موسخ الثوب والصحيفة من
طول اكتسابي ذنبا بلا كسب
اعمل في اللحم للعشاء ولا
انال منه العشا فما ذنبي
خلا فؤادي ولي نم وسخ
كأنني في جزرتي كلبني
ويقول متغزلا :
يقول اذ اشكوله زفرتي
لا بد للجزار من « زفره »

ويتأمل بين الحين والحين حاله فيقول مثل هذا القول :
اكلف نفسي كل يوم وليلة
هو ما على من لا افوز بخيره
كما سود القصار في الشمس وجهه
حريصا على تبييض اثواب غيره

لا يتحاسدون

ونحن نرى ان هؤلاء الشعراء قد خرجوا على ما عرف
من تحاسد الشعراء المتعاصرين وتنافسهم ، فتألفوا وتوثقت
بينهم روابط من الود والزمالة جعلت منهم اخوانا متحابين
واصدقاء متراسلين يثني بعضهم على بعض ويؤازر
بعضهم بعضا فسمعنا الوراق يثني على الحمامي :

شاقني للنصير شعر بديع
ولثلي في الشعر نقد بصير
ثم لما سمعت باسمك فيه
« قلت نعم المولى ونعم النصير »
ويصاب الوراق برمد فيهدي اليه الجزار تفاحا
وكمثرى ويكتب معها اليه :
اكافيك عن بعض الذي قد فعلته
لان مولانا علي حقوقا
وان حال منك البعض عما عهدته
فما حال يوم عن ولاك وثوقا
بنفسج تلك العين صار شقائقا
ولؤلؤ ذلك الدمع عاد عقيقا
وكم عاشق يشكو انقطاعك عندما
قطعتم على اللذات منه طريقا
فلا عدتمك العاشقون فطالما
اقمت لاوقات المسرة سوقا
وفي هذه الابيات اقرار بفضل واعتراف بجميل مما
يشعر بتعاون على الدهر وتآزر في الحياة عدا عما فيها من
مدح وتقدير .

الجزار

وصاحبنا الجزار ولد سنة ٦٠١ هـ وتوفي سنة ٦٧٢ هـ
على قول « ١ » او سنة ٦٩٧ على قول آخر (٢) ودفن

١ - اعيان الشيعة .

٢ - ثمرات الذهب .

بالقراءة . وقد ورث الجزارة عن ابيه فهو فيها عريق ،
وعلى غير عادة الابهاء الذين هم في حال مثل حال ابيه ،
فقد شجعه ابوه على نظم الشعر ، وصحبه الى الشاعر
ابي الاصبع ليسمعه شعره ويبدو انه كان لا يزال في
طور الصبا لم تكتمل له ادوات الشعر . اكتمالا صحيحا ، فقال
له ابو الاصبع « انت عوام ماهر » . فسر الاب الامي بهذا
القول ولما سئل ابو الاصبع عما يعنيه بكلمته قال : « انه
ينتقل في الشعر من بحر الى بحر » . ويفهم من قول
صاحب الشذرات انه امتهن الجزارة اول امره ثم تخلى
عنها وتفرغ للشعر والمدح بخاصة . ولا يفهم من الشذرات
انه عاد فتخلى عن الشعر راجعا للجزارة ، ولكن اقوال
الشاعر تدل على ان تعاطيه الشعر لم يستمر ، بل
رجع جزارا كما بدأ ، رجع شاكيا ذل المديح وهوان
المداح وان هناك من لامه على هذا الرجوع وهو صديقه
شرف الدين فقال له :

لا تلمني يا سيدي شرف الدين اذا ما رأيتني قصابا
كيف لا اشكر الجزارة ما عشت زمانا واهجز الآدابا
وبها صارت الكلاب ترجيني وبالشعر كنت ارجو الكلابا

ثم يكرر هذا المعنى ويؤكده :

لا تلمني بصنعة القصاب

فهي ازكى من عنبر الآداب

صار فضلي على الكلاب ومذ

كنت اديبا رجوت فضل الكلاب

ويصفه صاحب الشذرات بهذا القول : « كان جزارا ثم

استرزق بالمدح وشاع شعره في البلاد وتناقلته الرواة وكان
كثير التبذير لا تكاد خلت له تسد .

جزارة وشعر وفقر

وإذا كان قد عاد للجزارة فإن ذلك لم يمنعه عن قول
الشعر ، بل لم يمنعه عن المزاح بين الحين والحين ، وعن
الإشارة إلى شاعريته وإلى جزارته معا ، هاتين
المهنتين اللتين يبدو أنهما لم تغنيا عنه لا مجتمعين ولا
متفرقتين :

يا أمرا يرجى ويخشى لبأس

ونوال في يوم حرب وسلم

انت موسى وقد تفرعن ذا الخطب فغرقه من ندادك بيم

لي من حرفة الجزارة والا

داب فقر يكاد يفسيني اسمي

ويخاطب آخر قائلا :

ولا تفرنك منه (جوخة)

فصلها وهو عليها نادم (١)

وبيعها في البرد غير ممكن

ورهنها لا يرتضيه الحازم

ويطيل شكاياته إلى من لا يرحم ولا يعطف نائرا على

مجتمعه الذي سيطر فيه أهل الثراء فاشتغلوا بثرائهم

١ - هذا يدل على استعمال كلمة (جوخة) من ذلك العصر .

ويقال إن أصل الكلمة تركي مأخوذ من كلمة (جوقة) . ومعناها نسيج من
الصوف .

عن التفكير بالفقراء ومعالجة فقرهم ، مصرحا ان ما يكتمه
من سوء احواله هو اضعاف ما يبيديه خوف الشامتين :

اطيل شكاياتي الى غير راحم
واهل الغنى لا يرحمون فقيرا
واشكر عيشي للورى خوف شامت
كذا كل نحس لا يزال شكورا

ويقول :

طاب عيشي والحمد لله اذ كنت له حامدا على كل حال
ما لباس الحرير مما ارجيه فيرجى ولا ركوب البغال
راحة السر في التخلف عن كل محل اضحى بعيد المنال
ان عز الانسان في تركه العز لذل في مبدأ الاحوال

جد صارم

وينتقل شاعرنا بين الجد والهزل فهو طورا جدي جدية
صارمة يأخذ نفسه بها اخذا كاملا حتى ليخيل اليك
انه ليس ذاك الشاعر الفكه المزاح ، وحتى لتحسب ان رجلا
من نوع آخر هو الذي يقول في رثاء الحسين بن علي عليهما
السلام :

ويعود عائشورا يذكرني
رزه الحسين فليت لم يعد
او ان عيننا فيه قد كطبت
بمسرة لم تخل من رمد
ويدا لثماتة خضبت
مقطوعة من زندها بيدي

يوم سهلي حين اذكره
ان لا يدور الصبر في خلدي

شاعر الكنافة

اما حين يسترسل في لطائفه وفكاهته فانه ينغمر فيهما
انغمارا ينسيه كل وقار ويبعد به عن كل جد ، فقد كان مولعا
بالكنافة محبها لها ، وكانت عزيزة المنال عليه لما تتقاضاه من
مال فاذا اقبل رمضان ولم يصب منها شيئا قال :

فمالي ارى وجه الكنافة مفضبا
ولولا رضاها لم ارد رمضانها
عجبت لها في هجرها كيف اظهرت
علي جفاء صدّ عني جفانها
ترى اتهمتنني بالقطايف فاغتدت
تصد اعتقادا ان قلبي خانها
ومذ قاطعتني ما سمعت كلامها
لان لساني لم يخالط لسانها

وكتب في العشر الاخير من رمضان الى جمال الدين
بن يغمور :

ما رأت عيني الكنافة الا
عند بيعها على الدكان
ولكم ليلة شبعت من الجو
ع عشاء اذ جزت بالحلواني
حسرات يسوقها الطرف
للقلب فويل للفكر عند البمان

كم « صدور » مصنفات وحم من

شبك دونها وكم صواني

ويلح به الشوق الى الكنافة ولا وصول له اليها . فبعد
ان كان يناجئها هي ويتوسل اليها نفسها يعود مستجديا
صديقه شرف الدين مطالباً له بها ، لا يرى غيرها
جائزة للشعر ومكافأة على المدح :

ايا شرف الدين الذي فيض جوده

براحته قد اخجل الفيث والبحرا

لئن محلت ارض الكنافة انني

لارجو لها من سحب راحتك القطرا

فعجل بها جودا فمالي حاجة

سواها نباتا يثمر الحمد والشكرا

حتى اذا تراعت له في صحافها وابصرها امامه عيانا
دعا لها الطف دعاء ورجا لها اظرف رجاء . فالكنافة لا بد لها
من القطر او من السكر ، اما اذا اجتمعا معا فذلك غاية
المقصود ومنتهى المطلوب ، فاذا وقف الشعراء على
الديار وسألوا الله لها الري واغداق المطر ، وقف هو على
الكنافة وقال :

سقى الله اكناف الكنافة بالقطر

وجاد عليها سكرا دائم الذر

ثم يتذكر ايام الحرمان ، ايام كان « المخلل » هو ادامه
وحلواه فيصرخ من الاعماق :

وتبا لاوقات المخلل انها

« تمر بلا نفع وتحسب من عمري »

ثم ينطلق في تغزله بالكنافة متجاوزا اياها الى حلوى
اخرى يسميها « القاهرية » ولا نعلم نحن من امرها
شيئا :

ولي زوجة ان تشتهي قاهرية
اقول لها ما القاهرية في مصر

مداعبات

وقد يحلو لبعض المتأدبين ان يداعبه كما جرى
لما مات حمار له فكتب اليه بعض اصحابه حاسبا انه
يستطيع النيل منه :

مات حمار الاديب قلت لهم
مضى وقد فات منه ما فاتنا
من مات في عزه استراح ومن
خلف مثل الاديب ما ماتنا
ولكن رد الجزار كان حاسما :
كم من جهول رأني
امشي لاطلب رزقا
فقال لي صرت تمشي
وكنت تغشى وتلقى
فقلت مات حماري
تعيش انت وتبقى

وعندما كان يرى تعاضم المتعجرفين وترفع المتكبرين
كان لا يرى في السخرية من الدهر الذي جعل منه وهو
الشاعر جزارا ، لا يرى خيرا من ان يقول :

الاقل الذي يسأل
 عن قومي وعن اهلي
 لقد تسأل عن قوم
 كرام الفرع والاصل
 ترجيهم « بنو كلب »
 وتخشاهم « بنو عجل »

وبنو كلب وبنو عجل هما قبيلتان كبيرتان من العرب ،
 وهو في مهنته ترجوه الكلاب وتخشاه العجول .

وقد استغل هذا القول مجاهد الخياط فقال يهجو
 الجزار :

ان تاه جزاركم عليكم
 بفتنة عنده وكيس
 فليس يرجوه غير كلب
 وليس يخشاه غير تيس
 يقال الجزار بعد ان عجز الشعر عن ان يؤمن له ما
 كان يأمله من رضاء العيش :

اصبحت في امري ولا
 اشكو لغير الله حائر
 فاللحم يتبع ان اعو
 د لبيمه والشعر بائر
 يا ليتني لا كنت جزا
 را ولا اصبحت شاعر
 وضايقه يوما عجوز فقال ليها :

لو برزت صورتها في الدجى
 ما جسرت تتصورها الجن
 كأنها في فرشها رمة
 وشعرها من حولها قطن
 وقائل قل لها : ما سنها ؟
 فقلت ما في فهمها سن

وقال يخاطب ممدوحا مثيرا الى انه كان شاعرا
 نظريا لم يدرس على احد غير نفسه :

وان الشعر دون علاه قدرا
 ولا سيما اذا ما كان شعري
 لاني ما قرأت له صحاحا
 ولا نحوا على الشيخ ابن بري
 وقد شاركه في لغة ونحو
 بلا علم وشاع بذاك ذكري
 وعيشك لست ادري ما طحاها
 وقد اقررت اني لست ادري
 كأنني مثل بعض الناس لما
 تعلم آيتين فصار مقري

ومن طرائفه انه بعد ان ترك الجزارة الى الشعر ،
 خرج يوما للنزهة مع رفقة له فرغبوا بشراء لحم فكلفوه
 بذلك لخبرته ، فعاد اليهم باردا لحم ، فلما تعجبوا من
 ذلك قال لهم : « لما رأني صاحب اللحم عرف بي زميلا قديما

له ، فأقسم علي بان اقطع اللحم بيدي من حيث اريد ،
فنسيت نفسي و غلب علي لؤم الجزائريين .

هذه لمحة عن شاعر يمثل جماهير شعبه التمثيل
الصحيح ، وما اكثر هؤلاء الشعراء الذين عفى عليهم
الزمن واغفلهم مؤرخو الادب فضاعوا وكانوا الاجدر بالحفظ.

ملاحم الملحمة العربية في شعر شاعري الشام

لم يكن بدعا ان تنتج الحروب الصليبية في اوروبا ادبا ملحميا مستوحى مما حفلت به تلك الحروب من احداث وخطوب ، ولم يكن عجا ان نرى في الآداب اللاتينية سواء في لغة الشمال *chanson d'oil* او لغة الجنوب *chanson d'oc* ملاحم لامثال جفري اللومباردي ويوسف اكستر وجنتر باسل وكذلك مثل انشودة انطاكية البروفنسالية *chanson d'antioche* التي الفها غريغوري بشاده ، وقصيدة بودريه وانشودة غرايندور دوياي ، وغيرها .

ولكن كان العجيب ان لا تخلق تلك الحروب الملاحم العربية ، لا في حال تدفق الجيوش الفرنجية وانتصاراتها وما رافقها من فجاجع واهوال ، وما عاناه العرب فيها من هوان وانكسار . ولا في حال انحسار المد الفرنجي واجتماع القوى الوطنية مستخلصة الوطن منه دفعة وراء دفعة حتى انتهت بتلاشيها .

وفيما عدا قليلا من القصائد والمقطوعات اعرب فيها اصحابها عن احزانهم ايام الهزائم وافراحهم ايام الانتصارات ، فان تلك الحروب لم تنل ما كان يجب ان تناله من الشعر العربي ، ولا اوجدت الملحمة في ادبنا ، وكانت بذلك جديرة .

عماد الدين ونور الدين

على انني وانا اقرأ وقائع عماد الدين زنكي
ثم وقائع ابنه نور الدين محمود مع الصليبيين ، حين بدأ
الاول مهاجمة الافرنج ، فكانت انتفاضته اول انتفاضة فيوجه
المحتلين بعد نوم طويل على الضيم .

انني وانا اقرأ ذلك وجدت شعرا عربيا يسجل تلك
الوقائع ويتغنى بها معبرا عما كانت تنضح به نفوس
العرب من الابتهاج والحبور ، وما كانت تفيض به بيئاتهم
من الاستبشار والسرور .

وإذا كان مما يقلل من قيمة اصحاب ذلك الشعر في
اعيننا انهم لم ينظموا شعرهم ابتداء ، ولا كان بنتيجة
تحسس بالشعور العام ، ولا تعبيرا عن حقيقة امورهم ،
بل جاء في معرض المدح والاسترزاق . فانهم وهم يعيشون
في كنف عماد الدين ونور الدين ويحيون في سلطانيهما ،
كان لا بد لهم من ان يمدحوهما استدرارا للعطاء ، وسواء
اكان عماد الدين ونور الدين غازيين منتصرين ، او
متخاذلين متواكلين فانهم سيمدحونهما حتما .
إذا كان الامر كذلك فان حسن حظهم جعل مدحهم غير
منكور ولا مجوج ، وجعلهم دون ان يقصدوا لسان الحياة
العربية والاسلامية في تلك الفترة ، فعبروا عن
مشاعر الامة ونطقوا بلسان الاحداث فاكسبوا بذلك
خلودا لم يكن ليتأتى لهم لو ان عماد الدين ونور
الدين لم يكونا مدبري تلك الوقائع وقائدي تلك المعامع .

شاعرا الشام

وابرز شعراء تلك الفترة شاعران لقبهما معاصروهما
شاعري الشام هما محمد بن نصر القيسراني واحمد ابن
منير الطرابلسي ، ولهما في عماد الدين ونور الدين
مدائح تقليدية ككل مدائح الشعراء في الامراء ، ليست هي
التي تعنينا في حديثنا هذا ، وانما الذي
يعنينا هو تلك القصائد التي نظماها في الانتصارات
فكانت مظاهر للملحمة العربية جديرة بالعبارة والاذاعة .

والقيسراني مولود سنة ٤٧٨ هـ ومتوفى سنة ٥٤٨ هـ وهو
منسوب الى مدينة قيسارية على الساحل الفلسطيني،
ولم يكن الشعر وحده الصفة الغالبة عليه ، بل يبدو
انه كان على مشاركة حسنة ببعض العلوم حتى
ان ابن عساكر سمع منه وذكره بين من ذكرهم من شيوخه .

والطرابلسي مولود سنة ٤٧٣ هـ ومتوفى سنة
٥٤٨ هـ وهو منسوب الى طرابلس على الساحل اللبناني
وهي المدينة التي عرفت في التاريخ العربي باسم
طرابلس الشام تمييزا لها عن طرابلس الافريقية التي
عرفت باسم طرابلس الغرب .

ونحن نرى من ذلك ان الشاعرين من منطقتين نكبتا
بالاحتلال الصليبي وسقطتا في قبضة الفاتحين ، فقد
عانت قيسارية كما عانت طرابلس مرارة الذل ، وهوان
الفتح ، ولكننا لا نرى في شعر الشاعرين ما يدل على
تحسسهما بما كان يشكو منه بلداهما ، وهذا يدلنا على
ان الشاعرين سيقا الى شعر الكفاح سوقا ، ولما لم يكن

لوقائع عماد الدين ثم لوقائع نور الدين صلة لا بقيسارية
ولا بطرابلس بل كانت البلدتان بعيدتين عن ميدان الصراع ،
لذلك لم يذكرهما الشاعران ولا استجاشتها هومهما ،
بل اقتصر الشاعران على ما باشره القائدان من المقاتل في
المناطق النائية لان فيها المادة الوافرة لموضوع المديح ، وهو
الاصل في نظمها هذا الشعر .

لم يكونا متوافقين دائما

ولم يكن هذان الشاعران متوافقين متصافيين دائما ،
بل كثيرا ما تهاجيا وتشاتما ، وفي اثناء ذلك قد تقوم بينهما
مطارحات طريفة فمن ذلك ان ابن منير كان يبكت القيسراني
بانه الشؤم مجسما ، وانه يكفي ان يطل على مجلس
ليصاب اصحاب المجلس **بداهية** ، **وانه ما صاحب احدا**
الا نكب ، قصد ان عماد الدين غناه مغن على قلعة
جعبر وهو يحاصرها قول ابن منير :

ويلى من المعرض الغضبان اذ

نقل الواشي اليه حديثا كله زور

سلمت فلزور يزوي قوس حاجبه

كأنتي كأس خمر وهو مخمور

خرفن الصدغ مسبول ذوائبه

لي منه وجدان : ممدود ومقصور

فاستحسنها عماد الدين وقال : لمن هذه الابيات ؟ فقيل

هي لابن منير وهو بطلب ، فكتب باحضاره ، فليلة وصل

ابن منير اغتيل عماد الدين . فقال القيسراني : هذه

بجميع ما كنت تبكتني به ! ..

يومنا كذلك الامس

وكان الوضع قبل نهوض عماد الدين وضعاً مذللاً سيطر فيه الافرنج سيطرة كاملة على البلاد الممتدة من ماردين الى عريش مصر . ولم يكن ناجياً من ربقة الاحتلال في هذا المدى الواسع الا المدن الاربع : حلب وحماه وحمص ودمشق . على ان هذه المدن اذا كانت قد نجت من الاحتلال فانها لم تنتج من الهوان . فقد كان الفرنج يرسلون وفودهم اليها فارضة ما تشاء من الفروض ، فضلاً عما كانت عليه بقية المدن والقرى . ولعل مما يصور وضع البلاد يومذاك ما قاله صاحب كتاب (الروضتين) : « وكان الفرنج قد اتسعت بلادهم وكثرت اجنادهم وعظمت هيبتهم وزادت صولتهم وامتدت الى بلاد المسلمين ايديهم وضعف اهلها عن كف عاديهم وتتابع غزواتهم وساموا المسلمين سوء العذاب واستطار في البلاد شر شرهم » .

ثم يزيد في وصف الحال قائلاً : « وكانت سراياهم تبلغ من ديار بكر الى آمد ومن الجزيرة الى نصيبين ورأس عين ، اما اهل الرقة فقد كانوا معهم في ذل وهوان ، وانقطعت الطرق الى دمشق الا على الرحبة والبر ، ثم زاد الامر وعظم الشر حتى جعلوا على اهل كل بلد جاورهم خراجاً واتاة يأخذونها منهم ليكفوا اذيتهم عنهم » .

ولا يفوتنا ان نشير الى ما كان عليه العرب من تشاحن وتقاتل وصراع مما كان يحول دون النهوض نهوضاً يرد للامة كرامتها وحريتها .

طلائع الانعتاق

هذا هو حال الوطن حين كان قد استطال امر عماد الدين زنكي ورسخ سلطانه فكان ان هب لمناجزة المحتلين ومقارعتهم ، ثم اخذ ينتصر عليهم انتصارات متتابعة ، اذا كانت في اول امرها هينة النتائج فانها كانت مفتاحا للوثوب ، كهذا الذي جرى حين ردهم عن حصن (شيزر) وحين فتح حصن (الاثارب) وحصن (عرقه) وحصن (بارين) ثم ضرب ضربته الكبرى بفتح مدينة (الرها) .

وكانت الرها (ايدسا القديمة) محكومة من الارمن ، وبعد استيلاء الفرنج في حملتهم الاولى التي تلت حملة بطرس الناسك ، على مدينة (نيقيا) سنة ١٠٩٧م ثم مدينة دوريلايوم (اسكي شهر) من السلجوقيين انفصل بلدوين اللوريني عن الجيش الصليبي الرئيسي وتقدم نحو الرها واستولى عليها بالاتفاق مع حاكمها الارمني (توروس) سنة ١٠٩٨ وانشأ فيها اولى الدويلات اللاتينية . ومنها تقدم الفرنج الى سميساط وسروج والبيرة وغيرها ، فقامت لهم امارة في حوض الفرات الاعلى من مرعش في الشمال الى منبج في الجنوب غربي الفرات ، ثم تمضي شرقي الفرات فتشمل بهسنا والرها وسروج . وكان تركز بلدوين في الرها مما اعاق القائد السلجوقي (كربوقا) امير الموصل عن الوصول في الوقت المفيد لنجدة انطاكية التي كان يحاصرها الجيش الصليبي الرئيسي . ثم كان قيام هذه الامارة تهديدا متواصلا للموصل وما يتبعها مثل نصيبين وماردين وحران ، وكذلك

لديار بكر وما اليها على اعالي نهر دجلة ، بل كان تهديدا ايضا لشمال العراق كله .

واذا كانت الرها اول دولة لاتينية تقوم ، فقد كانت كذلك اول دولة لاتينية تسقط . وبين قيامها وسقوطها ست واربعون سنة ، اذ كان سقوطها بيد عماد الدين ، عام ١١١٤ بعد حصار دام اربعة اسابيع .

صدى الفتح

كان لفتح الرها وقع عظيم هز النفوس بالبهجة والغبطة ، ولم يكن اجدر من الشاعريين ان يكونا صدق لما كان يعتمل في نفوس العرب من السرور وما كانت تجيش به قلوبهم من الامل العراض . لذلك رأيناها يسجلان هذا الفتح بشعر يمكن ان نقول ان فيه ملامح الملاحم وجوهرها ، فان القيسراني يقول فيما يقول من قصيدة طويلة :

مدينة افك منذ خمسين حجة

يفل حديد الهند عنها حداده

تفوت مدى الابصار حتى لو انها

ترقت اليه خان طرفا سواده

وجامحة عز الملوك قيادها

الى ان ثناها من يعز قياده

وكانت الرها حقيقة بهذا الوصف لانها ظلت طوال ما يقرب من خمسين سنة ، منذ ان عجز كربوقا عن فتحها وهو في طريقه لانقاذ انطاكية ، فأوقفه حصارها ثلاثة

اسبابيع بدون جدوى ، وكانت هذه الاسبابيع كافية لوصوله الى انطاكية والقضاء على الجيش الصليبي المنهوك الجائع المحطم النفس ، لو انه لم يتوقف عند الرها فيتيح بذلك للصليبيين استعادة معنوياتهم ودخول انطاكية فلا يصل كربوقا الا بعد سقوطها ، ثم يعجز بعد ذلك عن استردادها فيكون فتحها فاتحة الشروز ومبدأ الهزائم . ظلت الرهاطوال خمسين سنة منيعة ومصدرا للشر ، ومن هنا اوحى للقيسراني بما اوحى من وصفها ثم بتصوير الشعور العربي بالانتصار عليها .

وعن ثغر هذا النصر فلتأخذ الظبا

سناها وان فأت العيون اتقاده

وفتح حديث في السماع حديثه

شهى الى يوم المعاد معاده

اراح قلوبا طرن من وكناتها

عليها فوافى كل صدر فؤاده

فيا ظفرا عم البلاد صلاحه

بمن كان قد عم البلاد فساده

ثم بما احيا هذا النصر من الامل البعيدة :

ولله عزم ماء « سيحان » وردة

وروضة « قسطنطينية » مسترده

ومطلع هذه القصيدة :

هو السيف لا يعنك الا جلاده

وهل طوق الاملاك الا نجاده

وهو مطلع خارج عن الاسلوب التقليدي الذي كان

يفتتح القصائد بالغزل ، وانما هو مطلع مستمد من روح
الملحمة متأثر بجوهرها ، وهكذا بقية المديح في القصيدة ،
فقد خرج عن كونه تعدادا لفضائل ابتذل تعدادها في كل
ممدوح ، بل هو وصف لكفاح قاده الممدوح وحقق الظفر فيه ،
وتعبير عن امال مكبوتة ، وهذا كله يعود الى جذور
الملاحم واصولها .

وهذا عين ما نراه عند ابن منير الذي قال من قصيدة
طويلة :

والرهما ان لم تكن الا الرها
لكنك حسبا لشك المتريين

هم « قسطنطين » ان يفرعها
ومضى لم يحو منها قسط طين
ولكم من ملك حاولها

فتحلى الحين وثما في الجبين

ثم ينتقل الى الحديث عن نتائج فتحها واثر هذا
الفتح عند الفريقين :

ان حمت (مصر) فقد قام لها
واضح البرهان ان (الصين)

برنست رأس «برنس» (١) ذلة
بعدها جاست حوايا «جوسلين» (٢)

«وسروج» مذ وعت اسراجها
فرقت جماعها عنها عظيم

١ - هو أمير انطاكية يومذاك

٢ - هو جوسلين الثاني أمير الرها .

تلك اقفال رماها الله من
 عزمه الماضي بخير الفاتحين
 سل بها « حران » كم حرى سقت
 بردا من يوم ردت « ماردين »
 سمطت امس « سميساط » بها
 نظم جيش مبهج للناظرين
 وغدا يلتقى على « القدس » لها
 كل كل يدرسها درس الدينين

بمد عماد الدين

ويموت عماد الدين اغتيالا ويلينه ابنه نور الدين
 ويستطيع السيطرة على رقعة ممتدة من اعالي دجلة
 شمالا الى منابع الاردن جنوبا ، ويكون الشاعران له
 كما كانا لابييه ، ويصطدم نور الدين بالفرنج ويفوز عليهم
 في معركة « انب » ويقتل « البرنس » صاحب انطاكية في
 المعركة ، وتحقق بشارة ابن منير المتقدمة « ويتبرنس »
 رأس « البرنس » لا بالذلة وحدها بل بالمنية ، وهكذا نرى
 كم كان ذلك الشعر صدى للوجدان العربي والضمير
 الاسلامي في تخيل الامال البعيدة والتلف على المطامع
 القصية . فقد كان « البرنس » كما يقول ابن الاثير :
 « عاتيا من عتاة الفرنج » وكان الخلاص منه احدي اكبر
 الانيات .

وقد رأينا كيف ان القيسراني كان يلوح في تصيدته
 الدالية لا بالخلاص في الوطن فحسب بل بالنفاذ حتى الى
 القسطنطينية :

ولله عزم ماء سيحان ورده

وروضة تسطنطينية مستراده

كما لوح ابن منير بالنصر على البرنيس ثم
بالنفاذ الى القدس :

وغدا يلقي على القدس لها

كلكل يدرسها درس الدين

وتتالت بعد الرها المراحل المرجوة مرحلة مرحلة
وستظل تتوالى ولكن دون ان يقدر للشاعرين ان
يعيشا لمريا تواليها ، اذ انهما ماتا قبل نور الدين .

واستأثرت معركة انب ومقتل البرنيس بشاعرية
الشاعرين وقفزت بالمطامح من القدس والقسطنطينية الى
روما نفسها فقال ابن القيسراني من قصيدة طويلة جرى
فيها على ما جرى عليه في القصيدة الدالية من الافتتاح
بالشعر العسكري لا الغزلي :

هذي العزائم لا ما تدعي القضب

وذي المكارم لا ما قالت الكتب

وهذه الهمم اللاتي متى خطبت

تعثرت خلفها الاشعار والخطب

وفيها يقول :

اغرت سيوفك بالافرنج راجفة

فؤاد « رومية » الكبرى لها يجب

قل للطغاة وان صمت مسامعها

قولا لصم القنا في ذكره ارب

اغركم خدعة الامال ظنكم

كم اسلم الجهل ظنا غره الكذب

اجسادهم في ثياب من دمائهم
 مسلوبة ، وكان القوم ما سلبوا
 انباء ملحمة لو انها ذكرت
 فيما مضى نسيت ايامها العرب
 فملكوا سلب « الابرنس » قاتله
 وهلله غير « انطاكية » سلب
 فانهض الى المسجد الاقصى بذى لجب
 يوليك اقصى المنى فالقدس مرتقب

ونحن نلمس في هذا الشعر شيئا فوق المدح . اننا
 نلمس احساسا متأججا يثيره الذل الذي استحال عزا والهوان
 الذي عاد فتحا ، اننا نسمع اهازيج النصر راعدة مدوية
 وهتافات الظفر صارخة متوعدة تزري بالفاصبيين وتدل
 الى هلمهم وتتغنى بالراجفة التي وجب لها حتى
 قلب (رومية الكبرى) القصية ، ويجيء ذكر روما هنا
 طبيعيا سائغا ، لا نبوغية ولا دلالة تبجح فارغ مستكره .
 ثم هذه الاشارة الى الخطوة التالية المأمولة الى (سلب
 الابرنس) ، هذا السلب الذي يسمو عن المادة ومغرياتها ،
 ان السلب في هذا الصراع الرهيب هو اقلى ما ملك
 (ابرنس) وقوم البرنس : « هو انطاكية » التي كان
 سقوطها فاتحة السقوط العام وسيكون نهوضها فاتحة
 النهوض العام ثم الطريق الى المسجد الاقصى بالجيش
 الهادر المزجر ذى اللجب ، فالقدس ترتقب اهلها وتنتظرهم .
 اننا نرى في هذا الشعر ، الشعب كله ينطلق في صوت
 واحد وشعار واحد : الى الامام ، الى انطاكية ،

الى الشمس ..

ينطلق بذلك لا غرورا وغباء ، وجهلا ، بل يقينا
وعقلا وتفهما .

ويقول ابن منير من قصيدة طويلة افتتحها كزيمه لا
بالغزل بل بما يناسب حالة الكفاح التي كانت فيها البلاد :

اقوى الضلال واقفرت عرضاته

وعلا الهدى وتبلجت قسباته

فتح تمهتت السماء بخضره

وهفت على اغصانها عذباته

وسقى « البرنس » وقد تبرنس فله

بالروح مقرر ما جنت غدراته

تمشي القناة برأسه وهو الذي

نظمت مدار النيرين قناته

وتتابع الفتوح ويلي النصر النصر فينطلق ابن

منير حاملا في قصيدة واحدة قصص الاحداث متنقلا

من مكان الى مكان :

اعدت بممرك هذا الانيق

فتوح النبي واعصارها

فجددت اسلام « سلمانها »

وممّر جدك « عمارها »

وما يوم « انب » الا كتييس

ك بل طال بالبوع اشبارها

ولما هببت « ببرى » سمك

ت باهباء خيلك ابصارها

ويوم على الجون « جون الس
 راة » عز فسعطها عارها
 صدمت « عريمتها » صدمة
 اذابت مع الماء احوالها
 وفي « تل باتر » باشرتهم
 بزحف تسور اسوارها
 وان دالكتهم « دليوك » قد
 شجعت فصدمت اخبارها

واستمر نور الدين في صراعه مع الصليبيين واستمر
 الشاعران في تسجيل انتصارات نور الدين مما يمكن ان يعد
 مجموعته ملحمة من الملاحم العربية وتاريخا شعريا لفترة
 معينة من فترات الحروب الصليبية .

الشيخ جعفر الخطي شاعر الخليج

هذا الخليج الطيب ، الذي تطل منه مجلة « العربي » في مطلع كل شهر فتلقفها الايدي العربية شغوفة ، كان جديرا بمجلة مثل « العربي » لما في ماضيه من صفحات مشرقة بالعلم والادب والشعر ، وبما ساد في ربوعه من شغف بالمعرفة وتفوق في الفقه وتقدم في القريض ، وبما اطلع من كواكب مضيئة في سماء العرب على مر العصور ، وبما خلف افاذه من تراث فكري زاخر .

انه بذلك كان خليقا بان يتابع مجرى ماضيه . فيطلع على دنيا العرب باقباس من النور تضيء حوالك السبل وداجيات المسالك .

ما حققته مجلة العربي

وها هي ذي مجلة « العربي » اليوم تحقق لمحببي الخليج ، ممن خبروا ماضيه وعرفوا مآتيه ما تمنىوه للخليج من دوام الماضي بقيادة نهضات طالما عرفها الخليج ، فمنذ ميثم البحراني ، واحمد المتوج ، وسليمان الماحوزي ، ويوسف آل عصفور ، وعشرات غيرهم كانوا في تاريخنا العلمي وتراثنا الادبي من انصر الوجوه وارفع الرؤوس .

منذ هؤلاء وغيرهم كانت القطيف يوماً والاحساء يوماً والبحرين يوماً ، هي القاعدة والمثبت ، طورا هذه وطورا تلك تسلم كل منها الزمام الى الاخرى او يتولينه معا . وها هي الكويت اليوم بمجلتها الرفيعة تقبض على الزمام وتحمل اللواء فبتقياً ظلاله ، لا الخليج وحده بل العرب حيثما حلوا .

واذا كانت هذه المجلة قد حققت ما لم تحققه اضخم الجهود ، فالفت بين منازع الفكر العربي من اقصى شرقه الى اقصى غربه ، واذا كانت قد استطاعت ان تكون رسول الثقافة الاسلامية الى انأى ديار المسلمين ، ويريد النهضة العربية في شتى ديار العرب ، فانها في واقعها صورة لما كان عليه هذا الخليج ولما نحب ان يظل عليه من بروزي ميادين الادب العربي ومجالات الفكر الاسلامي .

شعر الخليج

والشعر بخاصة كان له في هذا الخليج التفوق والاجادة منذ طرفة بن العبد واخته ، الى علي بن المقرب الاحسائي ، الى من ظلوا على طول العصور حتى هذا العصر ، شعراء من احب الشعراء الى قلوبنا واقربهم الى نفوسنا .

ومن خير ما اختصهم الله به في شعرهم هو هذا الوفاء لارضهم والحنين لبلدهم والتشوق لمولدهم ، ولعل ارادة الله شاعت ان تمتحنهم بالنزوح عن الاوطان والهجرة الى

شتى البلدان ، لا لشر اريد بهم ، بل لخير اريد بشعرهم ،
فكان لنا منه ذخيرة من اللوعة والوجد واللهفة ، تدفقت
شعرا رقيقا وقصائد صافية تلذ للسامع وتطيب للقارىء .

فمنذ انشد طرفة بن العبد :

لخولة اطلال ببرقة ثمهد

تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

وقوفا بها صحبي علي مطيهم

يقولون لا تهلك اسى وتجاد

وانشدد :

وبنو بكر اذا ما اجتمعوا

دوحة الحرب وجرثوم الكرم

وشباب وكهول بيننا

كليوث ضاريات في الاجم

نردع الجاهل في مجلسنا

فترى المجلس منا كالحرم

ومنذ انشد قبله عمرو بن قميئة :

الى دار قوم حسان الوجوه

عظام القباب طوال العوالي

فوجهتهن الى مهمه

قليل الوغى غير صوت الرئال

سراعا ذرائب ما ينثنين

حتى احتلن بحي حلال

بسعد بن ثعلبة الاكرمين

اهل الفضائل اهل النوال

وانشدد ابو زياد الكلبى :

اراك الى كئيبان « بيرين » صبة
 وهذا لميري لو قنعت كئيب
 وان الكئيب الفرد من ايمن الحمى
 الي وان لم آتته لحبيب
 وانشدت الشاعرة الخليجية المجهولة :
 ايا جبلي وادي « عريعة » التي
 نأت عن ثوى قومي وحم قدمها
 الا خليا مجرى الجنوب لعلها
 يداوي فؤادي من جواه نسيما
 منذ اولئك توالى الانشاد تغنيا بالخليج وتمدحا
 بظلاله وحنينا الى نخيله وتشوقا الى شطوطه ، فانشد
 علي بن المقرب الاحسائي :
 يا حبذا وادي « الحساء » وانه
 لو ساءني واد الي محبب
 بل حبذا « درب الثليم » وحبذا
 ذاك القطين به وذاك الملعب

ثم انشد ماجد الصادقي :
 يا ساكني « جد حفص » لا تخطفكم
 ريب المنون ولا نالتكم المحن
 ولا عدت زهرات الجصب واديكم
 ولا اغب ثراه المعارض الهتن
 الدهر شاطر ما بيني وبينكم
 ظلمافكان لكم روح ، ولي بدن .
 ثم انشد علي شبانه :

والى « أوال » تروع قلبي كلما
 سرت الصبا من تلكم الساحات
 والى نواحي أرضها وربوعها
 ولما بها قد مر من أوقات
 وعراضها الفيح التي قد طرزت
 اطرافها بيواسق النخلات
 ثم انشد علي البحراني :
 يا نسيم الريح ان جئت « المقاما »
 فابلغن عني احبائي السلاما
 سفر قد صار من أهواله
 فيه كل المستحبات حراما
 طال حتى ملت الروح به
 الجسم والقلب به حل « المقاما »
 ثم انشد عبد العزيز المبارك :

طال ليلي في « ابي ظبي » ولا
 ظبي لي فيه يضا هي البدر حسنا
 واصحاب اناجيب لهم
 اصبح المجد كما شأوه قنا
 اوطنوا « الاحساء » فارتاحت بهم
 واكتسى الدهر بهم زينا وحسنا
 « بالقبليات » لا زالت بهم
 جنة منها ثمار الخير تجنى
 يا ندماي بذبيك الحمى
 بلغ الله بكم ما نمنى

ثم انشد عبدالله عبد القادر :
لقد غادرت في « هجر » فؤادي
وان امسيت في ارض سواها
ها اهلي وجيراني وصحبي
سقاها الله من بلد سقاها
ثم انشد علي التاروتي :
سمعا مهفهفة « الهفوف » من « هجر »
انغمة الصوت ذا أم رنة الوتر
وذا الذي عطر الافاق فائحه
ترديدنفسك ذا أم نفحة العطر
ثم قال الشيخ عبد الحميد الخطي :

قالوا القטיפ فقلت غاية تصدنا
الق المراسي ايها الريان
السفن اسراب تروح وتغتدي
نوعان ذا وان وذا عجلان
والشرع خافقة الشعاع كأنما
نفضت جناحا في الفضا العقبان
يا حسنه من منظر خلب النهى
يعيا برسم جماله الفنان
يا عادني ذكر الشطوط وطيفها
الا وعاد فؤادي الخفقان
ثم قال عبد الرسول الجشي :
ما زلت لأولوة « الخليج » ولم يزل
للألىء (البحرين) ذكر سائر

وهب الحياة نراك فهي جفائن
 وكسا الجمال رباك فهي مناظر
 وتأشبت فاذا السباح خمائل
 وفتحت فاذا الرمال ازاهير
 وتفجرت فاذا الصخور جداول
 وتضحكت فاذا الخير مزاهير
 وتناولت فاذا النخيل عرائس
 وتخطرت فاذا الغصون غدائر
 دنيا اقام الفن فيها عرسه
 وازيح عن صور الجمال ستائر
 ثم قال فاضل خلف يخاطب البحرين :

بلاد اللآلي المشرقات تقبلي
 شعوري وشعري والهوى يتدفق
 يجوب بنوك البحر هذا مغرب
 يسطر امجادا وهذا مشرق

فهل ترى ارضا عربية ذكرها اهلها وغنى بها شعراؤها
 يمثل ما فعل اهل الخليج بخليجهم حين انشدوا في حنينهم
 شعرا تفجره وطنيتهم ، وبيعته وهاؤهم ، معبرين عما في
 الخليج من المعيات واريحيات ، وممثلين طيب ارضه
 وصفاء سمائه وسؤدد ابنائه .

هكذا نرى الخليج على افواه الشعراء في كل العصور
 نغما عذبا وشدوا رقيقا ، خالذا ذكره خلود الادب دائرا
 اسمه في الناس ما دار الشعر وجمال النثر .

الشيخ جعفر الخطي

وهذا واحد من شعراء الخليج ، بل هذا شاعر الخليج في عصره ، ولد في مغانيه وتنقل بين اقطاره ثم ترحل عنه فهفا اليه وتلف عليه . ذاك هو الشيخ جعفر الخطي المتوفي سنة ١٠٢٨ هجرية ، ١٦١٨ ميلادية لقد عاش بين القطيف والبحرين ثم سافر الى اصفهان حيث كان النابغة العربي بهاء الدين محمد العاملمي الذي جمع الى الحكمة والعلم ، الشعر والادب ، وقد كان لقاء العلمين في اصفهان مجالا لتساجلها بالشعر ، فعارض الخطي قصيدة العاملمي التي مطلعها :

سرى البرق من نجد فهيج تذكاري
عهودا بحزوي والعذيب وذي قار
فقال الخطي :

هي الدار تستسقيك مدمعك الجاري
فسقيا ، فأجدى الدمع ما كان للدار
وفيهما يحن الى الخليج :
اموسم لذاتي وسوق مآربي
ومجنى لباناتي ومنهب اوطاري
سقتك برغم المحل اخلاف مزنة
تلف اذا جاشت سهولا باوعار

وتشاء الاقدار ان تنتهي حياة الشاعر في ايران فيموت بعيدا عن الخليج وارضه ، تلك الارض التي طالما تغنى بها واشتاقتها .

شعره

اجمل شعر الخطي واخذه هو ما كان سدى
لعواطفه ومظهرها لحنينه ، ففيما عدا الشعر التقليدي الذي
عرفه كل الشعراء في تلك الفترات ، فان الخطي نظم في
الحنين الى القطيفحين هجرها الى البحرين ، ثم
في الحنين الى كليهما حين رحل الى ايران . وهو في
كل ذلك يذكر الاماكن ويتشوق الى المنازل :

هلا سألت الربع من « سيهات »
عن تلکم الفتیان والفتيات
ومجر ارسان الجياد كأنها
فوق الصعيد مسارب الحيات
ومجدفات السفن ادنى برها
من بهرهما ومبارك الهجمات
حيث المسامع لا تكاد تفيق من
ترجيع نوتي وصوت حادة
ان « القطيف » وان كلفت بحبها
وعلت على استيطانها زفراني
اذ حيث جزت رأيت فيها مدرجي
طفلا واترابي بها ولداتي
لاجل ملتسمي وغاية منيتي
اني اقيم بتلكم الساحات
فستقى الغمام اذا تحلب ركبہ
تلك الرحاب الفيح والعرصات

واجتازت الزمن العشار فطبتت

بالسقي من « عتك » الى « نبكات »

وهكذا فان « سيهات وعتك ونبكات » هي مطمح
انظاره ومثار هواه ، ومرابع الخليج وما فيها من حياة
بحرية برية تلتقي فيها اصوات الحدأة باصداء النوتية ،
وتمتزج مجاديف السفن بارسان الخيل ، ان حياة الخليج
هذه يشغف بها شاعر الخليج فيصورها لنا ويحدثنا عنها
فنرى في شعره صورة وطنه .

ولا عجب ففي الخليج درج طفلا ، وجال يافعا
وشابا بين الاتراب واللذات كما يحدثنا هو في هذا
الشعر الذي نحس انه شعر « خليجي » بكل ما في
الخليج من طبيعة واحياء وحياة .

واذا كان وهو في البحرين يحن الى بلده الاول
القطيف ، فكيف به وقد نأى عن كليهما ونزح عن الخليج وبعد
عن « مجدقات سفنه » و « مجر ارسان خيله » وحل
بشiraz سنة ١٠١٢ هجرية .

ان جواه في هذا ليطول ووجده ليثور فيقول :

يا هل ترون لنا زح قذفت به

ايدي البعناد « لجد حفص » اياها

لا نحسب « البحرين » اني بعدها

مقبوىء دارا ولا اصحابنا

ما أصبحت « Shiraz » وهي حبيبة

عندي بأهيج من اوال « جنابا »

ولكن البحرين ليست وحدها الان هي التي تشوقه

فهو موزع الفؤاد في الخليج كله ، فاذا فكر البحرين
تداعى الحنين عليه من كل جانب ، فالقطيف قبل
البحرين كانت مدارج صباح وملاعب هواه ، انه لم ينسها
وهو في البحرين غير بعيد عنها ، اينساها وقد شطت
دارها وبعد مزارها:

يا ساكني « الخط » في قلبي لكم خطط

معمورة بمعانيكم مغانيها

يا هل ترون لحني الضلوع على

نكر الديار وقوفا في محانيها

ماذا على الطير اذا أبلى الضنا جسدي

فخف لو حملتني في خوافيها

ان يقعد الطير عن حملي لكم وسرت

ريح الصبا فاطلبوني في مساريها .

وهكذا يتداوله الشوق من القطيف الى البحرين

الى افياء الخليج من حيث امتدت تلك الافياء :

عج بالمطي على معالم (بوري)

لمحل لذاتي وربع سروري

لم تجعل العبرات خدي معبرا

الا على مري بها وعبوري

هل لي الى تلك المنازل عودة

يخبوبها وجدي وفرط زفيري

يا من اسير كل يوم نحوهم

كتبني اذا اعياء علي مسيري

آه وقل على (اوال) تأوهي

فاذا جننت بها فغير كثير

هيهات ما (شيراز) وافية بما
في تلك لي من نعمة وحبور

ويظل يتشوق ويتأوه :

حملات شيراز رفقا بنا
لهجتن بالنوح ما عندنا
الاقل لسكان (وادي المحل)
هل وردوا في الهوى وردنا
فيا هل علمتم وانتم هناك
ما عندنا فيكم ها هنا
فيا صاحبي والفتى ربما
احال على خله ما عندنا

لسكان (ظهر منى) من (اوال)
اول مطلبنا والمنى
الارب تقوم اباحوا لنا
من الوصل اطيب ما يجتنى
وفيهم من الحسن ما فيهم
فلم نر ذلك مستحسننا
يريدون سلواننا عنكم
وان كان ذلك لم يسلنا
فلا تفكرن علينا الرحيل
غداة نأى الركب عنكم بنا
فبالرغم ان يستقل المحب
عمن يحب وان يظننا

هذه ملامح من شعر شاعر الخليج الشيخ
جعفر الخطي كان فيها وفيها للخليج برا به . وهذا الشاعر
لا تقوم بالتعريف به هذه الصفحات القليلة ولكنها اذا
استطاعت ان تدل عليه وتشير اليه فحسبها ذلك .

الشيخ محمد رضا الشبيبي

محمد رضا ابن محمد جواد بن محمد بن شبيب
ابن ابراهيم بن صقر الجزائري (١) النجفي مولدا ومنشأ .
وكان الجد الاعلى لاسرته اي الشيخ شبيب فقيها على
طريقة المحدثين ، وهي الطريقة التي كانت ذائعة لدى
فقهاء العراق في عصره . وقد سجل الشيخ شبيب
نسبه بخطه على ظهر نسخة من كتاب الحدائق المشهور
في الحديث . وهذه النسخة من جملة كتبه الموقوفة .
وكانت ضمن محتويات مكتبة الاسرة .

نشأته ودراسته واساتذته

ولد في مدينة النجف عام ١٣٠٦ هـ ونشأ فيها ،
وكذلك ختم القرآن قراءة فيها على
سيدة سالحة مقرئة هي السيدة (مريم) البراقيّة وتعلم
الخط على الشيخ هادي حصير (بتشديد الياء) وكان
للمعلم المذكور كتاب يتعلم فيه الاحداث : وآ (حصير) بيت
من بيوت النجف عرفوا بهذه المهنة مهنة المكتبيين او المؤدبين
كما كانت تسمى في عصور الدولة العباسية مع ملاحظة
الفارق البعيد في طبيعة هذا العمل وما كانت عليه في

عصور المتقدمين ، وما آلت اليه في أزمنة المتأخرين .

اما علوم اللغة العربية من نحو وتصريف وبلاغة وبيان فانه قرأها على اكثر من شيخ واحد في طليعتهم الشيخ (محمد حسن المظفر) ولعله اجل اساتذته في علم النحو ومن مشايخه في هذا العلم الشيخ محمد جواد الجزائري ، وكان استاذا في فنون اللغة العربية . واما علم المنطق فانه قرأه على اكثر من استاذ كذلك ، في مقدمتهم السيد (مهدي الطباطبائي) من السادة المعروفين بالبحر العلوم ، وكان السيد مهدي معروفا بحدة الذهن والذكاء الوقاد ثم على السيد حسين الحمامي قرأ عليه في كتاب (شرح المطالع) . والسيد هبة الدين الشهرستاني من اوائل اساتذته في المنطق قرأ عليه سنة ١٣٢٣ (كتاب الجوهر النضيد في شرح منطق التجريد) وهذا الشرح من اجل شروح العلامة الخلي في هذا العلم اما المتن الذي يسمى (منطق التجريد) فهو من مصنفات الحكيم نصير الدين الطوسي وكان كتاب القراءة الاول الذي يدرس في (علم المنطق) كتابا موجزا يقال له (شرح التهذيب) لمصنفه الملا عبدالله اليزدي ، اما متن التهذيب فهو من مصنفات سعد الدين التفتازاني ويقرأون بعده اي بعد كتاب التهذيب (شرح الشمسية) المتداول في المنطق للقطب الرازي . اما متن الشمسية فهو من مصنفات عمر بن علي المعروف بالكاتب القزويني تلميذ (نصير الدين الطوسي) اهداه الى (شمس الدين الجويني) وزير المغول ، ويعتد الجويني كما لا يخفى من خيرة وزراء المغول الذين

عنوا بشؤون الاسلام والمسلمين في محتهم بعد غلبة القوم على الديار الاسلامية وهذا الكاتبى القزوينى احد الحكماء الستة التى اختارهم نصير الدين الطوسى لمعاونته فى تأسيس (مرصد مراغة) والمعهد العلمى وخزانة الكتب الكبيرة فى تلك المدينة المغولية وكان مؤرخ العراق ابن الفوطى مصنف كتاب (مجمع الاداب) فى معجم الاسماء والالقباب قيما على مكتبة (المرصد) وقد عني فى كتابه المذكور بتاريخ المرصد والمدرسة والمكتبة وكل ما يتصل بشؤون النهضة العلمية الكبرى فى مراغة وتعد هذه النهضة من مآثر المغول فى مستهل دولتهم فى المشرق والعراق وقد عقد ابن الفوطى فصلا لطيفا فى كتابه ترجم فيه للكاتبى القزوينى الحكيم .

واما علم الفقه وعلم الاصول فقد قراها المترجم على اكثر من استاذ ففى الاصول قرا كتاب المعالم للشيخ زين الدين العالمى وكتاب القوانين للقمى وفى الفقه قرا كتاب شرايع الاسلام للمحقق الحلى وكتاب الروضة البهية فى شرح اللمعة الدمشقية قراه على الشيخ عبد الكريم آل الشيخ صالح الجعفرى . وتخرج فى الادب وعلومه على اشهر مشاهير ادباء تلك المدينة وفى طبيعتهم السيد حسين عميد آل القزوينى وكان شاعرا خبيرا بفنون الادب مجددا بعيدا عن الجمود يفضل دراسة الكتب القديمة الاصلية على كتب المتأخرين . وعلى الشيخ هادى نجل الشيخ عباس من آل الشيخ جعفر الكبير .

وكان الشيخ الهادي اديبا ذواقة للشعر معنيا بروايته . وقد عني هذا الشيخ بشؤون التربية واقتنى مكتبة ثمينة غنية بالمخطوطات وقلما توثقت علاقة بين اثنين كالتى كانت بين والد المترجم الشيخ جواد والشيخ هادي المذكور . ولا عجب فان تلك العلاقة كانت ذات جذور عميقة يغذيها اخلاص متبادل وصفاء لا تشوبه شائبة . ولما توفي الشيخ عباس والـد الشيخ الهادي سنة ١٣١٥ رثاه الشيخ جواد بثلاث قصائد تعد من عيون شعره وهذه القصائد الثلاث يشعر من يقرأها بمتانة تلك العلاقة ، فهي بمثابة تعبير جميل عن شعور صادق واءاء وثيق وصحبة اكيدة ، وقرأ المترجم في الادب ايضا على اساتذة آخرين عدا ما اخذه عن والده واقرانه في ذلك الزمان . وكانت تعقد في النجف مجالس تلقى فيها بحوث ودروس بشكل محاضرات في الفقه والاصول يختلف اليها عدد كبير من الطلاب ومن اشهرها مجلس يعقد للشيخ الملا كاظم الخراساني الاستاذ المدرس المشهور في علم الاصول وآخر يعقد للشيخ فتح الله المعروف بشيخ الشريعة وهو خاص بالبحوث الفقهية وكان الشيبسي يختلف الى هذه المجالس العلمية .

عمله في الاصلاح

وكان ذلك كله في اواخر عصور الدولة العثمانية . اى قبل نشوب الحرب الكونية الاولى . وهو عصر امتاز بيقظة فكرية ظهرت في الاقطار التابعة للدولة العثمانية ومن جملتها العراق . وكان هدف تلك اليقظة المطالبة باصلاح

شؤون الدولة حيث اسهم المترجم له مع شباب ذلك العصر من عراقيين وغيرهم في الدعوة النسي الاصلاح . ثم كانت له جولات معروفة في الصحافة خصوصا السورية والمصرية ومن يتصفح بعض صحف مصر وسورية ولبنان والعراق الصادرة في ذلك العصر يقرأ له فيها شعرا اجتماعيا او سياسيا غير قليل ومقالات ادبية وتاريخية ولغوية وكلن لجمهرة المتأدبين شغف بالغ يقصائده وحفظها وروايتها في تلك الفترة حمل المترجم لواء الدعوة السى الاصلاح السياسي والاجتماعي في شعره وبثره منذ نشأ وكانت له رسالة من هذا القبيل في بلاد العرب والعراق وفي اقاليم العرات خاصة .

ويقول مؤرخو الادب العراقي الخديث انه من اوائل من طرق الموضوعات الاجتماعية وتناولها في شعره بين شعراء العراق واولهم على الاطلاق بين شعراء النجف . وكان ذلك حوالي سنة ١٣٢٠ للهجرة (١٩٠٥) كما كان عمره اذ ذاك حوالي الخمس عشرة سنة . واشهر الصحف والمجلات التي نشرت ما نشرت له من منظوم ومنتور في ذلك الحين : المقتبس (مجلة وجريدة في دمشق الشام) والبرق البيروتية ومجلة العرفان ومجلة الزهور المصرية وصحف عراقية اخرى معروفة ، وله ديوان شعر عنوانه (ديوان الشبيبي) طبع في القاهرة سنة ١٩٤٠ .

بحوثه ودراساته

والشبيبي دراسات وبحوث تاريخية وادبية وسياسية

بعضها مطبوع واكثرها مخطوط من ذلك بحث عنوانه (فين التريسة في الاسلام) للقاه على طالبة كلية التربية ببغداد سنة ١٣٧٧ - ١٩٥٨ ودراسة في اللغة عنوانها (اصول الفاظ اللهجة العراقية) واخرى في الادب موضوعها ادب المغاربة والانديليين في اصوله المصرية ونصوصه العربية (١) وهي محاضرة القاها على طالبة معهد الدراسات العربية العالية في القاهرة هذا الى بحوث غير قليلة في التاريخ والادب واللغة القيت في دورات مؤتمر المجمع اللغوي في القاهرة وعددها خمس عشر دورة. وقد نشرت محاضر الدورات المذكورة وفيها امثلة من تلك البحوث والمحاضرات . واخر مجهود ظهر له كتاب عنوانه (رحلة في بادية السماوة) نشرت اخيرا في بغداد .

مساهمته في الحرب الاولى

ولما اعلنت الحرب الكونية الاولى واندلعت في العراق سنة ١٩١٤ شارك في هذه الحرب الى جانب الجيش العثماني وحضر معركة الشعيبة الطاحنة التي خذل فيها الجيش المذكور ، ومن ثم انتحر على الفور قائده امير اللواء (سليمان عسكري) وكان الى جانب القائد المذكور في ميدان الشعيبة ابان هذه الحادثة التكرار . ومن ثم عاد مع فلول الجيش المتقهقر الى مدينة الناصرية .

كان القائد سليمان العسكري شجاعا مقداما غير انه لم يزود بمعلومات كافية عن معاقل الانكليز ومناعتها

في ميدان الشعبية ، ولذلك خابت محاولاته في الاستيلاء على المواقع المذكورة ومنى الجيش بخسائر كبيرة بعد هجمات انتحارية ضارية اشرف عليها سليمان عسكري القائد العام بنفسه ، وكان المترجم له معه فعلا في ذلك الميدان وقد خصص له سلاح وركوبه . ولمشاركة الشبيبي في حرب (الشعبية) الناشبة بين البريطانيين والأتراك في العراق قصة نادرة لا يخلو ايرادها من فائدة وذلك على الصورة التالية :

كانت رئاسة هيئة اركان الجيش التركي انشأت في بغداد سنة ١٩١٤ مدرسة عسكرية عالية سميت (مدرسة ضباط الاحتياط) حشروا ممن حشروا فيها فريقا من طلبة المدارس الدينية ، وكان الشبيبي من بينهم ، كما كانت التركية لغة التعليم في هذه المدرسة ومعظم الاساتذة ضباط اترك كان تدريبهم على جانب من العنف والشدة ، على ان الشبيبي استطاع اقناع السلطات التركية ببغداد باستثناء طلاب المدارس الدينية واعفائهم من الانتساب الى مدرسة الضباط فصدر الامر بتسريحهم على ان يلتحقوا بفرق المجاهدين المتطوعين في تلك الحرب وجلهم من افراد القبائل العراقية عربا وكرادا فالتحق في بعثة مرسلة الى عشائر الاكراد في الجنوب قوامها فريق من رجال الدين وضباط الجيش اتجهت من مدينة (بدر) الواقعة على واد يسمى وادي (بادرايا) الى المنطقة الجبلية الواقعة شرقي العراق وسكانها من الاكراد التابعين لايران وذلك لمنع الانكليز واعوانهم من التغلغل

الى تلك الجهة من منطقة البصرة والاهواز وتطويق الجيش التركي المحارب في مواقع الكوت والفلاحية المشهورة ، وهناك اجتمع بامير الاكراد الذي استجاب الى الطلب وتعهد بان يقف سدا دون تسرب طلائع البريطانيين على شرط تزويده بالسلاح وبمبلغ من المال وقد زود فعلا بذلك وقد تم الاجتماع بهذا الامير الكردي في مخيم له على ضفاف واد عريض يسمى (باكسابا) وكانت صفاته خصبة مزدهرة وهذا الوادي ووادي (بادرايا) الذي قبله ينحدران من سفوح الجبال الشرقية او الكردية المذكورة ويمران في السهول حتى مصبهما في نهر دجلة وهما تابعان اداريا للواء العمارة . وجل الزراع العاملين في هذه الجهات ينتمون الى بني لام . يقول الشيخ الشبيبي في بعض ما كتبه : وقد سرنا على ضفاف الواديين من سفوح الجبال حتى السهول المنتهية بشواطئ دجلة ولا تخلو كتب البلدانين من ذكر (بادرايا وباكسابا) ومن ذلك معجم البلدان لياقوت . وبعد مكث الشبيبي مدة في تلك الجهات دعي ببرقية تدعوه التي مرافقة هيئة القيادة العامة للبعثة العسكرية المجهزة لاسترداد البصرة ، وكانت قد وصلت الى مدينة الناصرية ولا مناص له من المرور على مدينة (الكوت) وعلى الغراف في طريقه الى الناصرية وهي مسافة بعيدة ، وكانت الطرق كلها مغمورة بالمياه في فيضان قلما شهد العراق نظيره بل اصبحت اليابسة وكأنها بحر لا ساحل له فاضطر ان يخوض الماء على ظهر جواده حتى مدينة (الكوت) وكانت مهددة بالغرق وواصل رحلته منها بطريق الغراف حتى التحق بمقر قيادة

الجيش التركي وقائده امير اللواء (سليمان عسكري)
وصادف امير اللواء سليمان عسكري وهيئة اركان حربه
على شاطئ الفرات في الناصرية وهم هلى اهبة
الحركة الى (الشعبية) بطريق بحيرة الحمّار. وفي
زوارق بخارية فاستقبلوه في زورق القائد العام وانحدرت
السفن الى سوق الشيوخ ومنها الى منطقة الاهوار
والبطائح المشهورة حيث اجتازوا في المنطقة على سدود
زراعية يقيمها الفلاحون وتوهم الاتراك لسوء فهمهم ان
غرض الفلاحين سد الطريق على سفنهم وكانوا على
اهبة الاشتباك بالسلاح مع اولئك الفلاحين. ومرد ذلك
الى نزع التركي وهوسه فاسرع الشبيبي الى الفلاحين
وطلب الى الفعلة بلطف ان يخلو الطريق للزوارق التركية
ولركب القائد وافهمهم بان الجيش ذاهب للدفاع عن البلاد
وان القائد الغام من جملة ركاب الزوارق ففتحوا الطريق
وانحدرت السفن في طريقها الى ساحل البطائح الى
معسكر (النخيلة) وهو قاعدة جيش الاتراك المنظم، وفرق
المجاهدين او المتطوعين **المراقبين** وقد اربى عددهم
على ثلاثين الفا وكانت بعض الزوارق البخارية المذكورة
تقطر سفنا شرعية موسوقة بخبز عفن مسود تعافسه
النفس وحسبك هذا دليلا على حالة المؤن والتموين. ولم
يخل مركز القيادة يومئذ من ضباط المان يغلب عليهم ضرب من
الوجوم والوحيرة وكان القائد العام سليمان عسكري قد
امر بحشد الجيش فعلا في الخطوط الامامية من ميدان
الشعبية وذلك في خطة مرتجلة غير مسبوقة بتبصر وروية ،
وامر بمهاجمة معاقل البريطانيين فيها ولم يعلم بحصانتها

ومناعتها الا بعد فوات الوقت وقد اسفر الهجوم عن خيبة مريرة وتراجع الجيش بخسائر فادحة . ومن ثم انتحر القائد العام في مأساة معروفة ، وكان اليأس من نجاحه في ادارة رحى المعركة سببا في انتحاره ، ولو بقي هذا القائد حيا لاسر فيمن اسر من ضباط وجنود في تلك المعركة الضارية . فان الجيش البريطاني شن هجوما مقابلا طوق فيه ذلك الميدان . اما المجاهدون او الذين سموا كذلك من افراد القبائل فكانوا اسرع من غيرهم الى الهزيمة .

وقد طورد المنهزمون بسيارات مصفحة ظهرت لأول مرة في حرب العراق حتى قاربت قاعدة الجيش التركي في النخيلة وكانت تطلق نيرانها الحامية في اقفية المتراجعين من افراد الجيش والمجاهدين وفي مساء ذلك اليوم شرع الاتراك بالانتقال الى قواعد جديدة في المنتفك لم تصمد ايضا ازاء تقدم البريطانيين وكان ظفر البريطانيين في الناصرية على الفرات ، وفي العمارة على دجلة مفتاحا لاكتساح العراق برمته . وكان امير اللواء سليمان عسكري يعتمد في ميدان الشعبية على قائد باسل مثله اسمه (حمد بك) عهد اليه بادارة رحى المعركة وقيادة الهجوم في الخطوط الامامية الذي استمر يومين بدون انقطاع وبدون جدوى ايضا فاستدعاه سليمان عسكري من خط النار والحرب دائرة بعنف وسأله عن مصير الهجوم فكان الجواب والشببيي يسمع ان معاقل العدو في غاية المنعة ومنذ تلك اللحظة قرر القائد العام سليمان عسكري الكف عن مواصلة الهجوم .

وامر تحت جناح الظلام بالتقهقر الى قاعدة الجيش في غابة (البرجسية) الواقعة في ضواحي مدينة (الزبير) والغابة كلها من شجر الاثل والطرفاء .

بعد انتهاء الحرب العامة الاولى

ولما عقدت الهدنة العامة سنة ١٩١٨ اي بعد انتهاء الحرب الكونية الاولى باندحار المانيا وحليفها تركية وعقب احتلال العراق قام المحتلون بانشاء حكومة قوامها فريق من ضباط الجيش .

ولم يحسب للشعب العراقي حساب في تأليف هذه الحكومة ، ومن ذلك التاريخ شرع العراقيون بمقاومة تلك السلطة الاجنبية وبدأوا يطالبون الانكليز بالجلاء والوفاء بعهودهم التي قطعوها للعرب بشأن حقهم في تقرير المصير . وهذه العهود عبارة عن مراسيم اصدرها في العراق قادة الحلفاء واذاعوها مذيلة بتواقيع رؤساء حكوماتهم بعد تقهقر الاتراك في ميدان الحرب العراقية الى شمال الموصل واحتلال بغداد . وفي هذه المراسيم ما فيها من الاماني المعسولة والمواعيد الخلابة في اسداء العون للعرب في كفاحهم لنيل حريتهم وبعث تراثهم الجيد في الحضارة . والح العراقيون على الانكليز بان تتكون في العراق حكومة مستقلة ذات سيادة . وكان للشبيبي في هذا العهد جهود معروفة في مقاومة دسائس المحتلين والمطالبة بما قطعوه للعرب والعراقيين من عهود ووعود . ولما اضطرت حكومة لندن الى تكليف

نائب الحاكم السياسي العام في العراق السر (ارنولدولسن) باستفتاء العراقيين . وجه الحاكم المذكور بواسطة حكام الاقاليم من الضباط السياسيين اسئلة معينة الى اهل العراق في اجتماعات كانت تعقد في مكاتب الحكام المذكورين ويشهدها فريق من الوجوه والزملاء وكان السؤال الاول عن جنسية الحاكم الذي يريدونه والثاني عن شكل الحكم . والثالث عن حدود العراق . فكانت اجوبة العراقيين مغايرة تماما لرغبة الانكليز .

طالب الشبيبي في الاجتماع الذي عقد في مدينة النجف بحكومة دستورية يرأسها ملك عربي . وعبر بذلك عن رغبات احرار العراق على صورة اثار امتعاض الحاكم العام فقاطعه في تلك الجلسة ضاربا - اي الحاكم - بقضة يده على المنضدة ولكن بدون جدوى والواقع ان اثق ما كان يشق على البريطانيين يومئذ هو ذلك الشعور الحي بالكرامة لدى ابناء العراق الاحرار ولنا ان نقول ان جملة من الحوادث التي اريقت فيها الدماء نشأت في العراق عن خشونة في اللهجة او عجرفة استعمارية في اللقاء اعتبرها الجانب العراقي جارحة لكرامته ، ماسة بشرفه وهكذا فان الشعور الحي بالكرامة ونزعة الاستعماريين المعروفة في الشموخ والكبرياء ضدان لا يجتمعان وما اكثر الشواهد على ذلك ، ففي احداث العراق خلال فترة الاحتلال . ولا حاجة الى القول بان للشبيبي مواقفه المعروفة في هذا الدور الخطير من ادوار الكفاح بين الشعب العراقي والسلطة

المحتلة خصوصا في بعض المراكز المعروفة كالحلة وكربلاء والنجف والديوانية وبغداد فان الروح الوطنية التي بعثت يومئذ كانت قائمة على نشاط عدد من العلماء ورجال الدين والوجوه والزعماء والشباب في المدن والارياف المذكورة . وكان هو في طبيعتهم . هذا ولما اخذت السلطات الانكليزية المحتلة تمطل وتسوف في تلبية مطالب العراقيين والاعتراف بحقوقهم المشروعة ، وقد اعلنوها وطالبوا بها مرارا خصوصا بعد اجراء الاستفتاء الذي تقدم ذكره . ولما كان قادة الثورة العربية في سورية والحجاز يجهلون ما يجري داخل العراق من صراع عنيف بين احرار البلاد والسلطات الانكليزية . وكان من الضروري اعلام زعماء العرب خارج العراق بحقيقة الحال هناك — فكر صاحب الترجمة بأن يقوم بهذه المهمة . وفاتح بذلك فريقا من اصدقائه وزملائه العاملين من علماء ورؤساء وغيرهم من الشباب الناهض واقتنعهم بضرورة تنفيذ هذه الفكرة فوافقوا على رايه .

رحلته الوطنية

ومن ثم قام برحلته الى البلاد العربية منتدبا عن العراقيين لدى الحكومتين العربيتين في مكة المكرمة ودمشق الشام اذ ذاك . وزود بوثائق مذيلة بتواقيع زعماء البلاد وعلمائها وقادة الرأي العام فيها تضمنت انتدابه ليمثل العراق لدى الحكومتين المذكورتين وابلاغهما رغائب العراقيين وايقافهم على الاحوال الجارية في

العراق . وقد بارح العراق في اواخر سنة ١٩١٩ الى مكة المكرمة مسالكا طريق البادية من البصرة الى (جبل شمر) في الديار النجدية فالمدينة المنورة . ومن المدينة الى مكة .

وقد قاسى الاميرين في هذه الرحلة الشاقة وصحب قافلة من البدو المسلحين واجتمع قور وصوله الى مكة بشريفها الحسين بن علي ملك العرب اذ ذاك وبانجائه الامراء ومنهم (علي) و (عبد الله) في مكة المكرمة وهذا هو ثاني اجتماع له بهم اما الاجتماع الاول فقد كان في الوادي الذي يسمى (وادي فاطمة) على قيد مرحلة من مكة في مخيم لهم هناك وكان الجميع بلباس الاحرام ، ولا يخلو وادي فاطمة من خصب وفيه بساتين يرويها جدول صغير ينحدر الى الوادي في شبه قناة او صهريج من الطائف .

في الحجاز

واستقبله الملك حسين في قصر الامارة بمكة وخلا به حيث قدم له ما معه من الوثائق . وتحدث اليه واطلمه على حقيقة الاحوال في العراق ، وان العراقيين يعانون كثيرا من الضيم والارهاق تحت ادارة الاحتلال . ويطالبون اشد المطالبة بالحرية والاستقلال وانهم مستعدون لحمل السلاح وعلان الثورة والتضحية في هذا السبيل بنفوسهم ونفائسهم كما وقع ذلك فعلا . وقد طلب الشيبوبي الى الملك حسين ان يبذل جهده في سبيل تحقيق مطالب الشعب العراقي ، وتكليف رسنه

وممثليه في مؤتمر الصلح الذي كان ملتئما في باريس بذلك . وكان (فيصل) يعاونه شباب اكفاء من السوريين وغيرهم يمثل والده في المؤتمر المذكور ، فما كان من الملك حسين الا ان اعلم فيصلا بالوضع الراهن في البلاد العراقية وبان يدافع عن حقوق العراق في مؤتمر الصلح استنادا الى تلك الوثائق التي تسلمها من الشبيبي في مكة المكرمة وقد ادعى بعضهم انها لم تصل اليه والواقع انها وصلت كما اخبره بذلك فيصل نفسه في الشام . ثم ان الملك حسين كتب بهذا المعنى رسائل اجاب بها العراقيين من علماء وزعماء واعلمهم بتسلم الرسائل والوثائق التي حملها الشبيبي ووعدهم وعدا قاطعا في كتبه بانه مستعد للتضحية بنفسه وعرشه في سبيل استقلال العراق بحدوده المعلومة . وقد وهى الحسين بوعد فانه توفي بعد ان اخرج من مكة واضطر للقتال عن عرشه بسبب صلابته وثباته وهو الان يرقد في مثواه بفلسطين تغمده الله بالرحمة . وقد وصلت رسائل الملك حسين هذه الى كافة من كاتبه من قادة الثورة في العراق حملها اليهم حجاج عراقيون بناء على طلب الشبيبي . وبعد ان اقام الشبيبي مدة لا تقل عن { يوما في مكة بارحها الى المدينة المنورة ومنها استقل القطار وكان بحالة يرثى لها من الخراب بعد الثورة وذلك الى حدود الشام . فلا جسر ولا مرافق اخرى ولا مستخدمين حتى ان رحلة القطار بين المدينة ودمشق استغرقت خمسة وعشرين يوما وهي لا تستغرق في العادة اكثر من ثلاثة ايام . هذا ولبعض الضباط البريطانيين فيما يقال ضلع في ذلك الدمار .

في دمشق

وفي دمشق اجتمع بالملك فيصل بعد عودته من أندن وبقيادة الحركة العربية من عراقيين وسوريين وفلسطينيين وغيرهم وتؤكد لديه منهم وصول تلك الوثائق العراقية . وهكذا مثل العراق في عدة جمعيات ومؤتمرات من أشهرها المؤتمر العراقي الذي التأم في الشام سنة ١٩٢٠ ونادى — اي المؤتمر — على رؤوس الأشهاد باستقلال العراق استقلالاً تاماً على ان تقوم فيه حكومة دستورية . وتوجد وثيقة هذا المؤتمر مذيلة بتوقيع اعضاءه من العراقيين المقيمين في سورية يومئذ ومنها توقيع الشبيبي ، هذا وقد اقيمت في دمشق وغيرها من الحواضر السورية كبيروت وصيدا في ذلك الحين حفلات تكريمية له . وقد انتهز فرصة وجوده في سورية فراح يدافع عن حقوق العراق ، وله في هذا المضمار مقالات وقصائد معروفة نشر منها في الصحف والمجلات الصادرة في دمشق وفي بيروت وصيدا في ذلك الحين ثم في ديوانه المطبوع . هذا ولا بد لنا من القول ان الشبيبي كان طول مكثه في الديار السورية يراقب تطور الوقائع والاحوال في الدولة المذكورة ، وقد تجلت في ذلك الحين نوايا الحلفاء وبيتوا غدرهم بالعرب وان البلاد العربية التي كانت تابعة للدولة العثمانية قسمت الى (مناطق نفوذ) بين انكلتره وفرنسا ، فكانت البلاد السورية من نصيب فرنسا ، ولذلك غادرها الانكليز الى فلسطين .

غدر الحلفاء

فوجهت فرنسا انذارا نهائيا الى الملك فيصل بالنزول على مطالب الحكومة الفرنسية المنتدبة من قبل عصبة الامم على سورية ، وكانت الحكومة تميل الى الدخول في المفاوضات مع الفرنسيين اما الشعب السوري فقد هاج وماج وثار تائرة السوريين وتوالت المظاهرات في دمشق كما شهدها المترجم بنفسه في احياء دمشق وجاعات الجموع الى قصر الملك فيصل في حي (المهاجرين) و (الصالحية) تطالب وتهتف بحياة العرب ورفض الانتداب والمطالب الفرنسية . ولما لم تتلق الحكومة الفرنسية جوابا من حكومة دمشق امرت جيوشها المرابطة في لبنان بالزحف فزحفت بقيادة الجنرال (غورو) واجتازت حدود المملكة ووقعت الواقعة المعروفة بين السوريين والفرنسيين .

واقعة ميسلون

وكانت قيادة الجيش السوري للبطل (يوسف العظمة) وقد قتل في واقعة (ميسلون) وشاهد الشعب وقلمه يتفطر الما نكوص المجاهدين من ابناء الشام واندحارهم في الواقعة المذكورة كما شاهد دخول الجنرال غورو الى مدينة دمشق دخول الظافر الفاتح فاخترق الشوارع الى سوق الحميدية فالجامع الاموي ومنه اتجه الى مقبرة (صلاح الدين) على شكل يشعر بضرب من التشفي والانتقام . ولا بد لنا من القول ان سلطات دمشق كانت كما يقول

الشبيبي قد عرضت قيادة الجيش العامة في ساعة المحنة على بعض الضباط العراقيين المعروفين فاعتذروا بعد قيامهم بالكشف على وحدات ذلك الجيش وتفتيش الثكنات قائلين ان جيش دمشق او ما يسمى كذلك في ذلك الحين لا يعول عليه ولا يعتقد به كما وكيفما تحدث الى الشبيبي بذلك (ياسين الهاشمي) وهو اي الهاشمي ممن عرضت عليه رئاسة (ديوان شوري الحرب) فاعتذر بعد جولة قام بها في المعسكرات والثكنات واجتمع على اثرها بالشبيبي في منزله بصالحية دمشق واعرب له عن رايه بكفاءة ذلك الجيش ، ومن ثم ركن الى العزلة ، وكانت عزلة هذا العسكري العراقي المعروف سببا في مجاملة الفرنسيين المحتلين له ، وهناك اسباب اخرى لهذه المجاملة ومنها ان (ياسين الهاشمي) كان يكن ضربا من الولاء للاتراك خلافا لغيره من الضباط العراقيين الذين شاركوا في ثورة العرب عليهم بزعامة الملك حسين وانجاله ، وفي هذا الصدد يقول الشبيبي : كنا نلاحظ انزعاج الانكليز من اسناد بعض المناصب اذا اسندت اليه اي الهاشمي ياسين . والخلاصة كان (ياسين) يتردد على الشبيبي في منزله (بالصالحية) وكانا متجاورين في تلك الضاحية وما اكثر عدد الذين كانوا يترددون على الشبيبي في ذلك المنزل من ابناء دمشق ولبنان والعراق وغيرهم (١) .

١ - ومن وهي هذه الاحداث نظم قصيدته (دمشق وبغداد)

المذكورة في ديوانه .

عوده من الشام

هذا وقد آثر العودة من دمشق الى الوطن فـمور
الاحتلال الفرنسي وذلك قبل غيره من ابناء العراق
وبعد ان مكث في ارجاء الشام مدة سنة كاملة ، وفي هذا
الصدد يقول : (رغب الي (ياسين) وهو يودعني ان لا
تنقطع المراسلة بيننا واتفقنا على استخدام ضرب من
الاشارات الرمزية في الكتابة في محاولة لكتمان الاسرار عن
علم السلطات المحتلة الغاشمة وسماسرتها في العراق
والشام) .

ولم تطل اقامة الشبيبي بعد ذلك في سورية فبارح
دمشق في خريف سنة ١٩٢٠ عائدا الى العراق بطريق
البادية على ظهور الجمال (١) ، وقد قطعوا المسافة بين
دمشق وبغداد في خمسة وعشرين يوما ووصل ببغداد
مع رفيق له من الضباط العراقيين متنكرين ووجد كثيرا من
اصدقائه مبعدين الى خارج العراق او معتقلين داخل
البلاد ، او مشردين . ولما اطمأن في بغداد اتصل باهله
واخوانه واجتمع بكثير من قادة الرأي ورجال الاحزاب
والجمعيات السياسية .

في العراق

هذا وفي هذه الفترة الصاخبة من تاريخ البلاد ظهر
للجميع ان الانكليز لم يجدوا بدا من انتهاء عهد الاحتلال .
والموافقة على قيام دولة مستقلة ذات سيادة وفقا لما تقرر في

مؤتمر القاهرة الذي عقد سنة ١٩٢١ حيث مثل شرشل وغيره من البريطانيين الحكومة الانكليزية ومثل العراق كل من السر ساسون حسقيل والسيد جعفر العسكري ، وفي صيف السنة المذكورة وصل فيصل وحاشيته ومن جملتهم رستم حيدر على باخرة انكليزية اقلعت بهم من جدة الى البصرة . ومنها توجهوا على السكة الحديد فمروا في طريقهم بالديوانية والحلة وكربلاء الى النجف وارياف الفرات وهي قلب العراق النابض وعربن الابطال الاشاوس الذين اذاقوا قوى المحتلين في الرارنجية والرميثة والشامية وابي صخير وغيرها ما اذاقوه ، وضحوا بارواحهم وجميع ما ملكت ايديهم في سبيل حرية البلاد وكرامتها ، وكان لفيصل باعتباره ثائرا عربيا استقبال باهر يعجز التعبير عن وصفه في تلك المدن المجاهدة ، وقوبل بمظاهرات ترحيبية كبيرة وخطب ثورية بليغة كما انه القى عدة خطب في تلك المناسبات ، وكان الشيببي يجتمع بفيصل وصحبه طول مدة اقامته في تلك الجهات وخصوصا في النجف وبغداد بعد وصوله اليها ولا يضمن عليهم بالنصح ومواجهتهم بالواقع ، ولما نودي بفيصل ملكا على العراق في تلك السنة كان يستدعيه ويستشير في الامور المهمة ، وقد رشح لاشغال بعض المناصب العليا في اوائل ايام العهد الفيصلي ولكنه كان يعتذر ويفضل الانقطاع للدراسة والتأليف الى ان كانت سنة ١٩٢٤ وفيها عهد الى ياسين الهاشمي بتأليف وزارته الاولى فابرق اليه وهو مقيم في النجف قائلا

انه يسره التعاون معه وان يشغل منصب وزارة المعارف في
الوزارة الهاشمية .

في مناصب الدولة

فتردد كثيرا في قبول الوزارة ولكن الحاح اصداقائه
في بغداد والنجف اضطره الى القبول فاشغل منصب هذه
الوزارة فترة لا تزيد على سبعة اشهر ، ولما عرضت
اتفاقية النفط على مجلس الوزراء وكانت من الاتفاقيات
المجحفة بحقوق العراق اقترح تعديل بعض بنود الاتفاقية على
اساس يكفل للعراق في زيادة العوائد المالية فلم يجد
من يعضده . وفي جلسة خاصة بينه وبين الهاشمي سألته
عن موقفه الاخير من الموضوع فقال الهاشمي ان ابرام
هذه الاتفاقية من واجب وزارته . وعلى اثر ذلك غادر
الجلسة وذهب الى مكتبه في ديوان الوزارة وبعث بكتابه
الذي يستقيل فيه من الوزارة لانه يرى ان الاتفاقية مجحفة
بمصالح العراق . وقد تقلد الشيببي منصب وزارة المعارف
خمس مرات وان لم تكن مدة الاستيزار طويلة فيها ففي
سنة ١٩٢٤ تقلدها كما قلنا اول مرة ، وتقلدها مرة ثانية
سنة ١٩٣٥ وثالثا سنة ١٩٣٨ ورابعا سنة ١٩٤١ وخامسا
سنة ١٩٤٨ واختير سنة ١٩٣٥ عضوا في مجلس الاعيان
وانتخبه هذا المجلس رئيسا له سنة ١٩٣٧ وقد رشح
في الانتخابات النيابية فكان عضوا في المجلس النيابي غير
مرة وانتخب رئيسا للمجلس النيابي سنة ١٩٤٣ وامضى
سنة في الرئاسة ثم اعيد انتخابه لرئاسة المجلس المذكور

سنة ١٩٤٤ ولكنه استقال قبل انتهاء السنة بسبب دسائس استعمارية معروفة دبرت بليل .

هذا ومن يمعن النظر في سيرته الرسمية او السياسية منذ ان نشأت الدولة العراقية سنة ١٩٢١ الى اخر حياته تبدو له ظاهرة نادرة وهي ان تلك السيرة امتازت بكثرة الاستقالات والتخلي عن المناصب العليا التي تقلدها فقد استقال مرتين من منصب وزارة المعارف : المرة الاولى سنة ١٩٢٥ والمرة الثانية سنة ١٩٣٥ وذلك بسبب اختلاف وجهات النظر في تخطيط سياسة التعليم وفي تنظيم شؤون المصلحة واختيار الموظفين واستقال ايضا من رئاسة المجمع العلمي العراقي وعضويته سنة ١٩٤٨ واستقال من رئاسة لجنة الترجمة والتأليف والنشر ومن عضويتها سنة ١٩٤٦ واستقال من عضوية مجلس النواب في اواخر سنة ١٩٥٠ مع من استقال من النواب وعددهم خمسة وثلاثون نائبا بسبب محاولة حاول بها بعض المرتزقة مس كرامة المعارضين في المجلس . وكان لهذه الخادثة اثرها البالغ في الخارج والداخل على حد سواء . وهذه كما قلنا ظاهرة نادرة اذا ما استطلعنا اسرارها تبين لنا انه كان محاطا بشبكة من دسائس المستعمريين واذنابهم ، فكان لا يقر لهم قرار اذا تقلد او اشغل منصبا عاليا من مناصب الدولة لان الاذئاب ومطايا الاستعمار اعداء الخدمة الصحيحة واكبر خصوم للاصلاح وهما كما لا يخفى غايته القصوى من تقلد وظائف الدولة في جميع الاحوال . وكانت آخر استقالة له ، استقالته من رئاسة المجمع العلمي العراقي قبيل وفاته .

في المناصب العلمية

وانتخب الشبيبي في كثير من المؤسسات والجامع العلمية واللغوية داخل العراق وخارجه . فهو عضو نادي القلم العراقي(١) ورئيسه نحواً من عشرين سنة ورئيس المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٤٨ الى ان تخلى عن رئاسته لاسباب معروفة . وقد منح درجة الدكتوراه الفخرية من جامعة القاهرة تقديراً لبحوثه في الادب والتاريخ وانتخب عضواً في المجمع العلمي العربي في الشام سنة ١٩٢٣ كما انتخب عضواً عاملاً في مجمع اللغة العربية في القاهرة وذلك في اواخر سنة ١٩٤٧ وبارح العراق الى القاهرة واشترك لأول مرة في المؤتمر اللغوي الذي عقد في اول سنة ١٩٤٨ . واقيمت له حفلات في القاهرة منها حفلة استقباله في المجمع اللغوي ، وللأستاذ عباس محمود العقاد في هذه المناسبة خطبة معروفة كما ان

١ - انشئ هذا النادي - نادي القلم العراقي - ببغداد سنة ١٩٣٤ وقد نصت المادة الثانية من نظامه الاساسي على ما يلي :
(تعارف المؤلفين وحملة الاقلام واحكام الروابط بينهم وتعزيز الادب العربي . وتعزير البحث وَايجاد الصلات بين حملة الاقلام في العراق وامثالهم في البلاد العربية . وقد اُنتمى الى النادي اشهر حملة الاقلام والصحفيين في ذلك التاريخ وواظب اعضاؤه على عقد جلساتهم والقاء البحوث والمحاضرات وقد احتفل اكثر من مرة بضيوف العراق من ادباء الاقطار العربية وتالفت من بحوث اعضائه ومحاضراتهم اكثر من مرة مجموعة نشرت منها المجموعة الاولى سنة ١٩٣٨ بعنوان (مجموعة نادي القلم العراقي) . وقد اعتبر النادي كغيره معطلاً بموجب مرسوم تعطيل الاحزاب وال النوادي والجمعيات الصادر سنة ١٩٥٨ ولم يتقدم احد من اعضائه بطلب لاستئناف نشاط النادي منذ ذلك الحين .

للشبيبي خطبة فيها ايضا ، ومن المحاضرات التي القاها في المؤتمر اللغوي محاضرة موضوعها (النهضة الادبية الحديثة في العراق) وقد لخصتها بعض الصحف المصرية وعلقت عليها . واقامت له كلية دار العلوم المصرية حفلة استقبله فيها الاستاذ ابراهيم مصطفى بخطاب ضاف والقى فيها محاضرة عنوانها (اقدم مخطوط وصل الينا في وصف جزيرة العرب) وكان لها وقع بالغ في نفوس الحاضرين . وفي هذه الحفلة القيت قصائد وخطب ترحيبية .

وهكذا لم يتخلف عن شهود دورة من دورات مجمع اللغة العربية منذ انتخابه عضوا فيه الا مرة واحدة . ولما الغي المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٦٣ وخلفه المجمع الجديد انتخب عضوا فيه ورئيسا له ولوحظ ان المجمع اخذ يجتاز بعهد رئاسته مرحلة من مراحل النشاط والاضطلاع باعباء المهام المطلوبة منه ، وقد اخرج جزءا جديدا حافلا بالبحوث من مجلته الخاصة . وظل في رئاسته الى ان استقال منها قبل وفاته بأيام . وقبل انتقاله الى جوار ربه كان يشارك في احتفالات الاسراء في المسجد الاقصى ، وفي عودته استقبل في بغداد استقبالا يعز نظيره . وكان هذا الاحتفاء آخر احتفاء يقدمه له الشعب في حياته اذ قضى نحبه في نفس الليلة التي عاد فيها وذلك ببغداد في الثالث من شعبان ١٣٨٥ هـ السادس والعشرين من تشرين الثاني ١٩٦٥ .

الهجرة العربية الى الشرق الاقصى

هجرة مجهولة من العرب وادبها مجهول منهم

اشتهر الادب المهجري اللبناني اشتهارا بعيدا ودوى في تاريخنا الادبي دويا شديدا . ونبغ فيه متفوقون سواء في الشعر او النثر سيظلون ابدا من انصع الكواكب في آفاقنا الادبية قديما وحديثا . وحسبنا ان نعد منهم في الشعر : الشاعر القروي والياس فرحات وايليا ابو ماضي ، وفي النثر جبران وامين الريحاني .

والشعر المهجري اللبناني لا يحتاج الى تعريف ولا تنقصه الشهرة وبعد الصيت ولكن هناك ادبا مهجريا عربيا آخر حمله فريق من مهاجري العرب الى منائهم البعيدة ومهاجرهم القصية لم يكتب له من الذبوع والانتشار جزء مما كتب للادب اللبناني . بل يمكن ان نقول انه لم يعرف اصلا في اوساط العرب وديارهم ولم يقرأ في نواديهم ومعاهدهم اذا استثنينا قلة قليلة ، بل افرادا معينين وقعوا على هذا الادب صدفة او لظرف معين ومناسبة محدودة .

هذا الادب هو ادب الهجرة الحضرمية(١) من جنوبي الجزيرة العربية الى الجزر الاندونيسية وغيرها من بلاد الشرق الاقصى ، واذا كانت الهجرة اللبنانية الى الامريكيتين هجرة جارفة حملت عشرات الالوف من مدارج صباهم ومنابت اصولهم الى بلاد العالم الجديد سعيا وراء الرزق

١ - قال رياض الريس يصف بعض مناطق حضرموت حين زارها في الستينات : وادي حضرموت يمتد كنهر كبير بين ضفتين من الجبال العالية المتقاربة . وسيؤون (بفتح السين) تقبع في وسطه كمدينة اهلكت التاريخ فتناساها . والى الجنوب منها تريم والى الشمال شيبام كأنهما خرافيتان وسط لا شيء الا واحات كبيرة من النخيل وناطحات سحب عالية من الطين .

كل ما في غراف (بضم الغين) القرية الصغيرة التي تقع في منتصف الطريق تماما بين سيؤون وتريم ، يوحى بالوهم ، وتحس بعزلة مهيبة عن الواقع ، فليس فيها ما يربطك بالعالم الذي نعرفه . وتملك سيارة اللاندروفر عبر الوادي الاخضر المفتوح على نهر جف منذ ما يزيد على قرن . والنخيل هو الخضرة الدائمة ، والطرس بغراف ، القرية الصغيرة ذات الكهوف الطينية والبيوت الواطئة القليلة . وتدخل سيؤون عبر ممر من اشجار النخيل وكأنك في حلم سينمائي اقتلته هوليود وتلمع القباب البيضاء ، وتبدو سيؤون من بعيد واحة من الالوان : البيوت خضراء وهمراء وبيضاء ، وزرقاء ، كلها زاهية . الشوارع ترابية مرصوفة ونظيفة ، والناس كأنها لا تعمل الا في البناء والزراعة . كل شيء في سيؤون من الطين والالوان . لا حجر ولا اسمنت . الشوارع فسيحة ترابية ونظيفة . والنظافة تلت النظر في كل مكان وخاصة القادم من اليمن وعدن . فالهندسة صناعة محلية تكاد تكون اهم ما يميز حضرموت عن الجزيرة العربية كلها . والزراعة هي الذرة والخضر ، هي مهنة الحضارمة المقيمين الذين لم يسعدهم العظ بركوب البحر الى ابعد .

وتتطلع الى اعلى لتسرى البيوت الطينية ترتفع الى عشر طبقات او اكثر ، وتمتد كقصور من الف ليلة وليلة ، حولها حدائق خضراء وماء ونخها السوان والسوان .

وطلبوا للثروة ، فكذلك كانت الهجرة الحضرمية من الارض
الجديدة والوطن الفقير الى عالم التجارة والغنى
والاخذ والعطاء .

وإذا كانت الهجرة الاولى قد انتجت ادبا مهجريا كثيرا ،
فكذلك كانت الهجرة الثانية . ولكن الفرق بين الهجرتين
العربيتين ان الاولى كتبت لها الشهرة وطول الذكر وارخت
في كثير من الموارد والمصادر ، بينما لم يكتب للثانية شيء
من هذا ، ولم تعرف ابدا ولم يشر اليها بحال من الاحوال
شأنها في ذلك شأن ادبها .

ولعلنا في هذه الكلمة نستطيع ان نرفع الستار عن
بعض جوانب الهجرة الحضرمية ونزيل الحجاب عن شيء
من نواحي ادبها فاتحين بذلك الباب امام الباحثين لا
سيما ممن عانوا تلك الهجرة وتحملوا اعباءها او بالاحرى
من ابنائهم واحفادهم .

الهجرة الاولى

على انه لا بد لنا من القول ان الهجرة العربية الى
اندونيسيا والشرق الاقصى كله ذات شقين او ذات
عهدين متباعدين ، هجرة بعيدة تعود الى تاريخ بعيد
يصل الى العهد العباسي حيث هاجر فريق من
العلويين طلبا للسلامة والامان فحل بعض احفاد علي
العريضي بن الامام جعفر الصادق في جنوب الجزيرة
العربية اولا ثم امتدوا منها حتى وصلوا الى الهند والصين
وملايا واندونيسيا والفلبين وجزائر سليمان . وفي

الطليعة من هؤلاء كان احمد بن عيسى بن محمد بن علي ابن الامام جعفر الصادق ، هذا الذي رحل من العراق العام ٣١٣ وما زال يمضي حتى استقر في جنوب الجزيرة العربية . وربما لان هذا الرجل كان فاتح باب الهجرة ، عرف في التاريخ باسم احمد بن عيسى المهاجر ، واذا كان احمد هذا قد استقر في الجنوب العربي فان احفاده هم الذين انتشروا بعد ذلك في كل مكان من الشرق الاقصى حاملين معهم الاسلام ينشرونه حيث حلوا . .

قال : المقرزي في الخطط (ج ١ ص ١٦) : « في جانب هذا البحر الشرقي مما يلي الصين ست جزائر ايضا تعرف بجزائر السبلي نزلها بعض العلويين في اول الاسلام خوفا على انفسهم من القتل » .

وقال المؤرخ الاندونيسي محمد تميم ابراهيم استاذ الدراسات الاسلامية والتاريخ الاسلامي في جامعة جاكرتا من محاضرة له : « ان اول مملكة اسلامية هنا يرئسها شخص يلقب بلقب شيخ كانت بايدي العرب من الهاشميين » .

وقد ذكر هجرات العلويين الى جزر الشرق الاقصى كل من المستشرقين الهولنديين « فن دين بيرخ ، وفرين ميس » في كتاب تاريخ البلدان الجاوية « سيجارة تانه جاوا » و « بيخمان » وكذلك نور الدين محمود عوفي . يقول فن دن بيرخ في كتابه (حضرموت والمستوطنات العربية في الجزائر الهندية) الصادر باللغة الفرنسية : « ان نجاح الدعوة الاسلامية في جاوا كان لان الدعاة كانوا من ذرية النبي .

ويقول نور الدين عوفي عن انتشار الاسلام في الصين :
ان الاشراف العلويين هربوا الى بلاد الصين ونشروا
الاسلام فيها .

ويذكر محمد تميم في محاضراته التي القاها في
الندوة التاريخية في ميدان سومطرا الشمالية : ان الاشراف
العلويين انتشروا في كامبودجا والصين وسيام وغيرها ،
وان من الواصلين الى كامبودجا الحسين الملقب بجمال
الدين الاكبر . وانه كان للحسين هذا ولدان ، احدهما
ابراهيم ، وتقول الروايات الجاوية ان ابراهيم وصل
مع ابيه الحسين الى سيام وجاوا وتزوج
اميرة من جامبا اسمها باناو ولاق فولدت له ولدين
عليا واسحاق كانا من انجح العاملين على نشر الاسلام ،
وان اعظم نجاح لاسحاق كان في بانيو وانغي .

ووصل العلويون الى الفلبين فاستوطنوها ونشروا
فيها الاسلام ثم اقاموا فيها ملكا واستمر حكم العلويين فيها
حتى سنة ٨٨٥هـ (١٤٦٥م) وقيل الى سنة ١٥٢١ حين
هاجم الاسبان المسلمين وفشل السلطان عبد القاهر في
صد هجومهم . وفي تاريخ الفلبين ذكر مجيء الشريف
اولياء بسفينة طافت في تلك الجزر لنشر الاسلام . وجاء
في كتاب (دراسات عن المسلمين المورو وتاريخهم)
المطبوع بمانيلا سنة ١٩٠٥ ان مجيء الاسلام الفلبين
كان بواسطة شريف علوي اسمه حسن بن علي من
ذرية احمد بن عيسى المهاجر . وقد عمل هذا
العلوي على نشر الاسلام اول الامر في جزائر (يوايان)

الفلبينية فاسلم ملكها على يديه وانتشر الاسلام في (ميندانا ومافينيدانا وسببيو وسولو وكونا بارو وتمبارا ولييونفان باكمبايان) .

وجاء في ذلك الكتاب ان هؤلاء العلويين كانوا اول من علم الاهلين هناك الكتابة العربية .
ولا تزال المقابر الاندونيسية تضم حتى اليوم قبور احفاد اولئك الرواد الاوائل وقبور احفاد احفادهم ، ولا تزال تلك الاجداث محجة للزائرين من كل مكان . ويمكن ان نعد منهم كلا من مولانا ابراهيم المدفون في مدينة قرسيء بجاوا ومولانا حسن الدين المدفون في مدينة يانتن بجاوا الشرقية ومولانا هداية الله المدفون في مدينة شربون بجاوا الشرقية ، وهو ابن عبد اله المتوفى في كامبودجا بالهند الصينية . ومولانا زين العابدين المتوفى بمدينة دماك بجاوا الوسطى ومولانا رحمة اله المتوفى بمدينة دماك بجاوا الوسطى ومولانا رحمة الله الملقب بعين اليقين المتوفى في مدينة قرسيء بجاوا وكل هؤلاء ينتهي نسبهم الى احمد بن عيسى المهاجر . هذا المهاجر الذين نحسب انه اول من حمل هذا اللقب في العالم العربي كله .

على انه يبدو من بعض النصوص ان استقرار هؤلاء العلويين في الجزر الاندونيسية وشهرة مقامهم فيها قد حملت بعض الخائفين على التوجه اليها والحلول بين تلك الجاليات التي تناسلت وتكاثرت ، وانه كان بين من نزحوا اليها احد احفاد الخلفاء العباسيين المسمى عبدالله

والذي نجا بنفسه فرارا من مذابح المغول بعد سقوط بغداد على يدي هولاءكو .

ومهما يكن من شيء فأن هذه الهجرة العربية الكبيرة قد انطوت في غمار التاريخ ولم تترك لنا من اثر سوى انها كانت من اكبر العوامل في نشر الاسلام في تلك الاقاصي وحسبه من اثر . وقد ذابت تلك الاصول العربية في المجتمع الاندونيسي وغير الاندونيسي من المجتمعات المهاجرة التي عاشت فيها وغابت ملامحها غيبة كاملة وعادت اندونيسية خالصة حتى في اسماء الاعلام ، وان ظل بعض رجالها يسلسل اباؤه مبتدئا باسمه الاندونيسي واسم ابيه وجده وهكذا حيث يعود الى الاسماء العربية . فهناك مثلا : ابوكو سنو حوكر وسويو سو الذي ينتمي الى آل عظمه خان الى ان تنتهي السلسلة الى علي بن عبدالله بن احمد بن عيسى المهاجر (١) .

الهجرة الاخيرة

ان تلك الهجرة لا تعنينا في بحثنا هذا وليست هي

١ - يمكن ان نعد من المهاجرين حسين بن احمد بن عبدالله بن عبد الملك بن علوي بن محمد صاحب مرياط بن علي بن علوي بن عبيد الله بن احمد المهاجر الذي وصل مع اولاده العام ٥٧٥ هـ . وحسين ابن احمد هذا هو المعروف من سلالة آل عظمه خان .

وكذلك جاء بعده محمد بن عيد آل عبيد المتوفى سنة ٩١٩ هـ الذي وصل اولاده احيه في اندونيسيا . واما محمد بن عبد القادر آل عبيد المتوفى عام ١٠٥٠ هـ فان عقبه الذين وصلوا الى اندونيسيا موجودون الى الآن في مدينة (كوبان) بجاوا الشرقية .

المقصودة بهذه الكلمات . بل ان المقصود هو الهجرة الاخيرة التي انتجت الادب العربي المهجري الشرقي في مقابل الادب العربي المهجري الغربي .

وليس بين ايدينا ما يحدد لنا التاريخ الذي بدأت فيه هذه الهجرة من الجنوب العربي الى جنوب آسيا(١)، تحديدا دقيقا ، ولكننا نستطيع القول استنادا الى بعض

١ - حديثنا هنا عن هذه الهجرة وحدها ، والا فان هجرة الحضارة كانت الى شتى البلاد وفي زيارة لرياض الرئيس الى حضرموت في الستينات جرى بينه وبين احد كبار المسؤولين حوار جاء فيه :

- ما هي المشكلة التي تشغل بالك حاليا ؟ وقال مجيبا : مشكلة اللاجئين الحضارة الذين وفدوا الى المكلا من افريقيا . عددهم يفوق العشرة آلاف ، من العمال والبحارة والفقراء . فالعمل قليل عندنا ، والامكانات ضعيفة ، والارض ليس عندها من الفنى ما يسمح لها باحتضان الجميع . انهم الحضارة الذين ذهبت بهم الرياح في الاتجاه الخطأ . فرست سفنهم على شواطئ افريقيا ، بدل أن ترسو على شواطئ جنوب شرق آسيا فكان الفقر في افريقيا والفنى في آسيا .

ويكمل رياض الرئيس حديثه وهو يصف بلاد حضرموت متحدثا عن المكلا: وخرجت الى شوارع المكلا التي تعج بالناس اسأل عن مكتبة تباع الصحف . فدلوني على واحدة وجدت فيها كل مجلة تصدر في العالم العربي وكل كتاب مؤلف لم اسمع به من قبل . ووجدتها اكثر الامكنة عملا في المكلا . صحف العالم كله فيها ، من اندونيسيا وهونغ كونغ الى بيروت . ولما عرف صاحب المكتبة انني من لبنان ، ابتسم وقال : « نحن شمب نقرأ بنهم، ونستمع الى الراديو بنهم اكبر ، لان هناك حضرميا في كل بقعة ، مثلكم ايها اللبنانيون ، بل ربما اكثر ، لاننا نحن ما زلنا على صلتههم» وعلى الشاطئ الرملي كانت ثلة من الجنود الحفاة تاخذ التحية لركب شراعي كبير عليه عدد كبير من الناس يبحر الى ارض جديدة - اذا بقي في العالم ثمة ارض - ليلقي عليها حولته ، فاما ان تثر ، واما تمود بمراكب غارقة صغيرة الى شاطئ الصدف والاسماك والرمال ، فتلقي شبكها في فقر بيوت الطين . ويكون التاريخ قد اوقف المد وهزق الشراع.

المصادر ان اول فوج من المهاجرين الحضارمة خرج من موطنه ، كان خروجه في اواسط القرن الثاني عشر الهجري . بل نستطيع ان نقول ان ذلك كان في حدود سنة ١١٥٠هـ وكان هذا الفوج مؤلفا من اربعة مغامرين هم : حسين القدري الملقب بالحسني وعثمان بحسن ومحمد احمد القدسي ومحمد بن حامد . وكان الدافع الاول لهم للهجرة هو السعي وراء العيش الكريم وبلغ النجاح ببعضهم ان تزوجوا بالاميرات بنات السلاطين الاندونيسيين وكان المغربي الوحيد بهذا الزواج ان المهاجرين كانوا من سلالة الرسول ، فرأى السلاطين في تزويج بناتهم من هؤلاء الغرياء العلويين شرفا لهم . ثم تطور الامر بعد ذلك فاذا ببعض ابناء المهاجرين واحفادهم يتولى الملك بنفسه لان السلاطين رأوا في الاسباط المتصلين بالنسب النبوي ما يفضلون به الاحفاد غير المتصلين بهذا النسب . وهكذا نجد ان من بين سلاطين سيك وفونتياك وغيرهما من هم من الاشراف العلويين ابناء واحفاد اولئك المهاجرين .

على ان هذا الزواج قد ادى الى ذوبان اعقاب المهاجرين في الوسط الاندونيسي فلم يعودوا يعرفون بالطابع العربي ولا باسم الاسرة العربي . اما الذين لم يقدر لهم مثل هذا الزواج فقد ظلوا محتفظين حتى اليوم باسم عربي لاسرهم وهم من سنرى اسماء اسرهم في الآتي من القول .

واذا كنا قد ذكرنا فيما تقدم اسماء المغامرين الاربعة طلائع الهجرة العربية فلا يفوتنا ان نذكر اسماء

أخرى كانت في أوائل المراكب المهاجرة ونستطيع ان نعد من ذلك مهاجري آل كثير وال النهدي وال بلحمر وال بارجاء وال العمودي وغيرهم .

قالت مجلة الرابطة الصادرة في جاوى (سنة ١٩٣٠) وهي تنعى السيد محمد بن عبد الرحمان بن شهاب الدين :

لقد هاجر في النصف الاول من هذا القرن من حضرموت الى الجهات الجاوية عشرات الالوف من الحضارمة ، منهم من عاد الى وطنه ومنهم من توفاه اله .

آل الجفري

وابرز من خرج فيهم السيد عقيل بن زين العابدين الجفري الذي كان عالما مرموقا خرج من اندونيسيا الى تركيا ودخل جامعة اسطنبول ثم سافر الى اوروبا وكثير من بلدان اسيا واتصل بالكثيرين من عظماء العالم الاسلامي ، ثم صار من اقطاب السياسة الاندونيسية مقاوم الاستعمار الهولندي مقاومة شديدة ادت الى ان تعقله السلطات وتسجنه سنة ١٩٢٨ ثم صادرت املاكه وابادت مكتبته الكبيرة القيمة . ثم اطلقته فقيرا لا يملك شيئا . وعاش حتى ادرك الاستقلال فكانت فرحته فيه فرحة تتناسب مع نضاله وتضحيته . وتوفي العام ١٩٥٢ عن عمر ناهز التسعين .

ويعتبر السيد عقيل من الادباء المؤلفين باللغة العربية . وقد ترك العديد من المؤلفات التي ظلت مخطوطة لصعوبة الطباعة العربية في تلك البلاد .

آل الحضار

وابرز من خرج فيهم السيد محمد بن احمد الحضار المتوفى سنة ١٩٢٤ في مدينة سورابايا وهو عالم وشاعر يعتبر في طليعة شعراء المهجر الاندونيسيين . وقد ترك ديوانا كبيرا وعدة مؤلفات . ولكنها ظلت كغيرها مخطوطة لم تطبع ولم تنشر . ومن آل الحضار ملوك وقضاة في جزائر القمر في افريقيا .

آل يحيى

وابرزهم السيد محمد بن عقيل الذي يعتبر في وقته من اكبر علماء العالم الاسلامي واعظم رواد الاصلاح فيه . وكانت دار هجرته جزيرة سنغافورا حيث اسس فيها دعوة اسلامية اصلاحية امتدت حتى شملت اندونيسيا وغير اندونيسيا . وكانت طريقته هي انشاء الجمعيات وتأسيس المدارس ونشر الصحف ويمكن ان نعد جريدته التي نشرها في سنغافورة اول جريدة عربية في تلك المهاجر وكذلك جمعيته ومدرسته التي حرص على ان تكون مدرسة عربية اسلامية . وكان تأسيس الجمعية سنة ١٣٢٢هـ وتولى رئاستها السيد احمد السقاف وكانت هي نواة جمعيات الاصلاح في البلاد الجاوية كلها ، وصارت مركزا عاما يقصده المثقفون ، بل كانت على حد تعبير احد الباحثين سببا لجمع شمل العرب الذي كان مفرقا . ثم اضاف الى ذلك اصدار مجلة عربية سماها (الامام) ، صدر العدد الاول منها في اول جمادى الثانية سنة ١٣٢٤ (١٩٠٦) وصدر اخر عدد منها في شهر ذي

الحجة سنة ١٣٢٦ هـ (١٩٠٨) . وقد سمي مدرسته مدرسة الاقبال ، ولم يكن من الميسور ايجاد مدرسين لها في المهجر فاستدعى لها المدرسين من مصر . وكان تأسيسها سنة ١٣٢٦ (١٩٠٨) ثم صدرت بمساعيه جريدة الاصلاح التي لم تعمر طويلا شأنها في ذلك شأن مجلة (الامام) اذ صدر العدد الاول منها في اول شوال سنة ١٣٢٦ و صدر آخر عدد منها في ٢٤ ذي الحجة سنة ١٣٢٨ .

وكانت هذه النهضة العربية في سنغافورا مدعاة لان تقوم مثلها في اندونيسيا وبلدان جنوب آسيا التي كانت تصلها مجلة الامام وجريدة الاصلاح فتأسست في جاكرتا جمعية خير سنة ١٣٢٤ وتأسست اول مدرسة لجمعية خير في جاكرتا وفي فلنباغ بمسمى السيد علي بن عبد الرحمان المساوي والسيد محمد بن عبد الرحمان المنور سنة ١٣٢٦ . كما تأسست مدرسة في سورابايا بنفس السنة بمسمى السيد شيخ بن زين الحبشي ومدرسة في جاكرتا بمسمى السيد عبدالله بن علوي العطاس . وكلها مدارس عربية التدريس اسلامية المناهج .

وكان ابن عقيل يزور اندونيسيا بين الحين والحين لدعم النهضة فيها وبث الاصلاح بنرجالها وكانت اخر زيارة له لجاوا سنة ١٩١٨ .

وهكذا نستطيع ان نعتبر السيد محمد بن عقيل رائد نهضة وداعي اصلاح ومربي اجيال . واذا كان قد قدر لبعض كتبه ان تطبع خارج المهجر فان معظم تلك الكتب ظل مخطوطا .

وقد عاد من مهجره الى الوطن العربي فاستقر
فترة في الحجاز سنة ١٣٣٩هـ ثم انتقل الى الجنوب
سنة ١٣٤٠ فسكن المكلا (١) وعاود الدعوة الى الاصلاح

١ - قال رياض الريس وهو يصف بلاد حضرموت متحدثا عن المكلا :
شباك كثيرة ، ومراكب قديمة راسية ، وصيادون واشرعة ممزقة
وطريق نيمية تمر عبر منحدر جبلي ضيق ، وشاطئ واسع كله
حبال وسوار وناس ، وناس ، لعلهم تجار أو بحارة أو ربما قراصنة .
كان هذا هو المدخل الى المكلا ، نافذة حضرموت المفتوحة على العالم
كل ما فيها يوحى بالحركة ، وكل ما فيها كأنه ذكرى من ذكريات .

والطائرة لاتصل من عدن الى المكلا . فلا بد ان تهبط في الريان ،
وهي قرية صحراوية على مشارف المكلا من الداخل . وانتظرنا في شمس
الريان المحرقة بعد طيران أكثر من ثلاث ساعات في طائرة الداكوتا
القديمة ، ان يتراجع المد ويصبح من الممكن لسيارة اللاندروفر ان تمشي
بمساواة الشاطئ في ساعات الجزر حتى تصل بعد ساعة ، اذا لم
نقص في الرمال أو نتلف احدى عجلاتها ، الى طريق المكلا الضيق .

واقطعت السيارة براكيها اليتيمين ، انا وزميل اجنبي ، على
الشاطئ الاستوائي وهي تغوص تارة وتقف تارة لاصلاح ما افسده
الحر من محركها ، أو حطمت الرمال في عجلاتها ، مروراً فوق الاف
الاسماك الملونة القريبة التي تركها المد على الضفة قبل ان يرحل ،
وحولها تروج مئات السلاحف الكبيرة الجميلة لتلتهمها ، وطيور البحر
تضرب زجاج نافذة السيارة بالاجنحة والقوارب الفارقة ترسو بعيداً عن
الشاطئ وقد سحبها المد معه ، فتعلقت بالشباك التي تركها الصيادون
على الرمال . وتطل المكلا من فوق الطريق الذي سد بالصخور حتى
يلوح في نهايته شوارع ضيق كله بياض مفتوح على البحر ، كرصيف طويل
ليناء كبير وقد تكسبت اكوام الاخشاب والبضائع في كل مكان حتى لم
يعد من مكان للمشاة ، واختلطت اشكال الوجوه الغريبة بعضها مع بعض
في الجو ، فلا وجه واحداً يشكل طابعا للمدينة .

ومن المكلا بصر الحضارة الى العالم ليجمعوا ثروات وينسوا
امجادا ، ويعودوا بحضارات وعادات تندمج في بيئتهم وتراثهم ، ومن ثم

السياسي والديني والاجتماعي منتقدا الاوضاع القائمة نقدا صريحا مما اثار الضجيج عليه شأن كل مصلح وفي سنة ١٣٤٧ انتقل الى عدن فكان شأنه فيها

تكافح في ارض غريبة لتثبت اهليتها وفرديتها وخصائصها . فالحضارمة المهاجرون أكثر من الحضارمة المقيمين ، والمسافر منهم يعيل المقيم ، والثروة الوحيدة هي ثروة الهجرة .

من اندونيسيا الى سنغافورة الى الملايو ، حيث اسسوا دولا وممالك ، حتى الهند وسيلان في اسيا . ومن زنجبار وكينيا وتنجانيقا والحبشة والصومال في افريقيا ، كان مد الحضارمة يتدفق الى جنوب الجزيرة العربية ، ومعه اموال ، لينيبي . وتحول الرمال في بلاده الى ناطحات سحب من الطين ، وينقل من الشرق الاقصى وافريقيا التوابل والخشب والحريز والقصب . ولا يحمل معه من الجزيرة الا الاسلام ، فيعطيه لاندونيسيا والملايو وزنجبار ، « نحن فاشلون في بلادنا ، وناجحون في الخارج .. » ، كان تعليق رفيق حضرمي في المكلا للاحظني على بدائية تفرغ البضائع من السفن في المكلا ، مع وجود عشرات من الحضارمة العاطلين عن العمل .. ولكن يبدو ان المد الذي ركبه الحضارمة عاد بهم من الشرق الاقصى وافريقيا الشرة . فكانت اندونيسيا وقد توقفت ثرواتهم فيها وتعطلت اعمالهم في عهد سوكارنو . وكانت الهند وفقرها ، وقد جفت ينابيع الخير فيها . وكانت زنجبار وثورتها حين ذبح الافارقة العرب ، وكانت كينيا وقد فرضت قيودا على غير الافريقيين . وعاد الالاف من الحضارمة وخاصة من افريقيا الى الوادي الاخضر دون مال ولا عمل ليعيشوا الفقر من الاول .

وبدات هجرة ثنائية : الى السعودية . الى الكويت . الى الخليج العربي . فثمة اليوم ٢٥٠ الف عائلة حضرمية في السعودية وحدها ، ترسل في الشهر ١٠٠ الف جنيه استرليني الى البلاد . ونصف هذا العدد في بلدان الخليج العربي .

ودخلت السياسة لتفسد . واصبح يهم الحضارمة التجار ان يرضوا مصالحهم في الدول التي لهم تجارة فيها . ووقع الصراع . فاذا اغضبوا السعودية ، يا ويلهم . واذا اغضبوا اندونيسيا يا ويلهم ، واذا اغضبوا سنغافورة والملايو ، فيا ويلهم ايضا . اذن ، ليمشوا على الحبل بمهارة .

شأنه في المكلا ثم انتقل من عدن الى الحديد سنة ١٣٤٩
 وبقي فيها الى ان توفي سنة ١٣٥٠ .
 وكان السيد محمد بن عقيل معروفا في العالم الاسلامي
 كله ولما توفي رثاه شاعر من بلاد الشام بقصيدة طويلة
 مطلعها :

سالت دموع العين كل مسيل
 حزنا لفقد محمد بن عقيل

آل الحداد

نبغ من هذا البيت العديد من العلماء والشعراء منهم
 العالم الشاعر السيد عبد الله بن علوي الحداد الذي ظل
 ديوانه كغيره مخطوطا لم يطبع .

آل السقاف

ومن هذا البيت ايضا خرج العلماء والشعراء كالسيد
 احمد بن عبدالله السقاف والسيد ابن عبيد الله . والاول
 منهما كاتب بارع وشاعر مجيد ومن اعرق الثائرين على
 الاستعمار الهولندي وله في هذا المضمار الكفاحي الكثير
 من الشعر الحماسي المثير لا سيما في اول الحركات
 التحريرية سنة ١٩١٠ . واذا كان معظم شعر بقيقه
 الشعراء المهجريين لم ينشر حتى في الصحف بل ظل مخطوطا
 في الدواوين مقرأ في المنتديات فان شعر هذا الشاعر كان له
 من الحظ اكثر مما كان لغيره اذ نشر الكثير منه في الصحف
 والمجلات العربية التي كانت تصدر في المهجر ، ولكنه
 لم يجمع في ديوان مطبوع .

آل العطاس

ينتسبون الى جدهم الاكبر السيد عمر بن عبد الرحمن العطاس ، المتوفى بحريضة حزموت سنة ١٠٧٢هـ ومنهم السيد عبدالله بن علوي العطاس الذي نثر الاسلام في بورما والهند وغيرهما . والمتوفى سنة ١٣٣٤هـ .

ومنهم السيد سالم بن احمد الطعاس الذي تولى الافتاء في جهور (الملايو) مدة خمسة وثلاثين عاما والمتوفى سنة ١٣١٣هـ ومنهم السيد عبد القادر بن محسن العطاس الذي تولى كذلك الافتاء في جهور مدة ثلاثين عاما وتوفي سنة ١٣٤١ . ومنهم السيد عبد الله بن عبد الرحمن العطاس الذي تولى القضاء في سنغافورا مدة عشرة اعوام ، والمتوفى سنة ١٣٥٥ باندونيسيا .

آل جمل الليل

ومنهم السيد محمد بن عيدروس الحبشي المتوفى في سورابايا (جاوا) سنة ١٣٤٤هـ .

آل حبشي

ومنهم السيد محمد بن عيد روس الحبشي المتوفى في سورابايا (جاوا) سنة ١٣٤٤هـ .

آل الكاف

وهم اللذين كانت لهم الايادي البيض في بناء المساجد والمدارس . وقد صكت لهم نقود تحمل اسمهم ، وكان يتعامل بها في حزموت .

آل شهاب

نبغ الكثيرون من رجال هذا البيت ويعتبر السيد علي بن احمد بن شهاب من ابرزهم ، كان من الكتاب المؤلفين ولكن مؤلفاته ظلت هي الاخرى مخطوطة . وهو من المكافحين للاستعمار الهولندي ومن اركان الحركة التحررية وابرز زعمائها . وكان هو الداعي الى تأسيس جمعية خير سنة ١٩٠٧ كما كان عضوا في الحزب الاسلامي الاندونيسي (شركة اسلام) وفي العام ١٨٨١ هوجم اجتماع وطني كان يرئسه فساقته الشرطة الهولندية الى السجن حيث قضى فيه فترة ، وبعد خروجه من السجن ساح في البلاد الاسلامية فزار تركيا ومصر وسورية ثم ادى فريضة الحج ، ثم عاد الى اندونيسيا متابعا الكفاح الاستقلالي وظل حيا حتى دخول الجيوش اليابانية الى اندونيسيا ، ثم توفي سنة ١٩٤٥ في اواخر العهد الياباني عن عمر ناهز الخامسة والتسعين .

ابو بكر بن شهاب

من هذه الاسرة خرج العالم الشاعر المؤلف السيد ابو بكر بن شهاب . وهو الشاعر الذي نريد ان نتخذ منه نموذجا للشعر المهجري العربي الشرقي لانه الوحيد الذي طبع ديوانه من بين شعراء المهجر الشرقي .

ولد ابو بكر بن شهاب سنة ١٢٦٢هـ بقرية

حصن ال فلوقة احد مصايف تريم(١) من بلاد حضرموت

١ - قال رياض الريس مواصلا وصف بلاد حضرموت متابعا رحلته من سيؤون الى تريم :

وانطلقت سيارة اللاندروفر في حر بعد الظهر عبر الطريق المرصوف في الوادي البني اللون الاغبر الجاف . وكانت تريم في الجانب الاخر تسبح في واحة من النخيل والالوان والماء . وكانت الكثيري فيعزها واذا بتريم مدينه مسورة ، بابها ضيق ، ومن خلف السور الطيني تطل ناطحات السحاب الطينية ، ومعها مآذن على مد النظر . وامام الباب احتشد جمع من الناس وقد علت اصواتهم واختلطت باطلاق الرصاص في الهواء وقد مشى امامهم فتيان يحملون هرابا على راسها ما لم آتينيّه من بعيد .

وسالت رفيق الطريق الحضرمي ، فقال هؤلاء الناس قد عادوا من صيد الغزلان ، وقد حملوا رؤوسها على الحراب ، وهم يطلقون الاهازيج بين كل وقفة ووقفة . انه تقليد من تقاليد الصيد ، وصيد الغزلان عندنا فن قديم .

ودخلنا الباب وراء الجماهير ، فاذا نحن في ساحة كبيرة خلفها جبل كبير وقد التصق السور وجدرانه الثلاثة به ، وكان هو الجدار الرابع . ووسط الساحة مقابر ذات شواهد قصيرة وكانها مجموعة تحف صغيرة صفت بشكل هندسي انيق في واجهة متحف من المتاحف .

لعل هذه المقابر وجدت قبل تريم ، وبعضها منذ ايام الحميريين . اجيال وراء اجيال تدفن هنا في وسط البلدة : قالها رفيق الرحلة الحضرمي المولود في سنغفورة ومن اكبر عائلات حضرموت واغناها .

وكانت جموع الصيادين والناس قد اختفت من الساحة وتوزعت في الازقة الترابية الضيقة . واذا بتريم تختلف عن سيؤون وشيبام . انها مدينة حدائق مسورة : داخل السور الكبير ، اسوار صغيرة تدور حول قصورها وعماراتها المرتفعة ، واذا بالجو ، جو اريستوقراطي بعيد عن التجارة والمقايسة والاسواق التي تملأ سيؤون والمكلا .

وانارتني كثرة المآذن ، فسالت رفيقي الحضرمي السيد يعقوب الكاف عن كل هذا ، فقال : في تريم ٣٦٥ مسجدا . كل يوم من ايام السنة لهمسجد . فاغنياء حضرموت كانوا ينثرون بعد موتهم ببناء مسجدا على ارواحهم ، بدلا من أن يبنيوا مدارس ومستشفيات . اما اليوم وقد

وتوفي سنة ١٣٤١ بحيدر اباد الدكن من بلاد الهند . وكانت هجرته الاولى من بلاده الى الحجاز سنة ١٢٨٦ وهذه الهجرة كانت لطلب العلم حيث اخذ عن علماء الحجاز لا سيما السيد احمد بن زيني دحلان ثم عاد الى تريم واقام بها حتى سنة ١٢٨٨ حيث هاجر الى الشرق الاقصى هجرة امتدت اربع سنين كانت جل اقامته فيها باندونيسيا في مدينة سورابايا من مدن جزيرة جاوا مشغلا بالتجارة ثم عاد الى وطنه ولكن لم يستقر فيه بل عاود الهجرة سنة ١٣٠٢ مفتتحا هجرته بسياحة في عدن ولحج والحجاز ومصر وسورية وفلسطين ثم في الاستانة ، واختتم سياحته بالحلول في مهجر جديد هو مدينة حيدر اباد الدكن في الهند ، ولكنه ظل دائم التردد الى اندونيسيا . وفي العام ١٣٣١ عاد الى وطنه

اتفق عدد الجوامع مع عدد ايام السنة ، فترجو ان يبدأ بناء المدارس والمستشفيات .

ووصلنا الى منزل الدليل ، فاذا به قصر من قصور ال الكاف . وتعتبر البوابة الخارجية فاذا قطعة من الشرق الاقصى ، وتمر الى الحديقة ، واذا بها جزء من الملايو او سنغفوره . كل شيء اخضر ، وكانك في غابة استوائية . واصطفت مائدة طويلة ، فيها من انواع الشراب والمرطبات والاطعمة ، وكانك عند سلطان من سلاطين ماليزيا ، اضيفت اليها كل اللسعات العربية الجميلة ، فاختلطت حضارتان في الطريق الى المدة . واكلنا وشربنا وتحدثنا .

وسقطت الشمس وراء السور الكبير ، وبدأت النساء في العبادات البرتقالية والبراقع السوداء ينسحبن الى بيوتهن من الحقول ، ولعت انوار المآذن الكهربائية كمنازل على شاطيء مهجور ، وتهولت تريم عند المغيب الى مهرجان من الالوان الاريستوقراطية ، وبدت سيؤون في الطرف الاخر من الوادي كانها خرافة . وكانت سيؤون وتريم .

مصطحبا عائلته بعد هجرة استمرت نحو ثلاثين سنة، وترك اسرته في الوطن وعاد الى المهجر سنة ١٣٣٤ ليقطع ما تبقى من علاقته ثم يعود الى الوطن ولكن لم تكتب له العودة حيث قضى نحبه في ديار الغربة .

شعره

لن نجد في الشعر المهجري الشرقي ما نجده في شعر المهجر الغربي من تجديد وتطوير ، بل ان الشعر الشرقي هو امتداد للشعر العربي القديم بكل خصائصه وكل موضوعاته ونحن حين نعرض لشعر هذا الشاعر لا نطمح ان نجد فيه اكثر مما نجد في شعر اي شاعر تقليدي من شعراء العرب . وكذلك يمكننا ان نقول نفس القول فيما وصلنا من شعر غيره من شعراء المهجر الشرقي . فالغزل والمديح والرتاء واحيانا الهجاء هي قوام هذا الشعر . والتعابير والالفاظ والمعاني هي نفس ما عرفناه في كل شعر قديم . ومن العجيب ان الانفعالات العاطفية التي اثارها الغربية في شعر شعراء المهجر الامريكي فنظموا في الحنين الى بلادهم شعرا هو بان يوصف بانه عبرات وزفرات وتأوهات اخرى من ان يوصف بانه الفاظ وكلمات . ان هذه الانفعالات التي اشتملت عليها احيانا قصائد كاملة في شعر الشعراء القروي والياس فرحات وايليا ابي ماضي وغيرهم ، ان هذه الانفعالات مفقودة في شعر المهجر الشرقي فيما وصل الينا منه . كما ان الابداع الذي تجلى في شعر المهجر الامريكي هذا الابداع الذي رفع الشعراء الثلاثة المقدم ذكرهم الى اعلى قمة في شعرنا العربي في القديم

والحديث ، هذا الابداع مفقود هو الاخر في شعر المهجر
الشرقي ، فليس فيه شعر يطاول الشعر الامريكى لا في
المبنى ولا في المعنى .

واذا كانت الانفعالات العاطفية مفقودة — كما قلت —
في الشعر الشرقي فذلك لا يعني ان اصحاب هذا
الشعر لم يحنوا شعرا الى اوطانهم ، ولم يتأوهوا
في غربتهم شوقا الى ديارهم . بل هم فعلوا احيانا ذلك ،
ولكنه كان انفعالا عابرا مر قصيرا خلال القصائد الطويلة .
فشاعرنا ابو بكر بن شهاب مثلا ينظم قصيدة من اطول
القصائد يتحدث فيها عن علي بن ابي طالب فلا
يكون فيها من الحنين والاشارة الى العربية الا
ببيتان اثنان :

الا ليت شعري والتمني محبب

الى النفس تبريدا لحر اوامها

متى تنقضي ايام سجنى وغربتي

وتتحل روعي من عقل اغتامها

ولكن هذا الحنين لم يكن الى حصن آل فلوقة
مسقط رأس الشاعر ولا الى تريم مراح صباه ولا الى
حضر موت مدرج هواه . بل الى بلد اخر غير هذه البلاد ،
الى بلد يعتبره موطنه الروحي ، فاذا حن غيره
من الشعراء الى مواطن اجسادهم فان هذا الشاعر
انما يحن الى موطن روحه الى النجف :

وهل لي الى ساح الغريين زورة

لا ستافريا رندها وبشامها

وانسى على نأى الديار وبينها
 وصدع الليالي شعبنا واحتكامها
 منوط بها ملحوظ عين ولائها
 قريب اليها مرتو من مدامها
 ولكن ليس هذا كل ما في شعر الشاعر من حنين ،
 فاذا كان في القصيدة السابقة قد حن الى وطن الروح
 فهو هنا يحن الى وطن الجسد ، يحن الى حضرموت
 وتريم :

على سلمى وان نأت الخيام
 من المضى التحية والسلام
 تناشدني اترجع عن قريب
نقلت نعم ولله امر احتكام
 الا يا دارها من بطن واد
 بهنبت الخزامى والبشام
 سقاك العارض الوسمي سحا
 وحياء ذلك الشعب الغمام
 ترى هل تجمع الايام شملي
 بها او هل لفرقتنا التئام
اليها قبلتي ولها صلاتي
 وحجي والتنسك والصيام .

ويبلغ به الحنين في الهند حدا ينطقه باكثر قصائد
 عاطفة واحرها شوقا :
 يا ايها الراكب الغادي الى بلد
جرعاؤه خصبة المرعى وابرقه

ناشدتك الله والود القديم اذا
 ما بان من بان ذاك السفح مورقه
 ان تستهل صريخا بالتحية عن
 باك من البعد كاد الدمع يغرقه
 يثير اشجانه فوح الصبا سحرا
 وساجع الورق بالذكرى يؤرقه
 له فؤاد نزوع لا يفارقه
 حر الغرام وجفن ليس يطبقه
 بالهند ناء اخي وجد يحن الى
 اوطانه وسهام البين ترشقه .

الفرق بين الشعريين

والفرق بين هذا الشعر وبين شعر المهجر الامريكي ان
 الثاني لا يوري عن بلاده بالجرعاء والابرق وما اليها
 من اسماء عربية ليست هي المقصودة بالشعر ولا هي
 مكان الحنين ، بل هي مواطن لا يعرفها الشاعر ولا
 يشتاقتها ، وانما هي منازل لقوم من العرب تغنوا بها
 في القديم ، فكان من الشاعر الحديث ان حذا حذوهم بذكرها
 معبرا بها عن ارضه ووطنه . واذا كان لم يصرح باسم
 البلد الذي يشوقه فانه قد صرح باسم البلد الذي يحن منه
 الى بلده ، واعلمنا انه الهند . لولا ذلك لما كان من فرق
 بين هذه الابيات واي ابيات لشاعر عربي قديم يذكر جرعاء
 الحمى والابرق . على العكس من الشعر الامريكي
 الذي يسمي الاماكن باسمائها ، ثم هو يعبر عن حنينه

تعبيراً لا يدنو في شيء من تعابير الاقدمين ولا من
اساليبهم ولا معانيهم .

تبرير الهجرة

وهذا المشوق في الهند الى بلده يبرر الهجرة ويعين
اسبابها ، ويرى انه ما دام المقام في الوطن مدعاة للخمول
والاهتضام فلا بد من الرحيل عنه الى اقصى مكان :

تلك السبيل الى الفخار فان ترد
ادراكه فدع الربوع وعادها
وارحل فان العجز شر مصاحب
عجلاً وطأ في السير شوك قتادها
واخطب عذارى المجد في آفاقها
واشهد مواسمها على ميعادها
هل في القضية ان اقيم ببلدة
يخشى الكرام بها اذى او غادها
في الارض متسع لحر نفسه
عصاء يأمن مستحيل كسادها
فسنام اي الارض اذهب منزلي
ولي الندامى الغر من امجادها
ويكرر هذا المعنى فيقول :
واذا ما الكريم آنس ذلاً
في بلاد فليعن بالارتحال .

ولكن هل شفت الهجرة آلامه وابلغته مرامه حين
ترك وطنه خوف الهوان او اذى الاوغاد ، وهل وجد

في الارض متسعا لنفسه الحرة العصماء ، وهل لقي
الندامى الغر الذين تحدث عنهم ؟ انه هو يجيبنا عن
ذلك بعد ان مضى هلى هجرته تسع سنين :

غربة في ديار من ليس جنسي
جنسهم والمقال غير المقال
سمت فيهم نفيس علمي فلم ينفق
وقد قرظتهم بسحر حلال
وبمحض العفاف صار كتابي
مستعارا وصافناتي نعالي
ذهبت حكمتي ضياعا وشمسي
في استتار وعزتي في ابتذال
فيهم قد قضيت تسعة اعوا
م اذابت نفسي وعمري ومالي
ثم تزداد الآلام تفجرا فيقول :
ومن عجب اني نزيل ببلدة
شمائل اهلها الحماسة والدعوى
الى الله اشكو غربتي بينهم فما
الى غيره من مثلهم تنفع الشكوى .

ثم تتراءى له في الذهن اوطانه بعيدة لا سبيل الى
الوصول اليها فيقول :

كيف السبيل الى اللقاء ونحن في
رق الزمان وربما لا يعتق
اترى زمان السوء يسمح لي بما
ارجو فتسري بي اليك الاينق

لابئك الشكوى وتعلم انني

دنف وشملي بالبعداد ممزق

واين هو من النوق في عصر البخار ، فليست النوق هي التي يمكن ان تسري به من اندونيسيا او من الهند الى حضرموت وانما هي البواخر الجواري كالاعلام ، ولكن الشعاع المتأثر بالقديم لا يستطيع التخلي عن قديمه ولا التخلي عن الاحتذاء حذوه حتى فيما تستحيل عليه فيه رؤيته ، فكيف بان يكون وسيلته . .

سنغافورا

وفي كل ما نظم الشاعر لم يذكر اسما من اسماء منازل في المهجر ما عدا ما رأينا من ذكره للهند ذكرا عابرا لا دلالة فيه على شيء سوى انه نزيلها . على انه يخص جزيرة سنغافورا بقصيدة يحييها بها ويحيي نازليها من مهاجرة العرب :

مدينة سنغافورا حين تبدو

معالمها ترى السوح الرحيبا

فحيها الحيا الوسمي حتى

يفادر سفحها ابدا خصيبا

تصور لا يلم بها تصور

ودور بالبدور نفحن طيبا

ولم تسمع اذا ما طفت الا

حماما ساجعا او عندليبيا

وبالعرب الكرام الساكنيها

من المجد اكتسبت بردا قشيبا

وجوه بالمكّارم مسفّرات
سمت عن ان ترى فيها شحوبا
اذا عض الزمان لهم نزيلا
من الدهر استقادوا ان يتوبا .

وتبدو هذه القطعة من اثنى ما في شعر الشاعر من حيث تسجيلها للهجرة العربية تسجيلا شعريا يحدث الاجيال القادمة عما كان للعرب من الشأن في تلك الجزيرة القصية ، التي يبدو جليا من الشعر ان العرب فيها كانوا من الكثرة وكان لهم من الاثر بحيث صحت للشاعر ان يتحدث عنهم كجزء بارز في تكوين سنغافورا الاجتماعي . وبالرغم من ان الحديث في هذا الشعر عن سنغفورا حديث مجمل عام ولا دلالة فيه على مكان معين وطبيعة معينة ، ولا وصف فيه لتحسس نفسي مثير ، فان مجرد التأثير بسنغافورا وابرّاز هذا التأثير في الشعر يكسب هذا الشعر طرافة ويجعل منه وثيقة ادبية ثمينة . وفي مثل هذه القطعة يبرز الفرق ايضا واضحا بين شعر المهجر الغربي وشعر المهجر الشرقي ، فالشعر الغربي فني مثل هذا الموضوع يعنى بالتفاصيل ويحدد لك المكان تحديدا واضحا ويحدثك عن كل جزء من اجزائه وكل بقعة من بقاعه ، في حين ان الحديث هنا يقتصر على الاشارة الى السوح الرحيبة والقصور والدور ، والسفوح الخصيبة ، وعلى الدعوة بان يحييها المطر لتظل ابدا خصيبة .. ثم انتقل فجأة الى العرب الساكني سنغافورا والتباهي بهم والاشادة بخلالهم .

وإذا كان الامر كذلك فلان ما يثير الشاعر العربي الغربي هو غير ما يثير الشاعر العربي الشرقي ولان ما شاهده مثلا وعاشه جورج صيدح على شواطئ فنزويلا فانطقه بالشعر الجميل . لم يشاهد مثله ولا يمكن ان يشاهد مثله فضلا عن ان يعيشه ابو بكر بن شهاب الفقيه الجليل ، ولان ما تعمد ان يقصده ويستمتع به شاعر المهجر الفنزويلي ، ينهى عن قصده والاستمتاع به شاعر المهجر السنغافوري فجورج صيدح مثلا وهو يشاهد المستحبات العاريات على الشواطئ الأمريكية ، كان يرى ان السعي اليهن ومطالعة مشاهدن والانس بهن ، هو ما يسوقه كل اصيل الى الشاطئ ، لذلك فهو يهتف بمثل هذا الشعر :

اغدي الحمائم باكرت حمامها

في شاطئ فرش العيون امامها

الكاسيات العاريات تؤمه

بغلائل ما غلفت اجسامها

تركت الى عبث النسيم شفوفها

ففضا النسيم عن النجوم غمامها

. اما شاعر سنغافورا ، فان كل ما في

الامر انه كان وهو في طريقه الى عمله

وعوده من عمله يرى امام عينيه السوح الرحيبة والميادين

الطليقة ، ويبصر القصور الشاهقة والمنازل القوراء ،

كما يرى السفوح الخصيبة الخضراء يراها من الخارج دون

ان يستطلع ما في تلك القصور وما تضمه تلك الدور ، ودون

ان يقصد ماوراءالسوح من مقاصف ومراقص ومشارب ، وما على جرائب السفوح من مباحج وملاعب . لذلك جاء حديثه عاما مجملا ، حديث العابر العجل ، لا حديث المستائي المقيم . في حين انه كان في نفس الوقت يحيى حياة العرب هناك ، وينغمس في مجتمعاتهم ويفوص في عيشتهم لذلك كان التفصيل في شعره بالحديث عنهم وعن اخلاقهم وشمائلهم . ولم يكن التفصيل في غير ذلك .

اختلاف مواضيع الشعرين

ومن هنا اختلفت مواضيع كل من شعر المهجرين الشرقي والغربي ، فأبو بكر بن شهاب مثلا يصل الى المغرب ابي عمر بن عبد البر فيرى في ذلك حدثا يستحق منه النظم ويستحق ان يؤرخه شعرا فيقول :

زحزح البدر نقابه
وبكت عين السحابه
وغدا البلبل يشدو
فوق افنان الخطابه
ودعا داعي المسرا
ت فاسرنا الاجابه

والدعوة الى المسرات والاسراع الى اجابتها يشترك فيها شعراء المهجرين ، ولكن الذي يختلفون فيه هو نوع تلك المسرات فشاعرنا هنا يعلن ان ما يمكن ان يظنه الناس انه مسرات تغريه ، لا يعنيه في شيء وان مسراته من

نوع خاص :

لا الى الدنيا ولا للغير شوقا وصبابه

بل لنشر العلم نرويه ونستصفي لبابه

وبعد ان يتحدث عن (الاستيعاب) بمثل قوله :

(اسد الغابة) منه مستمد و (الاصابه)

يختم القصيدة ببيتين يؤرخ بهما طبع الكتاب :

وبيت كامل أر خته فاضبط حسابه

رق (الاستيعاب) طبعا واصفا مجد الصحابه (١٣٢٤)

ومن البدهي انه عندما يدعو داعي المسرات جورج

صيدح فيسرع الاجابة ، يكون ذلك الاسراع لا لكتاب

(الاستيعاب) ولا لاي كتاب غير الاستيعاب ، وانما الى

الدنيا والى الغيد شوقا وصبابه . ويبقى بعد ذلك

عنده مكان لكل الكتب ليقراها ، لا لينظم فيها الشعر ويؤرخ

سنة طبعا ، ولالينبذ من اجلها الدنيا والغيد والصبابه . .

على ان شاعرنا الناقم على الدنيا والغيد والصبابه

هو نفسه القائل في ابيات لم تذهب الصنعة احساسها الحي :

سنت الحسان لـ اذا

سماك اهلك « تقوى »

نفيك طال اغترابي

وكادت الدار تقوى

كم صفت فيك نسيبا

نيسيت توافيه تقوى

ننسي نـداك صلغيني

فالوصل بر وتقوى .

وهو حتى هنا تبرز فيه صفته الفقهية فيأتي بالبر
 والتقوى في سياق حديثه الغرامي الصريح. على ان
 ابياته الاتية توضح لنا موقفه الصحيح ، فهو انسان بكل
 ما في الانسان من عاطفة وحاسة وهو شاعر بكل ما في
 الشاعر من شعور ورقة ، لا يستطيع الا ان يستجيب
 للجمال ويخضع للحب ، ولكنه في نفس الوقت مقيد
 بسلاسل تربط عاطفته وتحبس شعوره فتتصارع في نفسه
 شتى الاحاسيس وتتجاوزه شتى الطرق فلا يلبث
 ان يكبت حقيقته ويطفئ جذوته معبرا عن ذلك بهذا
 الشعر :

انا من هوى سود الذوائب ذائب
 اصلت مودتهن في كبدي ضرم
 ولطالما دعت المحبة والهوى
 لعناق خرعة يزول به السقم
 فيصدني عنها مخافة خالقي
 وعفاف نفسي والمروءة والكرم
 فبقرع داعية الهوى وسماعنا
 هية التقى أرد المنية لا جرم
 ما الحب للعشاق الا محنة
 سبق القضاء بها عليهم في القدم

همية وطنية

والغربة والبعد عن الوطن لم تنس الشاعر انه
 ابن الجنوب العربي وسليل تلك الارض الطيبة التي

لها عليه حق الوفاء فما هو ان يبلغه ان شاعرا هجا (عدن)
 بشعر يقول فيه :

هي عدن لكنها من جهنم
 عندها يمرض الصحيح ويسقم
 حتى يهب مدافعها عن وطنه متحمسا لارضه قائلًا
 من قصيدة :

عدن وهي في الحقيقة عدن
 جنة ازلفت لمن سوحها ام
 بلد طيب ورب غفور
 وقصر سرور سكانها عم
 ومغان كأنها في جنان
 وغوان كالخور او هي انغم
 حيث يرعى الذمام والجار يحمى
 ويعز القطيبن فيها ويكرم

كيف هم بقايا المهاجرين

هذه صفحة من تاريخ الهجرة العربية الى الشرق
 الاقصى ، تلك الهجرة التي لم تنل من عناية الدارسين
 ما هي خليفة به .

واذا كان شاعرنا قد تغنى — كما رأينا فيما تقدم —
 بالعرب سكان سنغافورا ، واذا كان غيره ربما كان قد تغنى
 بالعرب سكان غيرها من المهاجر البعيدة ، فكيف حال العرب
 اليوم في سنغافورا، وغير سنغافورا وفي اندونيسيا وغير
 اندونيسيا ؟

هنا تتحد الهجرتان الغربية والشرقية وتتوافقان في ان مصر كل منهما كان مصيرا واحدا . فكما انتهى اليه امر المهاجرين الى امريكا انتهى اليه امر المهاجرين الى جنوبي اسيا . ونستطيع ان نقسم بقايا مهاجري جنوبي اسيا الى ثلاثة اقسام :

قسم ذاب بالكلية في مهجره فلم يعد يربطه بوطنه الاول اية رابطة ولم يعد له من الماضي اية ذكرى . وكان العامل الاول في هذا الذوبان الكامل ان اسرا بكاملها هاجرت تدريجيا حتى انتهت بمجموعها الى المهجر فلم يعد لها في موطنها من ترتبط به او تتطلع اليه من اهلها فانغمرت في موطنها الجديد انغمارا كليا . ونستطيع ان نعد من هذه الاسر اسرة ابن احسن واسرة بارقبة واسرة باركوان واسرة باشيبان التي انطوت اسمائها العربية انطواء كاملا واصبحت سلالاتها تحمل الاسماء الاندونيسية ومن آل باشيبان الدكتور علي ساسترو اميجو (رئيس وزراء سابق) . ومن تلك الاسر يتحدر كل من محمد هاشم اشعري مؤسس حزب نهضة العلماء والدكتور سويونوهادي نوتو من الوزراء السابقين .

وقسم ثان لا يزال يحتفظ من الماضي باسم الاسرة العربي و ببعض العادات العربية ويحس بانه عربي النجار وان كان لا يحسن النطق بآية عبارة عربية .
 وقسم ثالث وهو اقل من القليل لا يزال مرتبطا بالوطن العربي ويجيد التكلم باللغة العربية ويكتب بها تاريخا وادبا . ولا يزال محافظا على تراثه وعاداته .
 هذا عن المهاجرين الذين اقاموا اقامة نهائية في المهجر

وهناك فريق كان يعود الى بلاده ويعاود الحياة فيها(١) .

الصحافة العربية في المهجر الاسيوي

كما حفل المهجر الأمريكي بصحافة غريبة كان لها يوما من الايام شأو رفيع ، وكما اخذت تلك الصحافة بالتراجع والتلاشي آنا بعد آن حتى انتهت او كادت . كذلك كان الامر في المهجر الاسيوي فقد صدر فيه العديد من الصحف جرائد ومجلات بلغت احيانا من المنزلة ما جعلها نظيرا لحصف الوطن العربي في حينها . ولكن على كثرة تلك الصحف لم تصدر منها واحدة يومية على خلاف المهجر الأمريكي التي صدرت فيه اكثر من صحيفة يومية .

واذا كانت الصحافة المهاجرة الأمريكية قد عرفت وارخت فان من حق الصحافة المهاجرة الاسيوية علينا ومن حق منشئها ان نلم بها وبهم هنا المامة ولو قصيرة ففي سنغافورا صدرت الصحف العربية الاتية : السلام : اسبوعية رئيس تحريرها احمد بافقيه ، صوت حضرموت اسبوعية ورئيس تحريرها طه السقاف ، الهدى : اسبوعية رئيس تحريرها عبد الوهاب الجيلاني .

وفي اندونيسيا صدرت الصحف الاتية : حضرموت : مؤسسها عيروس المشهور ورئيس تحريرها محمد بن هاشم . صدرت اول الامر اسبوعية ثم صارت تصدر مرتين في الاسبوع ، الرابطة : شهرية رئيس تحريرها ، احمد

١ - قال رياض الريس وهو يتحدث عن السكرتير العام لاحد احزاب حضرموت : هو حضرمي من مواليد اندونيسيا .

بن عبد الله السخاف ، المدرسة : نصف شهرية ، الثقافة :
 نصف شهرية ، الاقبال : اسبوعية رئيس تحريرها
 محمد بن سالم بأرجاء ، القسطاس : اسبوعية رئيس
 تحريرها عمر . كارم ، الدهناء اسبوعية ، الاحقاف : اسبوعية
 هذا عدا الصحف التي مر ذكرها فيما تقدم .

اما اليوم فقد عفى الزمن على تلك الصحف جميعها
 ولم تبق منها بقية . وانني لاذكر اننا كنا نلقى في مطالع
 الشباب بعض تلك الصحف ، وكانت
 تصل الينا من تلك الارض البعيدة فنرى فيها ادبار فيعا وشعرا
 رقيقا وبيانا ناصعا وحكمة اصيلة .

هذه صفحة من تاريخ الهجرة العربية المجهولة بل
 صفحة من تاريخنا هديره بالحفظ والذكر .

وهناك فريق كان يعود الى بلاده ويغاود الحياة فيها(١) .

الصحافة العربية في المهجر الاسيوي

كما حفل المهجر الامريكى بصحافة عربية كان لها يوما من الايام شأو رفيع ، وكما اخذت تلك الصحافة بالتراجع والتلاشي آنا بعد آن حتى انتهت او كادت . كذلك كان الامر في المهجر الاسيوي فقد صدر فيه العديد من الصحف جرائد ومجلات بلغت احيانا من المنزلة ما جعلها نظيرا لحصف الوطن العربي في حينها . ولكن على كثرة تلك الصحف لم تصدر منها واحدة يومية على خلاف المهجر الامريكى التي صدرت فيه اكثر من صحيفة يومية .

واذا كانت الصحافة المهجرية الأمريكية قد عرفت وارخت فان من حق الصحافة المهجرية الاسيوية علينا ومن حق منشئها ان نلم بها وبهم هنا المامة ولو قصيرة ففي سنغافورا صدرت الصحف العربية الآتية : السلام : اسبوعية رئيس تحريرها احمد بافقيه ، صوت حضرموت اسبوعية ورئيس تحريرها طه السقاف ، الهدى : اسبوعية رئيس تحريرها عبد الوهاب الجيلاني .

وفي اندونيسيا صدرت الصحف الآتية : حضرموت : مؤسسها عيروس المشهور ورئيس تحريرها محمد بن هاشم . صدرت اول الامر اسبوعية ثم صارت تصدر مرتين في الاسبوع ، الرابطة : شهرية رئيس تحريرها ، احمد

١ - قال رياض الريس وهو يتحدث عن السكرتير العام لاحد احزاب حضرموت : هو حضرمي من مواليد اندونيسيا .

بن عبد الله السقاف ، المدرسة : نصف شهرية ، الثقافة :
 نصف شهرية ، الاقبال : اسبوعية رئيس تحريرها
 محمد بن سالم بأرجاء ، القسطاس : اسبوعية رئيس
 تحريرها عمر . كارم ، الدهناء اسبوعية ، الاحقاف : اسبوعية
 هذا عدا الصحف الذي مر ذكرها فيما تقدم .

اما اليوم فقد عفى الزمن على تلك الصحف جميعها
 ولم تبق منها بقية . وانني لاذكر اننا كنا نلتقى في مطالع
 الشباب بعض تلك الصحف ، وكانت
 تصل الينا من تلك الارض البعيدة فنرى فيها ادبا رفيعا وشعرا
 رقيقا وبيانا ناصعا وحكمة اصيلة .

هذه صفحة من تاريخ الهجرة العربية المجهولة بل
 صفحة من تاريخنا هدية بالحفظ والذكر .

ملحق لمقال الدولة الفاطمية

الصفحة ٦٢

قال الدكتور حسن حبشي في كتابه (الحروب الصليبية) وهو يتحدث عن الغزوات البيزنطية لبلاد الشام :

« وامتد النفوذ البيزنطي عام ٩٧٥م - ٣٦٥هـ على طول البلاد الشامية فدفعت له حمص الجزية واستسلمت بعلبك ، وارانق الاقتيكين صاحب دمشق ماء وجهه ابقاء على ولايته » .

الى ان يقول الدكتور حبشي مستمرا في الحديث عن الفتح البيزنطي :

« على ان موجة الفتح (البيزنطي) على حساب البلدان والإمارات الاسلامية لم تلبث ان توقفت منذ اواخر القرن العاشر واصطدمت بقوة الفاطميين اللذين امدوا الاسلام بعم جديد وعنصر قوي يتدفق حياة ويتطلع للفتح ... »

وقالت الدكتورة سعاد ماهر في كتابها : البحرية في مصر الاسلامية :

ان اهتمام الفاطميين بالشام ودعم قواعد الاسطول المصري على سواحلها كان له اكبر الاثر في صيانة كيان الدولة الاسلامية عامة ، والمحافظة على النفوذ العربي في شرقي البحر الابيض المتوسط خاصة ، ذلك ان الروم كانوا قد تمادوا في استهتارهم بالخلافة العباسية ولا سيما بعد استيلائهم على اقريطش ، فعولوا على الهجوم

على اقليم الشام لكي ينتزعوا بيت المقدس منه . ففي سنة ٩٧٥م سار الاسطول الرومي الى بلاد الشام واستولى على كثير من مدنها ولا سيما الساحلية منها ، مثل بيروت وصور وعسقلان وصيدا ، الا ان قوات مدينة طرابلس البرية استطاعت بفضل مؤازرة الاسطول المصري لها(١) من هزيمة الاسطول الرومي ، وبذلك عاد فاشلا الى القسطنطينية . وبدأت الدولة الفاطمية بعد ذلك تثبت سلطانها على قواعد بلاد الشام البحرية وتطارد الروم من اطراف الشام الشمالية .

وتقول ايضا :

... وتحققت مخاوف الفاطميين ، حين لجأ امبراطور الروم سنة ١٠٢٥م الى تأليب حكام صور وطرابلس على الفاطميين ومساعدتهم على شق عصا الطاعة عليهم ، ولكن الاسطول المصري (الفاطمي) كان لهم بالمرصاد فتصدى لسفن الروم في مياه هذين المينائين وانزل بهم هزيمة منكرة .

وتقول ايضا ما خلاصته : ارسل غليوم(٢) الاول صاحب صقلية اسطولا نزل دمياط سنة ١١٥٥م — ٥٥٠ فعاث فيها فسادا ثم اتجه الى تنيس فقتل بحارته الرجال وسبوا النساء وكذلك فعل في رشيد والاسكندرية . ولكنه سرعان ما هاربا عندما ظهر له الاسطول المصري (الفاطمي) .

Brehier: vie et mort de Byzance, P. 200

Stevenson: The Crusaders in the east, P. 82

ملحق لقال الدولة الفاطمية

الصفحة ٦٢

قال الدكتور حسن حبشي في كتابه (الحروب الصليبية) وهو يتحدث عن الغزوات البيزنطية لبلاد الشام :

« وامتد النفوذ البيزنطي عام ٩٧٥م - ٣٦٥هـ على طول البلاد الشمالية فدفعت له حمص الجزية واستسلمت بعلبك ، وارانق الاثكيين صاحب دمشق ماء وجهه ابقاء على ولايته . »

الى ان يقول الدكتور حبشي مستمرا في الحديث عن الفتح البيزنطي :

« على ان موجة الفتح (البيزنطي) على حساب البلدان والامارات الاسلامية لم تلبث ان توقفت منذ اواخر القرن العاشر واصطدمت بقوة الفاطميين اللذين امدوا الاسلام بدم جديد وعنصر قوي يتدفق حياة ويتطلع للفتح . . . »

وقالت الدكتورة سعاد ماهر في كتابها : البحوية في مصر الاسلامية :

ان اهتمام الفاطميين بالشام ودعم قواعد الاسطبول المصري على سواحله كان له اكبر الاثر في صيانة كيان الدولة الاسلامية عامة ، والمحافظة على النفوذ العربي في شرقي البحر الابيض المتوسط خاصة ، ذلك ان الروم كانوا قد تمادوا في استهتارهم بالخلافة العباسية ولا سيما بعد استيلائهم على اقريطش ، فعولوا على الهجوم

على اقليم الشام لكي ينتزعوا بيت المقدس منه . ففي سنة ٩٧٥م سار الاسطول الرومي الى بلاد الشام واستولى على كثير من مدنها ولا سيما الساحلية منها ، مثل بيروت وصور وعسقلان وصيدا ، الا ان قوات مدينة طرابلس البرية استطاعت بفضل مؤازرة الاسطول المصري لها (١) من هزيمة الاسطول الرومي ، وبذلك عاد فاشلا الى القسطنطينية . وبدأت الدولة الفاطمية بعد ذلك تثبت سلطانها على قواعد بلاد الشام البحرية وتطارد الروم من اطراف الشام الشمالية .

وتقول ايضا :

... وتحققت مخاوف الفاطميين ، حين لجأ امبراطور الروم سنة ١٠٢٥م الى تأليب حكام صور وطرابلس على الفاطميين ومساعدتهم على شق عصا الطاعة عليهم ، ولكن الاسطول المصري (الفاطمي) كان لهم بالمرصاد فتصدى لسفن الروم في مياه هذين المينائين وانزل بهم هزيمة منكرة .

وتقول ايضا ما خلاصته : ارسل غليوم (٢) الاول صاحب صقلية اسطولاً نزل دمياط سنة ١١٥٥م — ٥٥٥ فعاث فيها فساداً ثم اتجه الى تنيس فقتل بحارته الرجال وسبوا النساء وكذلك فعل في رشيد والاسكندرية . ولكنه سرعان ما فر هارباً عندما ظهر له الاسطول المصري (الفاطمي) .

Brehier: vie et mort de Byzance, P. 200

Stevenson: The Crusaders in the east, P. 82

الفهرست

الصفحة

٣	المقدمة
٤	هذه اللغة العربية
١٠	معركة عين جالوت
١٩	بطحان
٣١	أبن القومي
٤٣	رشيد الدين الهمذاني
٦٢	من ملاح الدولة الفاطمية
٧٧	ابن هاني الاندلسي
٩٠	حمزة بن عبد المطلب
١٠٥	جعفر بن ابي طالب
١١٧	الزنوج في معركة الاسلام
١٢٥	زين العابدين علي بن الحسين
١٣٧	جعفر الصادق
١٤٩	الخليل بن احمد الفراهيدي
١٦٠	الادريسي وخريطته وكتابه
١٧٤	جميفران الموسوس
١٨٤	الاخوان بين شاعرين
١٩٦	المرأة في حياة المتنبي وشعره
٢٠٣	الحب عند المتنبي
٢١١	عندما كان المتنبي طالب وظيفه

الصفحة

٢١٦	تنبأ بالندم فكان النادم
٢٢٢	ابن زيدون بين الحياة والشعر
٢٢٩	صحافيو الماضي
٢٤٢	ادباء انتهازيون وآخرون مبعدون
٢٤٦	التوزيع المهلبي
٢٦٦	شعراء شعبيون
٢٨٥	ملاحم الملحمة العربية
٢٩٩	الشيخ جعفر الخطي
٣١٢	الشيخ محمد رضا الشبيبي
٤٢٦	الهجرة العربية الى الشرق الأقصى